الكتب خان

الطبعة الثانية

عادل عصمت

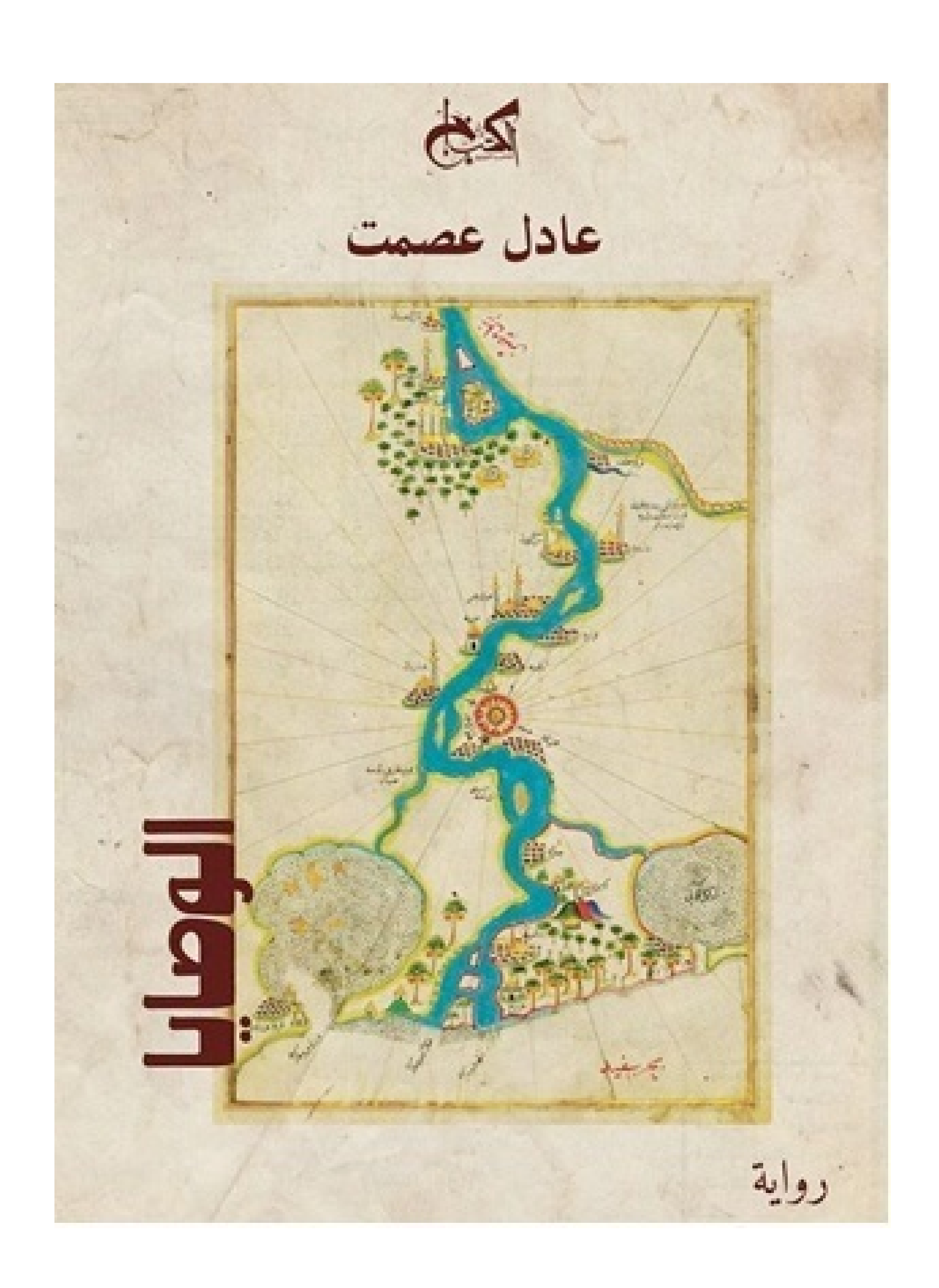
الوصايا



الجائزة العالمية للرواية العربية

INTERNATIONAL PRIZE FOR ARABIC FICTION




عادل عصمت
الوصايا
رواية

عادل عصمت

الوصايا

(رواية)

الكتب خان للنشر والتوزيع

الأربعاء 20 ديسمبر 1978

قال لهم: "هاتوا لي الولد الساقط".
كان يناديني "الولد الساقط" منذ أن رسبت في كلية الزراعة، ولم تعد لي رغبة في أن تسير الحياة بهذه الطريقة. أهانه رسوبي. الرسوب إهمال. والإهمال ضياع. ضاع الولد الذي تعشم فيه كثيرا، عندما حفظ القرآن بسرعة، وكان يقرأ الجرنال للناس في المندرة وهو لم يتعد السابعة من عمره.
كنت في الثامنة عشرة. نفرت من كل شيء: من نظام حياتنا، من تاريخ العائلة الذي خصني بحكايته بتفاصيل دقيقة، كأنه يرغب أن نقشه على قلبي. لقد صهرني في رحلته حتى إني حتى الآن لا يمكنني التخلص منها. لكن الأكثر فداحة بالنسبة لي، والأمر الذي قادني بعيدا، هو رغبته في أن نأخذ مناصب عليا في البلاد. الشطاره في التعليم تعني مركزا مرموقاً، وإن كنت قد أحببت حكاية عائلتي غير أنني كرهت الطموح، هذا الاستثمار في المناصب العليا، وبصراحة أحببت اللعب والسينما والقراءة والسهر، ومطاردة المتع. في سن الثامنة عشرة لم أعد راغبًا أن أعيش بالطريقة التي خطها لنا، وقال لي عمي "صالح"، ذات يوم، إن فشلي سبب مرضه، وظلت دهشتي من هذا الأمر قائمة حتى الآن.
رفضت دخول الامتحانات وتركت كلية الزراعة، ورحت أبحث عن عمل. في البداية عملت في الاستاد الرياضي في طنطا ثم عملت في مصنع الزجاج في ستوتة، ثم رحلت إلى الإسكندرية وعملت فترة في المطاعم حتى قابلت صديقاً، يؤسس أخوه شركة مقاولات ويبحث عن سائق جرار.
عملت في الصحراء الغربية ما يقرب من ثمانية أشهر. كنا نورد رملاً إلى طريق الواحات البحرية- الفرافرة من أجل إعادة رصفه. "السادات "سوف يقيم استراحة في واحة الفرافرة، أو أقامها لا أعرف. المهم أن الطريق لا بد أن يرصف من جديد. رحلت إلى الصحراء، وعشت هناك. أعود إلى طنطا، إلى شقتنا في شارع المؤيد، لا أجرؤ على العودة إلى البلد. أقضي إجازة قصيرة ثم أرجع إلى الصحراء. هذه فترة طيبة، صفت روحي ووهبتني طاقة ساعدتني على الحياة سنوات بعد ذلك، ربما ساعدتني على تحمل ذلك اليوم العصيب من ديسمبر 1978.
في الإجازة الأخيرة أخبرتني أختي "آمنة" أن جدي مريض وأنه كل يوم يتذكرني ويقول لهم: "هاتوا لي الولد الساقط". كان لا بد من الرجوع إلى الدار. أبلغت المهندس أن يتصرف في سائق جرار هذه المرة.
سؤاله عني كان محيراً لهم في الدار. جاء عمي "صالح" من بلاد أفريقيا الغربية، وانقطع عمي "نعيم" عن الذهاب إلى المدرسة، وأبي ترك العمل في الغيط، واستقر الإخوة الثلاثة لأول مرة منذ فترة طويلة في الدار. ظهر التوتر والخوف في تحركات عمتي "فاطمة" التي لم تكن تبقى في مكان واحد فترة طويلة، تطمئن على شؤون دار أبيها ثم تمسك طرحتها في يدها وتندفع إلى دارها لتتابع عملاً، أو تخزن شيئًا نسيته، أما جدتي "خديجة" فقد فرشت جوالاً بجوار باب غرفته وجلست، وذهب عنها تشوش ذهنها، وعندما يسألها أحد أبنائها لماذا نقعد هكذا؟ ترد بحسم وغضب: "يمكن أبوك يحتاج حاجة، يا ولد". لكنها أحيانًا تترك كل ما في يدها ويجدونها تتجول في الدار، كما اعتادوا في الفترة الأخيرة، تنصت إلى الجدران، تتابع مؤامرات "من لا اسم لهم" لكي يستولوا على الدار، ويسكنوها بدلاً من أهلها. أحيانا تعود بوجه بشوش، تقول إنهم سوف يمنحوننا فرصة، وأحيانا بوجه جهم وتقول إنهم يصرون على طردنا من هنا، وسوف يسكنون هذه الدار لامحالة.
أخبروني بأنه يتماثل للشفاء، لكنه أحيانًا يدخل في غيبوبة تستمر فترة وتنتابه نوبة هذيان وهو أمر غريب على طباعه. كانت "آمنة" خائفة وهي تقول لي إنه يتذكر أشياء ويتحدث عن أمور لا يصح أن يتحدث عنها أمام أحد. يبدو أن المرض أبدله، لكن عمي "صالح" يصر أنه يتماثل للشفاء.

***

دخلت غرفته في هذا اليوم العصيب من شهر ديسمبر 1978، ولم أخرج منها حتى الآن. ليس في الأمر مجاز. وقعت في أسر ذلك اللقاء، الذي لم تكن روح صبي في الثامنة عشرة من عمره قادرة على تحمله. كان يجلس على السرير، طاويًا ساقيه كالعادة، في وضعية التأمل، يداه على ركبتيه ينظر مباشرة إلى الحائط أمامه. لم يكن يرتدي العمامة الأزهرية، علامته الشهيرة، بل جلباباً مثل جلابيب أبي ويلف جسده بالعباءة السوداء. رأسه الخالي من الشعر يلمع في ظلام الغرفة، الموشّى بضي يأتي من شقوق شيش النافذة.

جلست على الكنبة صامتًا في مواجهة سريره. لم أتطلع تجاهه بل وجهت بصري إلى كتبه الأربعة على منضدة صغيرة بجانب السرير: المصحف، وتاريخ الجبرتي، وتفسير الأحلام، ومختار الصحاح.

بعد فترة عاد من تأمله ونظر إلى بجدية:

"أين كنت؟"

قلت: "هنا"

قال بحسم: "أنت كذاب".

وتطلع في عيني مباشرة:

"سوف تضيع"

صمت مرة أخرى وخفق قلبي. فترات الصمت الطويلة لم تكن جديدة عليه، لكن التضاد بينها وبين حماسة حديثه هو ما لفت نظري. نظر مرة أخرى إلى وجهي كأنه يبحث عني وأنا جالس أمامه:

"صدق جدك. سوف تضيع. جريك وراء المتع سوف يضيعك".

لم تترك الكلمة أثراً. كنت فعلاً قد ضعت عن الحياة التي رسمها.

غاب في الصمت كأنه راح في غيبوبة من الغيبوبات التي يحكون عنها، يظل جالسا الجلسة نفسها كأنه غير موجود، ينادونه لا يرد عليهم. أسترق النظر إلى وجهه وأشعر بتلك الحالة من المهابة ما زالت تحبطه. هذا الرجل الذي أوقف الدنيا في هذا البلد وعاش حياته بحزم، يوشك على الرحيل. كان أمرا صعبًا. صمته حبسني. لم أكن أستطيع الخروج من الغرفة ولا التحرك إلا بأمره، وهو قد شرد بعيدًا.

***

عاد ينظر إلى بعين يقظة، وعادت إلى ملامحه تلك الجدية التي أعرفها عندما كان يخصني، أحيانًا، بالحديث عن حياته ومكابداته وآرائه، عندما كنت أصحبه وأنا طفل في رحلات إلى العزب المجاورة، أو عندما كنت أوصله بالحمار إلى محطة القطار، وأرجع في المساء بالحمار نفسه لأنتظر عودته، من رحلات لم يتوقف عنها إلا في عامه الأخير. قال بنبرته التي أعرفها عندما كان يلقي إلى بالغاز بسيطة ويطلب مني البحث عن حل لها:

"إن عرفت ما هو السديم، تركتك".

بدا السؤال غريبًا، ولا محل له، فقد ظننت أنه سوف يحدثني عن تركي للكلية وتشردي في البلاد، لكنه نظر إلى بجدية، مشرعًا تلك العيون السوداء العميقة، الغاضبة الحزينة، التي كان يحكي لنا بها حكاية ضياع الأرض، في طنطا في ليل شقة شارع المؤيد الموشى بضوء اللمبة الأصفر العكر. تلك الحكاية التي أصر أن يحيكها دائمًا في كل مناسبة كأنها حجاب يجب أن يعلقه كل منا في رقبته. الإهمال يُضيّع. أبوه أهمل عندما كتب على نفسه شرطًا جزائيًا. لو لم يفعل ما تدمرت حياته وترك العلم الذي أراد أن يقضي حياته في طلبه. الجدية هي الطريق لعيش الحياة.

كان يحدق في عيني بطريقة نافذة. الضوء الآتي من عينيه السوداوين العميقتين، ما زال حتى الآن

يرافقني. أصحو من النوم، وأجده ما زال يحدق. لا بد أنه أحرق مراكز الحركة، وبقيت مكاني مثل فأر ثبته بريق عيني القط. النهار محدود وقد حبسني في غرفته. أسمع أصوات أهل الدار في الصالة وفي الدار التحتانية عند الزريبة والمخازن والفرن، وكنت أعرف أن أحدًا لن يجرؤ على دخول الغرفة. سوف يطرده مباشرة.

أخيرا أفاق وقال يحل اللغز:

"السديم، يا حمار، هو الضباب الخفيف، سحابة من التراب أو الغاز، وفي علم الفلك نجوم بعيدة تظهر كأنها سحابة خفيفة، أو بقع ضعيفة النور، وفي "المختار" السدم هو التعب والحزن، ورجل سادم نادم".

صمت ثم عاد يقول بحزن:

"نحن مجرد سديم، يتجمع ثم يتبدد."

***

لاح لي أنه مادام قد أجاب على لغزه فسوف يصرفني، لكنه ظل ينظر إلى وجهي بانتباه. عاد يتحدث، وبصوته نبرة لوم لم تتمكن من إخفاء المودة التي صاحبت أحاديثه عندما كنت أرافقه في زيارة أصدقائه في طنطا: الشيخ إسماعيل خضر، والخواجة نسيم في سوق العدس، ومحمد بك شوقي في شارع النادي، تلك اللحظات التي حكى لي فيها كل شيء وعلمني أشياء نسيتها.

قال:

"سأملي عليك عشر كلمات، احفظها، وسجلها في قلبك. احفرها هناك. فكر فيها وأنت نائم، وأنت ماشٍ. فكر فيها وتأملها. لن تفهم كل ما أقوله لك الآن. أنت الآن غر، مشدود إلى عصير الحياة في بدنك. ستحتاج هذه الكلمات أكثر مما ستحتاج الأرض أو الدار. اسمع مني إن لم تفهم الآن فسوف تفهم بعد ذلك".

انتبهت إلى تلك النبرة الحاسمة التي بطنت كلماته، أكثر من أي مرة حدثني فيها. كانت له طريقة فاتنة في قنص انتباه من تحدثه، ولكن هذه المرة شعرت بشيء من الخطر، وغلب على انتباهي حس بالخوف. صمت مرة أخرى، وبدا أن الخط تاه منه، ثم عاد يقول متخطيًا ما بدأ:

"اليوم الأربعاء".

طوحت راسي بالموافقة.

"يوم الجمعة سأموت".

"لم يتبق لي غير يوم واحد، ولا بد أن أقول لك كل ما في خاطري".

لاحت بسمة باهتة على وجهه. بسمة غيرت طابع ملامحه، وأعطته سمت الذاهل، المجذوب. لم أره يبتسم قط بتلك الطريقة. كانت بسمته لها سمات أخرى: بسمة المطْمَئن أو الساخر، أو غير العابئ، أو المتفهم. بسمته في تحولاتها كانت تعجبني وأراها مرآة لما يدور في وجدانه. أفهمها منذ كنت قطعة من اللحم وأستشف منها حالاته. أما الضحك فلم يكن له غير تلك الضحكة المصطنعة المسايِرة للناس، مما دفعني أحيانا إلى أن أفكر أن قلب جدي لم يعرف الفرح. هذه المرة أخافتني البسمة الذاهلة. فقد أبدلت ملامحه وحولته إلى شخص آخر، خاصة أنها استمرت ثابتة على وجهه طويلاً.

عاد يطوح رأسه ويسأل من جديد:

"اليوم الأربعاء؟"

هذه المرة لم أتمكن حتى من أن أومئ برأسي موافقًا. لم يكن يراني.

وقال ببساطة:
"يوم الجمعة سوف أموت".
وتصلبت البسمة على وجهه، كأنها ملامح لوجه تمثال، ثابتة كأنه قد مات فعلًا. الحمد للّٰه، أنه بعد قليل، استدار إلى النافذة، كأنه سمع صوتًا يهمس في الفضاء، ثم عاد ينظر إلى بتلك النظرة التي ترى ولا ترى في الوقت نفسه، وأخذ يتكلم بغير انقطاع، ولم تفارق وجهه تلك البسمة الذاهلة كأنها التوقيع على كلامه. احتفظت بحديثه في هذا اليوم، سنوات طويلة، ممهورًا بتلك البسمة التي جعلت من كلماته لغزًا لا أقوى على حله أو نصًا لا أتمكن من استيعابه.
حدثني عن أمور غريبة، حكي حكايات قديمة واستطرد، وغامت كلماته، حتى ظننت أنه لم يعد يسيطر على خيط حديثه، لكنه يعود ويقول: "سأقول لك عشر كلمات. احفظها، انقشها في قلبك". ثم يتحول ويحكي عن حياته، ويسرد أمورًا لم أكن أظن أنه قد يتحدث عنها ذات يوم.
مازلت غير مصدق أنه تحدث معي، ببساطة، عن حبه للست "كوثر" زوجة صاحبه "نور الدين"، وكيف أنها سيدة كاملة. في تلك اللحظة صدّقت كلامهم. لم يكن الشخص نفسه. أبدله المرض وحوله إلى شخص آخر.
في كل مرة يفيق من البوح بما في قلبه، يقول:
"انظر إلي، وتفحصني. الموت يطل عليك. فاهم؟"
ينشف دمي من الرعب كلما تذكرت حديثه في ذلك اليوم. لم أصدق أن يفعل هذا في صبي في الثامنة عشرة من عمره، حتى لو شعر بأنه قادر على تحقيق حلمه في طلب العلم الذي حرم منه بسبب ضياع أرض أهله في الثلاثينيات، حتى لو كانت الصلة بيني وبينه، أنه ظن أنني قد جئت لأحقق له حلمه.

***

لم أعرف شيئًا عن قلب جدي إلا في ذلك اليوم العصيب. ما عرفته قبل ذلك كان الصورة الذهنية التي تسللت إلى من مناخ دارنا وحكاياتها. الآن أقترب من الخمسين من عمري وعشت حياتي بعيدًا عن تعاليمه ووصاياه، لكن يوم الأربعاء 20 ديسمبر 1978 ما زال يعيش معي، لا أتمكن من التخلص منه، أو فهم لغزه.
لقد رحلوا جميعا، والدار التي بناها في بداية سبعينيات القرن العشرين مغلقة الآن على صورته المعلقة في غرفة الضيوف. عائلة فلاحين بادت، وكان يعرف في ذلك اليوم أنها سوف تبيد وتتحول إلى شظايا.
هل كان يشعر بالرعب من الموت ومن ضياع عائلته وتناثرها في البلاد فحمّلني فوق طاقتي؟
لقد ترك لي مواقف وحكايات وبوحاً لم أتمكن من مراجعته إلا بعد ذلك بسنوات. صور على أن أعيد ترتيبها وتخيل ما حدث فيها حتى أتعلم الدرس الذي ظننت أنني لن أتمكن من تعلمه. كيف أوازن بين الشيخ الذي احتفظتُ بصورة مهيبة له وهو يقوم من العثرة ويبني بيتًا محطمًا، وبين ذلك الرجل الذي حبسني في غرفته في يوم من ديسمبر حتى خُيّل إلى أنه صورتي وأنا صورته.
الغريب أن صورته الأخيرة، ترتسم على وجهه تلك البسمة الذاهلة تعود إلىّ كل حين. أقوم من النوم وأجده ينظر إلى مبتسمًا بالطريقة نفسها. بذلت محاولات يائسة لاستعادة الصورة القديمة التي طغت عليها صورة يوم الهذيان، كما كنت أسميه في فترة شبابي وغروري، ونفوري من جو العائلة. حلمت به كثيراً في الفترة الأخيرة حتى ظننت أنه يطالبني بزيارة قبره، وقمت من النوم في أحد الأيام وقد سمعت صوته الرخيم يقول:
"افهم مني واحفظ ما أقول."

"فاكر الخواجة ندرة؟"
"فاكر يوم أن زرناه هناك في طنطا؟"
كان السؤال جادًا، بعثت في خيالي صباحًا قديمًا، كنت أحوج ما أكون إليه حتى أتمكن من الفصل بين وجودي ووجوده.

***

بعد صلاة الجمعة خرجنا مع جموع الناس من الباب القبلي للجامع الأحمدي. شمس الصيف زاهية الضوء، والهواء ساخن. صخب الأصوات والألوان كان مبهرًا. الجو ملون، تطير فيه النداءات منغمة، وهمس ودود وضحك خافت بعد الصلاة. عدل جدي من عمامته الأزهرية ومسد طوق الجلباب. توجهنا إلى زقاق ضيق مظلل رطب، به محلات صغيرة ومخازن للبضائع. على اليمين دخلنا ممراً طويلا مرشوشاً بالماء، على جوانب المدخل، مسنودة ألواح الرخام، وهناك سمعنا صوتاً مبحوحاً:
"أهلا يا شيخ عبد الرحمن".
رأيت في ذلك اليوم الخواجة "ندرة". ربما كان اسمه نادر، أو أندريه، لكنهم في الدار كانوا ينطقونه "ندرة". لم أعرف سبب التسمية ولماذا خواجة؟ كانت جدتي "خديجة" تحكي بمرارة كيف ساهم الخواجة "ندرة" في نزع الأرض من أهلي، وكيف أنهم تسللوا في الفجر، وتواطأ الخفير معهم، وحصدوا القمح حتى لا يأخذ الخواجات أرض البحري بمحصولها، ونبقى عامًا بلا طحين. كارثة ضياع الأرض في الثلاثينيات، يؤرخون بها دورة من دورات الزمن. أخذ جدي الكبير سلفة من الخواجات سيسددها أوان المحصول. أصر الخواجات على أن يكتب على نفسه شرطاً جزائياً بنزع ملكية الأرض بالكامل إن لم يسدد في الميعاد". ألا يكفي فدان واحد؟" يقول جدي: "لا، نزع ملكية عشرة أفدنة، من أجود الأرض". نبرة التعجب في صوته، غامضة، أوقعتني في حيرة: هل يلوم أباه الذي وقع شرطاً جزائياً على نفسه، أم الخواجات الذين حصلوا دون وجه حق على أرض أهله؟ ويبدو لي أنه لو كان موجودًا التمكن من التفاوض معهم؛ فقد قضى عمره الطويل، يراكم خبرات في الفهم والتفاوض.
لم ينبهني جدي أني سوف أرى في ذلك اليوم ما سمعت اسمه مرات عديدة، في دارنا، عندما يأتي حديث محنة الثلاثينيات، والهلاك الذي أصاب العائلة، كان شارداً حتى دخلنا المحل، ورأيت الخواجة. رجل ضخم الجسد، أبيض الوجه، له أنف عظيم به نقر صغيرة وشعر أبيض ناعم ممشط إلى الوراء. لا يطابق الصورة التي كونتها عنه وعن كل الخواجات بأن وجوههم بيضاء لامعة، مثل الزبدة تسيح في الشمس، كما كنا نقول في "الكتّاب".
ترك الرجل المكتب ووقف يرحب بنا، نظر إلى بدهشة وقال:
"من الشاطر؟"
"حفيدي".
قال جدي كأنه عاد من شروده وتذكرني.
"ياه! زمن، اتجوز الولد الصغير الذي كان يقف على المصطبة، وأنجب؟ ياه زمن".
نظر إلي وقال مرة أخرى:
"كان في مثل عمره".
غام وجه جدي. جلسنا على مقاعد من الخيزران، وأرسل عاملًا ليشتري زجاجات المياه الغازية الباردة. كان الممر الطويل المظلل يسمح لي برؤية الضوء لامعاً في الزقاق المبلط بالبازلت.
انتظرت أن يفتحا حديثًا مثل الحكايات التي سمعتها مرارًا على سطوح دارنا، عن السنوات الصعبة بعد

ضياع الأرض. لكن الرجلين تحدثا في أمور بعيدة عن ذلك تمامًا؛ تحدثا عن التأميم، وأحوال البلاد.
كان الخواجة "ندرة" يملا المقعد ويتحدث بصوت مبحوح، فيمتلئ المكان بنثار من الحروف وكلمات من الصعب تمييزها خاصة عندما يظهر الانفعال على وجهه. رائحة مسحوق البلاط واضحة، والرجلان يواصلان حديثًا وديًا عن أحوال البلد. بلا جدوى بحثت عن عداوة، عن ضغينة، لم يكن هناك غير أحاديث في السياسة وسؤال عما تبقى من أرض الخواجة في البلد.
قال الخواجة:
"إذا اشتريت أنت، فأنا مسامح".
"المشكلة أن المبلغ ليس جاهزا".
"سأسافر لابنتي في اليونان".
ونظر إلى جدي بمودة وأكمل:
"كبرت وما عدت أقدر على العيش وحدي".
قبل أن نمضي قال:
"فكر يا شيخ، أنت أولى، الأرض أرضك".
رفع جدي وجهه ومرت أنامله على حافة العمامة، كأنما يتأكد من وجودها، وسلم عليه ومضى، وتمتم عندما عدنا إلى الزقاق:
"سبحان من له الدوام".
كان الزحام قد خف، وصوت عصاه يرن على البازلت.
***

(1)
خلاصك في مشقتك

"انظر إلي وتفحصني. كائن يغادر الأرض، خذ منه وتعلم: خلاصك في مشقتك".
"اعرف هذا وافهمه. الحياة بنت الموت. في الظلمات تنمو البذور، الظلمة ليست شراً خالصًا، إنها الرحم الذي تخرج منه الحياة، فيها تموت البذرة لكي تنمو النبتة. لو نرسخ هذا في قلبك لفهمت وتقبلت المشقة لأنها الطريق. لا خلاص بلا مشقة. لا تحرن مثل البغل، وترفض ما يحدث لك. اقبله واحتمله. كل شيء حولك يقول ذلك. النبتة تشقي من اجل تكوين الفرع، والفرع من اجل الورقة والورقة من اجل الزهرة والزهرة من أجل الثمرة والثمرة تحمل الحبة في بطنها، وتموت لكي تبدأ حياة أخرى، تأمل هذا وافهمه إنه القانون. الحق".
"لا تصدق المشايخ ولا الكتب، لن يأتي الخلاص في أعقاب المشقة، لأن المشقة قدر الإنسان، ألم تحفظ القرآن؟ نسيته؟ ألا تعرف معنى كلمة "كَبَد"؟ يكابد، تكبد، مكابدة. ابحث عنها في المعجم وتعلم. هذا كلام كبير عليك سوف تفهمه ذات يوم.
"تجلد امام المحن وسوف يبزغ النور".
تبرق عيناه بالبريق نفسه عندما كان يحكي لنا قصة ضياع الأرض، هناك في شقة شارع المؤيد في طنطا عندما كبرنا ورحلنا لنتعلم، وكان يزورنا مرة أو مرتين في الأسبوع. سمعنا الحكاية في أوقات مختلفة، وبطرق مختلفة، ورافقت نمونا. في طفولتنا بدت لنا خيالية لم تحدث أصلًا، وعندما كبرنا بدت حكاية تخص الصراع اليومي على الأرض الذي نراه يحدث أمامنا كل يوم. وعندما كبرنا فقدت سحرها، وتعرضت للنقد والتأويل والتساؤل عن صدقها.
كنا قد سكنا شقة عمي صالح في طنطا، بعدما سافر ليستقر في القاهرة. يرعانا جدي، لا يمر أسبوع إلا ويأتي ليبقى معنا عدة أيام. له مشاغل في مصلحة المساحة، ووزارة الري، والزراعة، والمحاكم، وأحيانا يسافر إلى الإسكندرية لكي يوثق عقودًا أو يأتي بأصول أوراق من بقايا المحاكم القديمة.
يجلس في غرفة الجلوس ذات النوافذ الزجاجية في الشقة، يحكي لنا ما حدث له ولأخيه ولأبيه. الحكاية التي سمعناها في البلد تحكى في ليل المدينة بتأثير مختلف. أثر مرير ومأساوي دفعني دائما للتساؤل حول المعنى الغامض وراء حكايته. رما تسعى الذاكرة إلى طرد الأحداث المؤلمة، ومحاولة جدي الدائمة لحكي الحكاية كانت محيرة؛ فهل يستمتع بألمه؟ أم أنه يشعر بالذنب؟ هل كان يكرر رواية حدث مؤلم حتى يتخلص من ألمه؟ لكنه لم يدرك أنه بتخلصه من ألمه يغرسه فينا. هل أراد أن نشعر بالآلام التي يشعر بها؟ هل أراد أن نشاركه ما حدث كأننا عشناه؟ هل أراد أن يغرس فينا الألم الذي فجر فيه الرغبة في الحياة حتى تنفجر فينا الرغبة نفسها؟
بمرور الوقت عرفت أنه كان حائراً، وأنه لم يكن يقصد حكي الحكاية. كان مدفوعًا لحكايتها، لأن أخاه وأباه وأفرادًا آخرين من العائلة لم يكفوا عن زيارته. عرفت ذلك عندما اقتنى كتاب تفسير الأحلام، يحمله معه مطويًا في سيالة جلبابه أينما سافر. عندما سألته عنه قال إنه يحلم بأبيه وإنه يريد أن يعرف ماذا يريد منه. أدركت أنه لا يكف عن الحلم بهم: الرجال الذين تساقطوا بعد كارثة الأرض، كانوا هناك في عالمهم البعيد، يبحثون عن أرض. يتجولون هائمين في طرقات تعج بالفحيح، لا يمكن تخليصهم من حسرتهم على ضياع الأرض.

****

"كوم من اللحم". قال:
"تركت دراستي وآمالي بأن أبلغ العلا، وعدت لأرعى كومًا من اللحم: أمي وزوجتي وزوجة نعيم أخي، وابنه "علي"، وبنتيه سعدة وعواطف، وابني الصغير".
ينظر إلى وجهي لكي يتأكد أنني أفهم.
حارة ضيقة، تقود إليها درجات سلم حجري. رائحة رطوبة في الجو. يخطو "نور الدين" بتمهل. يبسمل ويشق طريقه على ضوء فانوس معلق أمام باب خشبي. محلات مغلقة الأبواب، بأعمدة مائلة من الحديد. كلب رفع رأسه ونبح بكسل، ثم عاد ليرقد من جديد أمام باب مفتوح يشع منه نور أصفر باهت.
البيت من طابقين. بوابته مفتوحة، والشرفة فيها غسيل منشور يهتز مع نسمات الليل الباردة. السكون صلب، يدفع بأيات منسية من القرآن إلى لسان "نور الدين". كان يسكن هنا مع الشيخ ولكنه لم يتحمل هذه الحياة، وعاد، لكي يعيش ويتزوج ويرعى أرض أبيه محمد الخولي.
دخل البيت، يواصل ترديد آيات القرآن. على يساره "زير" قديم مستقر على قوائم من الحديد، وفوقه غطاء من الخشب. رائحة الرطوبة نفاذة، وصوت تنفس يأتي من أعماق الغرف. المدخل مضاء بلمبة زجاج موضوعة على بسطة السلم. الخطوات واهنة والسفر الذي بدأه منذ المغرب كان شاقًا، وها هو يصل أخيرًا.
باب الغرفة بضلفتين. وقف متمهلًا، ثم طرق الباب بخفة وهو يقول:
"يا شيخ عبد الرحمن".
يقوم الشيخ من فراش عبارة عن مرتبة مفروشة فوق حصير يصل إلى الحائط. إلى جوارها صف من كتب الفقه والحديث واللغة، وفوق الكتب وناسة صغيرة، شاحبة الضوء. النافذة التي تطل على الحارة، مغلقة، فيها بعض الأواني والكتب وعدة الشاي، وبعض الثياب مكومة في الركن. الضوء الواهن جعل الغرفة ضيقة ورائحة الرطوبة قوية.
جلس "نور الدين" على المرتبة والشيخ بجواره مربعًا. لم يستطع أن يتحدث. قال بعد ذلك بسنوات، إنه كان يعرف ما حدث. ضاعت الأرض لأن محصول القطن قد خاب. أكلته الدودة. انتظر ما سوف يقوله "نور الدين"، لكي يمحو الخرس الذي علق، كالمر، في اللسان. كل منهما لم يكن قادرا على فتح الموضوع. وفي النهاية تجرأ "نور الدين"، وأخبره في كلمات بسيطة بأن أبوه مريض ولا بد أن يعود معه إلى البلد.
قام الشيخ وراح يعبئ حاجاته في سلة مصنوعة من عيدان البوص. لم يستطع نور الدين أن يسأله عما ينوي، إلا بعد أن رآه يلبس الجبة والقفطان ويقف في صحن الغرفة.
قال نور الدين:
"الدنيا ليل، يا عبد الرحمن".
نظر إلى صاحبه كأنه يدرك تأخر الوقت لأول مرة، لكنه كان قد شرع في الرحيل ولن يوقفه شيء.
قال نور الدين:
"الصباح رباح".
"سوف نمشي"
"نمشي؟ في الليل يا عبد الرحمن؟ حرام عليك"

***

الشوارع خالية. قطط تعبر مسرعة من جانب إلى آخر، مثل أشباح تتخفى. نباح كلب بعيد. شارع الخان هاجع. المحال مغلقة. كل شيء نائم. الحارات الضيقة مثل أخاديد مظلمة. لا يكف نور الدين عن البسملة وقراءة السور القصيرة من القرآن. مشيًا شرقًا باتجاه ترعة الرياح. الشيخ يعرف الطريق، مشاه عدة مرات على قدميه، عائدا من البلد، لكن النهار مبصر، وفي الليل تتحول الهموم إلى وحوش.
الترعة الكبيرة ماؤها غائر في موسم الجفاف. أعشاب الشاطئ تنتشر بلا نهاية. النجوم تلمع في الماء، غائرة تسكن قاع الترعة. الشيخ صامت وبجواره نور الدين يلاحق خطواته. يقول: "كنا انتظرنا لحد الصبح يا عبد الرحمن"، لا يرد الشيخ. الخطوات ثقيلة والطريق يمتد بلا نهاية. أشجار الكافور عملاقة، كائنات حية في الظلام يمتد ظلها على سطح ماء الترعة. يقول نور الدين: كنا صلينا الفجر. كل شيء ثابت عدا خطوات الشيخ. السماء تبتعد أكثر مما تبتعد البلد. صمت لا يظهر فيه غير صوت المداسات وخفق الملابس حول السيقان. يمضيان بلا نهاية إلى بلد لن يصلا إليها.
تركا الطريق الرئيسي. خاضا في طريق ضيق تتناثر على جانبيه طرق فرعية أكثر ضيقًا تقود إلى العزب القريبة من البلد. وصلا إلى الترعة التي تمر بجوار شريط السكة الحديد. عبرا القنطرة الحجرية. أخيرًا لاحت البلد. وقصر سعيد بك الذي بناه لكي يراه أفراد الأسرة الملكية في طريقهم إلى مزارعهم في البراري. عندما تخطيا المزلقان، ارتاح نور الدين. أصبح الطريق معروفاً، لكن البوص الكثيف على شواطئ المصارف ما زال يربكه، ويسيب مفاصله عندما تهب الريح، فيتمايل كأنه في حلقة ذكر.
نور الدين يحكي، بعد ذلك، عن تلك الرحلة قائلًا إنها أصعب يوم في حياته. سمع صوت عجول تطبش في الماء، وأصواتًا تهمس في الهواء، كأن الموتى قد خرجوا يتجولون. تضحك الست كوثر، وتقول: الشيخ عبد الرحمن لم يكن يدري ما حوله وأنت تراقب الأشباح. يبتسم الشيخ متملصًا من كآبة تلك الليلة ويدعي أنه لا يتذكر أي شيء.

****

يصل الشيخ إلى الدار. القاعة واسعة. مصطبة عريضة وفرن الشمس مختبئة. السحب بعيدة وعالية، داكنة اللون. من نافذة القاعة، دخل ضوء النهار مخلوطًا بالضباب. أنار وجه أبيه الراقد فوق الفرن مغمض العينين. وجه شاحب، وشارب مشعث، وجسد ضئيل مغطى بحرام من الصوف. فتح المريض عينيه، وهمس بكلمات لم يتبينها الشيخ. جلس على طرف الفرن بجوار فرشة أبيه. مال تجاه الوجه كي يتبين ما يقول. الحروف مدغمة، اللسان ناشف، يتحرك في الفم بصعوبة. الأنفاس القصيرة لا تساعد على اكتمال الكلمات.
فشل الشيخ في سماع شيء. لا يكف أبوه عن النظر إليه من حين لآخر. يحرك وجهه حركات متشنجة. يقترب الشيخ وينصت إلى الكلمات التي يحرمها اللسان المعوج من أن تحمل أي معنى، ولا يترك غير أصوات مثل أصوات الحرس، مليئة بالألم، والمعاني الضائعة.
الأنين خافت. يأتي من ساحة الدار الداخلية. رأى أمه من النافذة الضيقة في وسط الدار، تسحب الرماد من محمة الفرن بكفها وتعبئه في "غلق". حملته على رأسها وغابت. صوت الأنين لم ينقطع، جاء من الداخل، حيث يرقد أخوه نعيم. يتقيأ كل ما يصل إلى جوفه، والأم تضع الرماد على بقع القيء الأصفر الكريه الرائحة.
في الليل الدار مظلمة. رجال قلائل يجلسون صامتين على المصطبة. نار القوالح تخبو في وعاء من الفخار بجوار الحائط.

***

مشي صامتًا وراء نعش أبيه. الرجال قلائل في ذلك الوقت. أغلبهم حفاة. النعش يرمح وخفق جلابيبهم مسموع. هذه الجنازة ذكرت الناس بأيام الكوليرا، عندما كانوا يسرعون بالميت لكي يعودوا لحمل آخر. المسافة طويلة إلى المقابر الجديدة خارج البلد. وضعوا النعش أمام القبر. أدركوا، أنه طار بهم. سمعوا في جوف صمتهم أنفاسًا متلاحقة، وانطلق في الجو بعض السعال الخشن. حاولوا حبسه داخل الصدر إكرامًا للميت.

الأيام التالية قضاها الشيخ بجوار أخيه نعيم. لم يكن المريض يشعر به في البداية، دعك الجسد بالليمون والماء البارد، أدى إلى أن يسكن قليلًا، ويهدأ تنفسه. يفتح عينيه مستريحًا. يظهر أثر ابتسامة على شفتيه. وجه المريض ينير، بتلك الابتسامة، في روح الشيخ أملًا بالشفاء": يا رب نجه، سيكون عوني، لا تتركني وحدي يا ربي، ترفق بي. عبد النعيم صغير، يستحق منك العطف، وعبدك عبد الرحمن يستحق منك الشفقة". ابتسامة "نعيم" طوق نجاة، تبدد. ما لبثت أن عادت نوبات القيء، والرعشة، وبدأ الصدر يضيق. ليلة كاملة يصدر عنه أنين وحشرجة. قالت أمه:

"أخوك بيطلع في الروح".

قال غاضبًا:

"اسكتي يا أمه".

يجلس بجوار أخيه. سمعه يتكلم. قام من فوق الحصيرة. امتدت يد المريض لتمسك بيد أخيه المتعلم. أنهى المرض الصحة والعافية، لكنه لم يمح الخشونة التي تركتها الفأس في الكف. أخيراً تمكن من قول جملة واحدة:

"خلي بالك من "علي" ابني".

يمشي وراء نعش أخيه الصغير. جلس مقرفصًا بجوار القبر المفتوح يري الجسد الخفيف الملفوف في قماش أبيض يُحمل من النعش. بكاء يصعد من جوفه، اختناق انفجر في حشرجة، خشنة. ليست بكاء. غضب خشن وسعال مكتوم. خرقة من الصوف محشورة في الصدر يحاول أن ينتزعها. اقترب نور الدين وبعض الرجال. ما إن لمسته أكفهم، حتى أفلت ودفعهم بعيدًا. وقف مستندًا على جدار المقبرة. أراح جبهته على حافتها. صوته أكثر خشونة، ونتف من كلمات غاضبة تتخلل النشيج. الرجال حوله، لم يسمعوا الحاج قرشي يقول:

"اتركوه يا أولاد".

وقوفهم حوله يزيده غضبًا. يضيقون عليه الخناق كلما حاولوا لمسه. دفعهم بعيدًا، وامتدت يده إلى طوق جلبابه وشقه. ران صمت ثقيل تردد فيه صوت قماش الجلباب ينشق. قال أحد الرجال بصوت خافت:

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

صدره انشق مع شق الجلباب. سمع نور الدين يقول معاتبًا:

"حرام عليك يا عبد الرحمن".

استند على صديقه بدلًا من حائط المقبرة وبكي بكاء عاديًا مثل بكاء الناس.

***

في شق الجلباب راحة. الخروج من الهدوم خروج من الهموم. يغادر المرء لحظته، يغادر حاله، هكذا شرح الأمر ذات يوم. لكن شق الهدوم خروج من الدين، إلا أنه في بعض الأحيان لا مناص منه. هدأت

روحه، بعدما خرج من جلبابه. كان لا بد أن يفعل، لكي يدخل من جديد نظيفًا من تلك الحشرجة الخفية والأنين الذي يطن في أذنه ليل نهار.
سار بجوار نور الدين في طريقهما إلى الدار. رفض أن يرتدي جلبابًا خلعه أحد أقاربه، فقال الحاج قرشي: "اتركوه لحاله". عاد إلى الدار بجلباب مشقوق، وبعض الصفاء.
في عصر اليوم التالي وقف يستقبل الناس في المندرة. كل شيء غير معقول، حياة كاملة تهدمت في غمضة عين. لم يكن يتصور أن يفقد سيطرته على نفسه. لم يخطر على باله قط ولا صدق الناس أن الشيخ عبد الرحمن سليم يمكن أن يفعل مثل الجُهّال، ويشق الجلباب، لكن المصاب ثقيل. بشق الجلباب تخلص من عبء أسود كان يلوث الدم، لكن بمرور الوقت تبدد الصفاء. البقاء خارج الدين مخيف كالبقاء في نجس.
بعد ذلك بسنوات قال، إن العبء الذي تخلص منه بشق الجلباب كان "العمى". ليس الحزن ولا ألم الفراق، ولا الكارثة. شق الجلباب خلصه من غمامة حطت على عينيه، كان يشبه الإفاقة. أدرك أن عليه أن ينظر إلى حياته ويعاني آلامه بصبر الرجال. منذ ذلك الوقت صعدت عليه جهامة الصخر، كأنما أصبح عجوزًا رغم أنه كان تقريبًا في الثلاثين من عمره.

***

لا يوجد في الدار غير الجدران وبعض الأغطية والحصائر والقليل من الدقيق وكومة صغيرة من كيزان الذرة. الجدران تبدو بعيدة عن أهلها. الدار ساكنة مسكونة بالأشباح. الحديث فيها خافت لا يسمع طول النهار غير كلمات قليلة. التسليم بالقضاء يسري في حركة النساء. الطرح مشدودة على الجباه، والمخاوف لا تبقى طول الوقت مطمورة. تجد في أركان الدار لحظات لتنقلب إلى تمتمات وأنين وحديث إلى النفس ومناجاة للّه في السماوات البعيدة أن يرأف بالحال ويزيح الهم. لكنهن لم يتوقفن عن العمل. لا يعرف المرء ماذا يعملن لكنهن يجدن أعمالًا.
التسليم بمصيره ومصير أهله، يجد صعوبة في الدخول إلى قلبه. يجلس على الكنبة في المندرة، لابسًا العمامة وجلبابًا من جلابيب أخيه نعيم. لم يخلع العمامة طول حياته، وظلت علامته في نظر الناس، ومصداق مناداته بلفظ "الشيخ". غضب كالح يحوم في نفسه. لا يمكنه التنفيس عما يدور في خلده: هناك في الحياة روح شريرة تخص داره بالخراب، وتطرد أهله بعيدًا إلى الضفاف الأخرى.
الليل ثقيل. العيون مفتوحة على سقف مرصع بالبوص، تراكم عليه دخان المصابيح لسنوات طويلة. اللحظات تعصي طبيعتها وتسكن مكانها، تراوغه، وتركن أمامه بلا رغبة في مفارقته. تخيم عيناه فلا يرى البوص. تحجب الرؤية حشرات طائرة، صغيرة كهاموش الربيع، يطير على الطرقات الضيقة بين غيطان القمح. أحيانا يخطفه النعاس، ويغيب في سحابة من تراب، يدخل خدرًا قصيرًا ويستيقظ على الحال نفسه. تصحو الست خديجة فتجده جالسًا طاويًا ساقيه، واضعًا وجهه بين كفيه كمصحف بين دفتي حامل خشبي، تقول:
"نام يا شيخ عبد الرحمن، نام يا أخويا".
"استغفر ربنا والحال ينصلح على طول".
لا يرد عليها. تصمت. وتضطر لإزاحة الحرام الثقيل عن جسدها، وتندهش كيف لا يشعر بالبرد وهو جالس وحده في هذا الطل.
"اسمع كلامي ربنا سيعدّلها".
وتقترب منه:

"نام والصباح رباح".

****

غفواته شقوق يخرج منها أبوه وأخوه ومعهم من رحل من رجال العائلة. يعودون إلى الدار. يتجولون ويجلسون على المصاطب. يمارسون حياتهم كأنهم أحياء. يزداد الألم مرارة، عندما يفتح عينيه ويدرك أنهم أموات، ويفسر تجوالهم في الدار على أنه تجوال أرواح فقدت ملجأ. بعد ذلك بدؤوا يتحدثون معه. لم يفهم حديثهم. الألم يأتي من الغمغمة التي تصدر عنهم كأنهم خرس. الحيرة نفسها التي وقع فيها مع أبيه قبل موته. حيرة مؤلمة أمام كلام تسمعه ولا تعرف معناه. تصور أن الموت يمنحهم لسانًا غير لسانهم في الدنيا، واستراح للفكرة، لكن كلماتهم الغامضة تحط في قلبه المشاعر نفسها التي ترافق أنين أمه في أطراف الدار، وتؤكد له الإحساس بأن روحًا شريرة تحوم حوله. يصحو في الليل خائفًا من طريقة الموتى في نطق الكلام ويشعر بأنهم يريدون أن يبلغوه أمرًا تقف اللغة حائلًا دون فهمه.
يطلع على سطوح الدار. يتجول في الأركان، في الزريبة والمخازن وفي الغرف ويجلس في المندرة، وفي المغرب يذهب إلى الصلاة في الجامع ويقوم بزيارات سريعة إلى دار خاله في وسط البلد. كل ذلك لا يساعد في تخفيف القلق. لم يفارقه الإدراك بأن أهله يريدون منه شيئًا لا يقوى على فهمه. لو استطاع أن يعرف ماذا يريدون؟ اللف طول النهار لم يشفه، بل كان يواجهه بالكارثة في الوجوه التي تستقبله بشفقة ينفر منها. أصبح وجود أهله في المنام قلقًا يدفعه إلى مكان آخر. يواجه الحالة نفسها في المكان الجديد. الخوف الذي ترسب عن شق الجلباب كان غائرًا ينام تحت طبقات القلق الذي تتركه الأحلام بأهله.
تدخل الست "نصرة" أمه المندرة وتقول بصوت خافت: "وبعدها لك يا عبد الرحمن؟ حبستك لن تؤكلنا. رح لسعيد بيه أو الحاج قرشي". وتستمر في الحديث قائلة، إنه يكفي أن يكون موجودًا حتى تستمر الحياة. حبس النفْس في حزنها يساعد الشر على تنفيذ غرضه. يساعد الخراب. يجب أن يحمد الله على عطاياه.

****

بعد صلاة العشاء، وقف ينفض مداسه على عتبة الجامع. التفت إلى اليمين تجاه المقام القدم، رأي عم "محمود" يجلس على مصطبته في الظلام. الأقفاص التي صنعها طول النهار من جريد النخيل مصفوفة بجانب باب الغرفة، بطولها نور شاحب من لمبة معلقة على باب المقام. البرد شديد والهواء يحرك فروع شجرة الكافور القديمة. فكر على الفور أن يرد دينه. انتبه أن حيرته طوال الأيام الماضية سببها التشوش والإحساس بالخروج عن الدين الذي تركه شق الجلباب.
عم محمود طاعن في السن. لا تفارق التراتيل لسانه في النهار وهو يصنع أقفاصًا من جريد النخيل ولا في الليل عندما يجلس على المصطبة وحيدًا بجانب مقام جده سيدي عبد العال.
سأله عم "محمود" عن اسمه واسم أبيه وأمه. وصمت قليلًا لكي يترك عالمه ويعود إلى عالم الناس، ثم قال بصوت خافت:
"أبوك رجل طيب، لكن الغضب يغلبه".
أدرك أن عم محمود لا يعرف شيئًا عن مصيبته. لأول مرة لا يقابل المصيبة في وجوه الناس. وأدرك أن هذا المكان هو ما كان يبحث عنه في الأيام الماضية.
"رد لي ديني يابا محمود".

مال عم "محمود" تجاهه حتى يتبين الكلمات.
"تريد أن ترد دينك؟ يغلبك الغضب مثل أبيك؟"
لم يقل العجوز شيئًا آخر، واستدار تجاهه وقال:
"متوضئ؟"
"متوضئ".
"قل ورائي.
"تبت إلى الله
وندمت على ما فعلت
وعزمت......"
وراح يقرأ نص التوبة بصوت خفيض خلف عم محمود، جملة جملة. النص العادي، يخرج مضيئًا من شفتي الرجل الطيب، كأنه قرآن، به كل شجن الرجاء والرغبة أن تمتد يد الله وترعانا. الكلمات خارجة من عزلة ورع عم محمود ونوره الباطني، تنطبع في ذهن "عبد الرحمن" سكينة. شعر ببلل يسري إلى أغشية العين، قاومه ولم يسمح له أن يتحول إلى دمع. هذه إحدى المرات التي وجد فيها راحته في تلك الأيام العصيبة. لم يزره في تلك الليلة أحد في أحلامه، أول مرة يسكن الموتى في موتهم ويعود للحي نومه الطبيعي الذي يغص بالشخير.
داوم على صلاة العشاء في الجامع والجلوس قليلًا بجوار عم محمود يتبادل معه كلمات بسيطة أو ينصت إلى تراتيله.

***

تجلس الست "نصرة" على العتبة تنتظره. تمسح بالطرحة عينيها. ضوء اللمبة الصفيح فوق رف من الطين، جعل الدار كالكهف. هلّ قادمًا من الجامع. استقبلته:
"تعالى يا عبد الرحمن، شوف ابن نعيم أخيك".
اهتز لذلك الكشف الموجود في كلمة "ابن نعيم". كأن نعيم هنا، في مكان ما، في حوض "البركة"، في غيط "أم جلاجل". لحظة دافئة شعر فيها بأن له امتدادًا، وبددت مخاوف الأيام الماضية من أن جذر الدار قد جف، وأن الشجرة بكاملها في طريقها إلى الذبول. "علي"، ابن أخيه، في العاشرة من عمره، فرع من الشجرة يكفي لتستمر الحياة. حتى إذا هو نفسه مات، فهذا الفرع الجديد سيجد طريقه ويتجذر، في الأرض، مثل الصفصاف أو الجميز.
يجلس "علي" على الأرض، أمام المصطبة المواجهة للباب الكبير. وجهه أسمر حاد الملامح، شعره الناعم ينزل على جبهته من تحت طاقية منحولة الحواف. بذرة فلاح مشدود مثل الوتر. خيل للشيخ أن الولد قد كبر في تلك الأشهر، وأدرك أنه لم يكن يراه؛ لم يكن يرى غير المصيبة.
عرف الحكاية: في المغرب كان سعيد بك يمر في طرقات البلد. سمعت الست "نصرة" صخب الميال: "البيه هنا". تركت ما في يدها واندفعت إلى الخارج. وقفت أمام السيارة. أطل سعيد بك مبتسمًا. أشارت إلى الدار، وأخبرته بالمصيبة.
قالت الأم، منكرة أن تكون قد أذلت نفسها: "قلت له يرضيك ما حصل للرجال والأرض؟" مد يده إلى محفظته وأخرج جنيهًا ودسه في يدها. رآها علي سليم الذي كان يطل من المقاعد العلوية. نزل جريًا وقابلها على عتبة الدار، وخطف من يدها الجنيه وطار به وراء السيارة. وعندما لم يلحق بها، رجع يبكي ويهبد الأرض بقدميه، متهمًا جدته بأنها تشحت عليهم، وظل يكرر وهو يبكي: "بتشحتي علينا يا

ستي".
الجنيه في تلك الفترة ثروة، والدار في أشد الحاجة إلى مليم. عادت الست "نصرة" تحكي الحكاية. وتقول إنه لم يخطر ببالها أن يعطيها نقودًا. كانت تريده أن يكلم الخواجات ليتركوا لنا نصف فدان في حوض البحري، أو يتصرف معهم، فهو كبير البلد على كل الأحوال. وعندما رأت الجنيه يخرج من المحفظة لم تستطع أن تمنع نفسها من مد يدها وأخذه. وقالت تبرر الأمر: "وماله؟ ما هو قريبنا. عمه الحاج قرشي كان متجوز خالتي".
أدرك الشيخ أن الولد مُهان، وفي الوقت نفسه، الدار في حاجة إلى مصاريف. وقع في الهوة بين أن ينصف الولد أو يترك الأمر على ما هو عليه. في تلك اللحظة دخلت خديجة زوجته تحمل غربالًا مرصوصًا عليه أرغفة الخبز وقالت:
"علي يحلف على سته إن لم ترجع الجنيه فسوف يطفش من البلد؟"
قال الشيخ ببطء وهو يقوم متجهًا إلى المندرة:
"الجنيه يرجع للبيه".
وقفت أمه في صدر باب وسط الدار:
"أنا أخذته خلاص".
"يرجع للحاج قرشي".
دبت الحياة في جسم "علي سليم" وقال:
"أنا أرجعه لأبويا الحاج قرشي".

***

أمطرت ثلاثة أيام. المطر رحمة. أعطى الشيخ امتدادًا من الوقت الحالي، وإحساسًا بأنه ليس عليه الآن أن يفعل أي شيء. فخلد إلى نوم متقطع، ناعم تظهر فيه حقول برسيم يسقط عليها المطر. ظن أنه يحلم بأرض أهله الضائعة. مع استمرار المطر وصوته الرتيب في جوف القش وحطب الذرة جاءت أحلام أقل حدة وأقرب إلى النفس. الموتى يعودون. يمشون في الطرقات الضيقة المؤدية إلى الأرض، ويرطنون بلغتهم الغريبة، لكنه يستطيع أن يخمن معنى كلامهم. يقف أبوه بالقرب من الساقية المهجورة التي غرقت فيها فتاة فقدت شرفها. يبدو غاضبًا، ويشخط فيه، كأنما يريد أن يقول إن عليه أن يفعل شيئًا. يستدير ويجلس تحت شجرة سنط، ويوجه لابنه اللوم؛ فقد علمه في الجامع الكبير وفي النهاية يصبح عاجزًا عن معرفة الكلام. أليس التعليم هو فهم الكلام؟ يستيقظ غير قادر على التعرف على نفسه. يأخذ وقتًا حتى يتخلص من الإحساس بأن ما رآه حلم، وأنه في الدار، وصوت المطر ما زال يهطل.

***

يجلس الشيخ في صدر الدار، أمام وعاء من الفخار، مليء بقوالح مشتعلة، تتحول إلى رماد ببطء. رأى نور الدين يقف بالباب ويقول غاضبًا:
"القعدة في الدار لا تزيح المصائب يا شيخ عبد الرحمن".
لم يتوجه للجلوس بجواره كالعادة. لف العباءة السوداء حول كتفه وأشار إلى الداخل وهو يقول:
"قم غير هدومك. أبوك الحاج قرشي يريدك".
المصرف واسع. في البر الثاني نخيل أرض البيه وخلفه غيطان القمح. السماء داكنة. توقف المطر. تحولت الشوارع إلى بحيرات، وجدران البيوت تشبعت بالماء. سار وراء نور الدين في المدقات التي

صنعتها الأقدام بجوار الحيطان. السراية على الطريق بالقرب من دار نور الدين الجديدة خارج البلد. سياج من شجيرات الجازورين، وأسلاك شائكة تحيط بالحديقة الواسعة. الممشي الذي يقود إلى سلم السراية الرخامي مسيج بالخشب، ومفروش بالرمل المبتل. الشرفة واسعة وكراسٍ من الخيزران عليها شلت مرصوصة بجوار الجدران. الحاج قرشي يجلس وحوله عدد من الرجال يتكلمون بلهجة أهل الصعيد. قطع كلامه عندما رأى عبد الرحمن وقال:
"كان عشمي فيك كبيرا".
وأشار إلى كرسي بجواره.
أكمل الحاج قرشي حديثه مع ضيوفه. بعد قليل انتقلوا إلى غرفة تطل على مساحة خالية من الأرض، بها مكتب خشبي قدم، وضوء النهار الفضي يلمع على سطح المكتب. وجه الحاج قرشي حليق وشاربه مشذب، وطاقيته الصوف محبوكة على الرأس. نظر مليًا إلى وجه عبد الرحمن، وقال:
"اسمع يا عبد الرحمن".
"سعيد بيه اشتري ثمانين فدانًا في البحيرة".
"تأخذ نور الدين وتمسحوا الأرض شبرًا شبرًا، وتدقوا الحديد وتعينوا خفيرًا من أهل الناحية، وبعد ما تخلصوا تأجروا جرارًا يحرث الأرض حتى نلحق زراعة القطن".
شعاع من النور اخترق الظلمات.
رافق نور الدين إلى داره، في طرف البلد. رأى الست كوثر تقف في الشرفة مبتسمة. قالت:
"المحن لا تفت عظم الرجال".
نادت "سعدية" لكي تجهز القهوة، ومن جوف الدار شم رائحة عطر خافتة مختلطة برائحة التبغ والبن، سرت في داخله كأنها الروح تعود إلى الجسد.

***

(2)
إياك و العمى

"الرؤية سلاحك. العين ليست اداة الرؤية الوحيدة. القلب ايضا يرى، والعقل يري. لا تنخدع بكلام الكتب. القلب رفيق طيب، يمكن أن يضل، والعقل مرآة يمكن أن تُظهر الوهم مثلما تظهر الحق. القلب سهل الإغواء، والعقل مصدر الضلال كما انه اداة الهداية".

"لن تفهم الآن ما أقول. احفظه وأدره في عقلك، قد ينفعك ذات يوم. العقل والقلب ادوات، مثل العين، لكن الرؤية مكمنها الرغبة في الفهم والتعلم. لا تفقد ابدًا رغبتك في الفهم والتعلم. حافظ عليها حية. العمى مثل وساوس الشيطان، يمكن أن يحجب الرؤية وتعيش في صور على أنها مرئيات. احذره كأنه عدو".

"أقول لك كلامًا من ذهب، صنه مثلما نصون نور العين. إن لم تفهمه الآن فسوف تفهمه بعد ذلك. كنت أرى بقلبي عندما كنت أدرس في الجامع الأحمدي، ثم اصبحت أرى بعقلي عندما عملت مساحًا للأرض، وكان قلبي يفهم ويرى عندما تقترب مني النساء، كان يحدثني، لكن رغبتي في أن أتحرر من الوهم، صانت رغبتي في الرؤية".

تاه قليلًا، وانخفض صوته:

"لكني لم أتمكن من رؤية خطوات المصير وهو يقودني إلى هنا، إلى الآن. كان حتمًا. فشلت أن أرى خطواته السرية من أول زراعة الكتان حتى الآن. كان هذا فوق طاقة البشر. لم أوهب بصيرة من يرون الغيب".

كان يكلم نفسه، كأني غير موجود، ثم استعاد وجودي وظهرت مرة أخرى نبرة المعلم:

"هذه ليست خرافات عجوز يموت. هذه حياة عشتها وأرحل عنها الآن، وأملي فيك خيَّبْتَه بتهاونك. ليست عيونك التي ترى، جسدك الآن هو الذي يري. اترك ما أقوله لك يسكنك، حتى يعود إليك من النسيان، ذات يوم، كأنه كلامك".

***

باب وسط الدار بفصل القسم الأول المخصص للمندرة والقاعة الكبيرة وصحن الدار عن القسم الثاني: الفرن وقاعات النوم، والمزيرة، وفي الخلفية، في منطقة لا سقف لها غير السماء: الزريبة ومخازن التبن والحبوب وغرفة المعاش وخزانة اللبن، وعلى السطوح ثلاثة مقاعد تستعمل للنوم في الصيف. ثقل الدار في المندرة. غرفة واسعة تطل نوافذها على الطريق مفروشة بكنب مغطى بالحصير. في الركن منضدة صغيرة من الحديد مستديرة، مغطاة بسجادة صلاة، بجوار خزينة في الحائط لها باب ومفتاحها يقبع في جيب الشيخ.

الشيخ أول من يستيقظ. يسمعون صوته في أثناء نومهم، يفتح الباب الكبير:

"يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم، أصبحنا وأصبح الملك للّه".

رائحة القهوة علامة الضحى. رائحة دافئة، وجو المندرة مغموس بتلك الروح الوقور. تنتشر أحاديث بين الشيخ وضيوفه من رجال البلد، حول الأرض، والمواريث والحيازة وأخبار صرف السماد والمبيدات من الجمعية الزراعية.

في الليل تضاء اللمبة نمرة عشرة. توضع فوق الترابيزة في ركن المندرة. يُخرج الشيخ الملفات من الخزينة. يرصها أمامه ويفتحها ويستغرق في الأوراق العمامة مقلوبة على المصطبة، ورأسه عارٍ.

يأتي الحلاق كل جمعة قبل الصلاة، ويحلق رأسه بالموس. رأسه اللامع في ضوء اللمبة نمرة عشرة، وملامحه الجادة ألقت عليه مهابة، وأوحت بغموض يشبه غموض كهنة المعابد القديمة.

***

قضى الشيخ سنوات طويلة، يلف البلاد. يعمل مساحًا، وقبانيًا، وكاتب حسابات. عرف بشرًا بلا عدد، وبلادًا كثيرة، وبدأت مهابته تنمو في الناحية، فلا يكف الطرق على باب الدار: "والنبي يا عمة الحاجة تقولي لنا أين نجد الشيخ؟". دائمًا هناك شخص يسأل عنه، لا يخص الأمر الأرض فقط، بل الفصل في الخلافات بين الناس.
أكثر من خمسة عشر عاماً يعمل في البلاد. يراكم قطعة أرض من هنا ومن هناك، حتى عاد واستقر في بداية الخمسينيات. كان سعيد بيه في مرضه الأخير، بعد أحداث **1952**. رجع ليكون بجوار الحاج قرشي في محنته. يساعده في تصريف التركة. المهارة التي اكتسبها جعلته الوحيد، في نظر "القرشي"، الذي يصلح لتلك المهمة. فقد عُرف في الأنحاء المحيطة بالبلد، ببراعته فيما يخص القياس والعقود ونقل الملكيات، وتاريخ الأرض وطبيعتها، وجودتها وكونها خالصة أو متنازعًا عليها، أو تشقها قراريط من أملاك الدولة، وبدا للناس كأنه يحمل العلم كاملًا في رأسه، يحمل تصورًا لكل شبر من أراضي الناحية بوضوح وبحساب دقيق.
في جيب الصديري تسكن خريطة مساحة، تطوى عدة طيات، يفرشها على المنضدة في المندرة، ويشير بقلم "كوبيا" إلى مساحة صغيرة: خطوط متشابكة بفكها في كلمات كأنما يفسر أحجية. شكل الخريطة كالمتاهة، لكنه يفهم كل تفصيلة. أحيانا يشك في أمر، يخرجها من جيبه وينظر فيها، ثم يعيدها وفي عينيه نظرة لوم كأنه لا يتوقع أن تخونه ذاكرته أبدًا.
البصر والذاكرة سلاحان نماهما حتى أصبحا في حكم الملكات. احتفظ بقوة البصر رغم العمل فترة طويلة في قياس الأرض، في الصيف حيث تروع الرؤية من شدة الضوء، ويحتاج المرء إلى التدقيق كي يلمح أي انحراف طفيف بين حدود الأراضي، ورغم الليالي الطويلة التي سهرها يدقق -بمساعدة ضوء باهت لمصابيح الجاز- في العقود والخرائط. لقد تمرس في الأمر، ولم يفقد حدة بصره، واستطاع أن يميز الكلمات، ويدرك صحة التوقيعات والأختام.
ربما كان غرامه بحاسة البصر تجسيدًا لرغبته في البصيرة. فلو لم ير جيدًا يضيع. الحياة مهاويها لا تحصى، وانحرافاتها المفاجئة وأوهامها تتخايل على شكل الحقائق، خاصة أنه يعمل في منطقة دقيقة، تتفجر فيها الدماء بسبب أشبار من الأرض. أجبر نفسه على الانتباه، وعينيه على الرؤية بالحدة نفسها التي ترك بها روحه الجهمة تنتشر في تفاصيل حياة الدار.
أثار إعجاب الناس بقدرته على التذكر والمراجعة والحفظ. يفرد الخريطة أمامه ويشير إلى قطعة أرض صغيرة جداً وسط الخريطة. يحولها بكلمات إلى أرض واقعية، يرسمها في الأذهان بوضوح، يقربها لهم باسم الحوض وأسماء الجيران والساقية وشجرة جميز أو سنط مزروعة على رأسها. كان من الطبيعي أن تنفتح عيون الناس دهشة عندما يتحدث عن الأرض، ويصف تلك الخطوط التي تنتشر على الورقة، ويحدد قيمتها فيقول إنها "معكوكة"، كنصيحة، أو إنها خالصة تمامًا أو إنها بلا "عضم" ويعني أنها بلا منافع (مساحات في مصارف الري والطرق).
أحياناً يسرد تاريخاً لقطعة أرض وتسلسل ملكيتها. يذكر عددًا من الملاك السابقين، أيام عز بادت ونظمًا تغيرت ورجالًا أقوياء خرجوا من الظلام ليطوفوا حول جلسته. أحاديثه لم تكن، بالكامل، تعيينًا لحدود بل تنحرف أحيانا لتصبح تأملًا في الحياة. فقد استطاع فهم طريقة الناس في التعامل مع الأرض. تتوالد

الملكيات من بعضها كما يتوالدون. التوارث وانتقال الأرض من يد إلى أخرى، له معنى عميق عنده، فانتقال أرض يعني تغيرًا في خريطة حياة بشر؛ ارتباطاً بمجال جديد، حوض جديد وسواقٍ وطرق وناس. كانت كارثته أداته في فهم ما يمكن أن تصنع حيازة الأرض أو فقدها. ملكية الأرض والتنازع عليها صُلب حياة الناس. ألا يموتون ويخلقون العداوات والزيجات من أجل تلك الأشبار؟ رغم زعمهم أنه لا أحد يأخذها معه إلى القبر، ودائمًا ما يبدي تفهمه لموقفهم ويقول ضاحكًا وعيناه تغوصان في وجه رجل يصر على أخذ بضعة قراريط أو مقاضاة قريبه:
"يا أخي الكفن بلا جيوب".
خريطة المساحة التي يحملها في جيب الصديري، صورة تقريبية للحياة في الناحية. هذا الهلام الواسع من الحياة، لخصته تلك الورقة. ومع ذلك لم يندمل جرحه، فظل يدرس بشيء من الهوس الحياة الكامنة تحت خطوط الخرائط. يشاهده أهل الدار برأسه الأصلع، يسهر ليلة كاملة فاردًا الخريطة أمامه، وبجواره عقود أرض قديمة، يحيطه صمت مهيب. ينظر في الخريطة ثم يعود لمراجعة العقود. في يده قلم "كوبيا" يحركه على الخطوط وينقله من طرف إلى طرف.
مع تراكم المعارف والحظوة التي تتزايد مع الأيام، أدرك قوته. القوة الداخلية التي تظهر في حديثه الحاسم. إدراكه أن قوته تكمن داخله هو القوة. فلا يمكن لأي امرئ أن ينتزعها منه. يبدو أن اللحظة التي أدرك فيها هذا، كانت فاصلة، فقد عرف أن الأرض سوف تعود إليه، دون جهد كبير، فتركها تعود واهتم بترتيب مصادر قوته ورعايتها، وأخذ يحصل على الأرض كأنما تنفيذًا لحكم سابق واجب التنفيذ.
كانت البداية قطعة أرض كبيرة، انتزعها الخواجات من عائلة أبو عيسى، عثر في أوراق سعيد بيه على حجج قديمة، وقضى عدة شهور في سفر دائم إلى المحاكم ودار الوثائق ومصلحة المساحة، وعاد بحجج جديدة للأرض، وأرجعها إلى أهلها، لكنه أخذ منها فدانًا وعشرة قراريط.
استمر عمله مع "الحاج القرشي" عامين، بعد موت سعيد بيه في بداية الخمسينيات. ساعد القرشي في تهريب بعض الأراضي التي تم شراؤها حديثا، من الإصلاح الزراعي. أرجعها إلى الأصول، قبل الشراء، واشتراها مرة أخرى باسم "القرشي". كان يدهش الرجل بحيل لا تنتهي، بدرايته الواسعة بتشريعات الأرض وفهم عميق لطبيعة الملكية، وبطرقه الملتوية استطاع أن ينقذ الكثير من الأراضي من استيلاء الحكومة عليها. لم يخرج خاليًا، كان نصيبه قطعاً صغيرة من الأرض، ثم ثلاثة أفدنة دفع ثمنها الهزيل على سنوات عديدة، وربما لم يسدد آخر الأقساط.

***

"علي سليم" استوى رجلاً عفيًا وأصبح سيد الدار في غياب عمه. يعود من الغيط في المساء، يربط البهائم بنفسه، يضع لها أول "عَلْفة"، لا يثق في عمل النساء، فيحيط كل شيء بالرعاية. يعرف أماكن "عزال" الساقية، والمحراث والنورج وغيرها من أدوات العمل كما يعرف أصابع كفه. يزداد قوة، بازدياد مساحات الأرض، سبعة، عشرة أفدنة. الأرض التي ضاعت عادت، لكنها ليست الأرض نفسها، وبقي ذلك غصة خفية لم يعرفها أقرب الناس.
الأرض الجديدة تفتح طاقات للعمل. طلب "عبده شمس" الولد الصغير اليتيم ليعمل معه في الأرض ويربيه، حسب حديثه البسيط الحاسم مع أم الولد. "عبده شمس" يعمل في الدار مقابل مبلغ من المال، بخلاف الأكل والشرب، والكسوة، والمواسم، واستأجر جمّالًا بجمله ثم ساهم في شراء جمل يعمل عليه عبد الله ابن الشيخ الذي أصبح الآن في العشرين من العمر. اشترى محراثًا جديدًا، وفؤوسًا ومناجلَ ومناقرَ، حتى جدْل الحبال من التيل تسيّده.

كل أرض جديدة تصحبها خشية، تعيد ذكرى سنوات الشقاء، وحسًا خفيًا بالعار. هنا تظهر غصته. أخذ الأرض من أهله عنوة في عقائده الشخصية إهانة صعب نسيانها. يوم استلامه لأرض البيه ذات النخيل، كان بشوشًا، ثم صمت كأنما تذكر أنه لا يجب أن يترك مجالًا للفرح يستبد به، وظلل عينيه بكفه وراح يتطلع إلى نهاية الأرض، فبدا وكأنه يرقب قرص الشمس يغيب عند الترعة البعيدة في "ديك البر". ثم أخذ يلف في الأرض. يميل ويلتقط الطوب. يقتلع نبتة من العشب. سمعه "عبده شمس" يبسمل، ويقرأ آيات من القرآن. قال "عبده" في المساء إن عمي "علي" حافظ القرآن. المنظر كان غريبًا على الصبي. البسملة وقراءة ما يحفظ من القرآن، رافقت كل تسلم لأرض جديدة. في القطعة التي انضمت إلى أرضه من أرض الخواجات، لم يسمعه أحد يبسمل أو يقرأ الفاتحة. اتجه إلى ذيل الأرض حيث نما البوص وترك نشْع البرك القديمة سطح الأرض مندى. جلس مقرفصًا على رأس الغيط وقال لعبده شمس:
"البوص لازم يُقلع من جذره".
وأشار إلى الناحية الأخرى.
"الأرض لازم تحرث وتقلب، لتُنَشّف الشمس قلبها".
يعرف وسائل لجعل الأرض مثمرة، خصوبتها تكمن في رغبته في تسويتها والعناية بها. كان واثقًا فيها، عكس الشيخ. هذه المرة لن تفلت من يده. اختلاف مجال تعاملهما هو ما خلق هذا التباين. الشيخ يعمل في الأوراق، ويرى الأرض كلمات على ورق وتوقيعات وأمورًا يمكن التلاعب بها. "علي سليم" يشعر بالأرض نفسها التي تشقها فأسه. كان واثقًا فيها مادام يقف عليها بقدميه فإنها ستخضع له، تلك الثقة المباشرة التي تحصل للمرء من جراء معايشة الطين.

***

لفظ "قوي" أو "متين البنية" غير كاف لاستحضار شخصه، أو الجدية التي تتسلل في أثناء مروره في الدار. لا شيء يمكن أن يجسد المناخ الذي يحيطه وهو يمشي بخطواته الثقيلة في أنحاء الدار، ينبه النساء": رضعي العجلة الصغيرة"، "رشي للبقرة فول"، ومن عند الباب يأتي صوته: "اوعوا تنسوا الجمل. هيحمّل رز بكرة". كلمات صلبة لها رنين الأوامر وسلطانها. اليقظة نفسها التي يدير بها العمل في الأرض، واقفًا وسط الأنفار، يلقي بتعليماته بهذه النبرة الحاسمة. كان الأولاد في الدار يخافون من غضبه ويشبهونه بالأسد الأزرق المنقوش على ذراع زوج أخته.
أساطير صغيرة تُروى عنه. موضوع قوته مفروغ منه، فهو ينتع "زكيبة" الفول ويحملها وحده على الحمار، ثم ينفض ملابسه كأنه لم يفعل شيئا. عزمه في العمل كان مضرب المثل بين الرجال: "تقدر تعزق قدام علي سليم؟". ثلاثة رجال يتعبون ويبقى وحده رابطاً رأسه بمنديل، يعمل كأنما لا يوجد غيره في البر. يقف أحياناً ليأخذ نفسه، أو ينظر في كفه، يتطلع إلى الخط الطويل من كتل الطين المرصوصة على شط القناة كل ضربة فأس يصاحبها صوت صغير مكتوم: "هه". الخط المشقوق خلفه طويل، والآهات الخافتة، خيط رفيع لقوته.
أغرب الأساطير التي تحكي عنه أنه قتل ذئبة وأولادها.
يقول ببساطة:
"رأيت رأسها طالع من الجحر".
البلد تنام من المغرب. ويسمع الناس صوت ذئب يعوي. الصيف واسع وغيطان الذرة مخيفة في ذلك الوقت. يعود الناس من الغيط قبل أن تغرب الشمس. في الليل يعوي الذئب. "علي سليم" لا بد أن

يروي أرض البحري، لكي يلحق بأنفار ينقون عفش الأرز في حوض آخر، ويروي القطن في العصر. لا بد أن يقوم في الفجر. أخبر الرجال بذلك. واجهوا الأمر بالصمت، وظنوا أن الفجر قد يعني الصباح الباكر. لكنه كان الفجر حقًا. قاموا والدنيا ظلام. الطريق إلى أرض البحري في قلب غيطان الذرة، مازال به صمت الليل، كثيفًا. أي حركة بين أوراق الذرة تثير قشعريرة في جسد الرجال. سوف يظهر الذئب في اللحظة التالية. وضعوا عزال الساقية على المدار. علقوا البقرة، وحرك أحدهم "الفرقلة"، فانتشر رنين جرس خافت تعرفه البهائم. سارت البقرة وبدأ الماء ينسكب في القناة. لاحت بوادر النهار في السماء، فتبددت بعض مخاوفهم.

"علي سليم" يحمل الفأس ويسير بجوار المصرف. الضوء ينتشر، والبوص على طرف الأرض كثيف؛ بقايا البراري التي كانتها أراضي البلد ذات يوم سمع حركة في جوف البوص. لبد في مكانه كأنه قطعة حجر. رأى الرأس والعيون. سرعة الفأس ودقة ضرباته أنقذته.

يقول الرجال: "الديب كان لا بد له".

الضربة الأولى كانت دقيقة، لكن الضربات السريعة المتوالية التي تلتها كانت تفريغًا للخوف. الخوف الذي تكاثف في أثناء كمونه، وفي أثناء رؤيته لضوء عيني الذئب، أفرغ نفسه في ضربات لم تكن ذات فائدة، لأن الذئب برك بعد أول ضربة.

اكتشفوا أنها ذئبة وأن لها "ولدة" صغيرة، ذئابًا مثل الكلاب المولودة تصدر أصواتًا رفيعة خائفة وهي تخرج من الجحر. طاردهم الرجال وقتلوهم. في غمرة قلقه، وتصبب العرق من جبينه، قسم الرجال قسمين؛ قسمًا يسقي الذرة وقسمًا يحش البوص. وعمل هو في فرقة البوص. كان الخوف أيضاً جزءًا من الدافع؛ فما دامت ذئبة فلا بد أن ذكَرها هناك والخطر لم يرحل بالكامل. في الظهيرة انكشفت الأرض وسقى الذرة دون أن يظهر الذئب.

ظن الناس أن روح الذئبة هناك، طليقة في غيطان الذرة. تندروا وأخافوا بعضهم البعض وادعى كثيرون أنهم سمعوا في الليل صوت الذئب أو رآه أحدهم في غيطان الذرة، لكن منذ ذلك اليوم تخفف الناس قليلا من مخاوفهم، وتدريجيا لم يعد أحد يسمع صوت الذئاب في الليل.

***

تزوج "علي سليم" في بداية الأربعينيات، عندها بدأت روح جديدة تسري في الدار، وأنجبت له زوجته: فادية وجمال ويوسف. في تلك الفترة ماتت الست نصرة أم الشيخ بعد أن اطمأنت أن الفرع بدأ يخضر، والدار استردت عافيتها. كبرت بنات نعيم الكبير وتزوجن تزوج عبد الله أكبر أولاد الشيخ في نهاية الخمسينيات، وذهب "صالح" الابن الثاني إلى "طنطا"، ليتعلم في المعهد الأحمدي، ثم انتقل إلى القاهرة ليتعلم في الأزهر، أما "نعيم" أصغر أبناء الشيخ فقد بقي في طنطا في المدارس الأميرية. اشتروا جملًا لعبد الله ليوقفوا نزقه ورغبته في الهروب من العمل والسهر في القهاوي. وآخر العنقود فاطمة كانوا يعدونها للزواج في بداية الستينيات.

***

فاطمة درة عائلة سليم. ولدت في الأربعينيات، بعد أن ظنوا أن الست خديجة لا يطرح رحمها غير الذكور. كانت فرحة العائلة لأنها جاءت والدار تستعيد عزها، وظلت حتى نهاية حياتها العمود الفقري لعائلة سليم. بيضاء الوجه مثل الست خديجة، لها أنف حاد، وعيون عسلية، عندما تضحك تلين خطوط وجهها وتعود طفلة، وعندما تحزن يغيم وجهها كأنما قُد من الصخر، ويبرز الأنف كمنقار طائر،

وتصبح عصبية لا يهمها مخلوق، يلتمسون لها العذر؛ فقد كادت تموت قبل زواجها بعدة أشهر.
ميعاد زواج "فاطمة" يقترب وقلق الست خديجة على ابنتها الصغيرة يزداد. كانت تعرف أن الداية قد تركت لها "فضلة" في أثناء الختان، وأجلت التخلص منها طويلا، حتى اقترب وقت الزواج. البنت من بيت كريم ولا يصح أن تتزوج وطهارتها ناقصة. لكنها كبرت، والتدخل في هذا المكان الحساس صعب.
فترة منغصة قضتها الست خديجة حائرة لا تعرف كيف تعالج المشكلة، وكعادتها في أحزانها وهمومها، تلجأ إلى أختها الكبيرة "سرّية"، تصعد إلى سطوح الدار، وتتسلل إلى دار أختها:
"ماذا سنفعل يا أختي؟"
"اتركي همومك على الله".
تقول الخالة "سرية"، أقرب الناس إلى قلب الست خديجة. الحيرة تسكتهما وتقضيان أغلب الوقت جالستين على السطوح تحاولان وصل حديث يقطعه صمت مسكون بالمخاوف. المحصول في الأرض يستوي، والزواج سيتم بعد جمع القطن.
ذات ليلة كانت الست خديجة تجلس وحدها على سطوح الدار، تسند ظهرها إلى جدار المقعد، وتنتظر أختها تعبر الفجوة بين سطوح الدارين. جاءت الخالة "سرية" بصحبة امرأة ضئيلة الحجم مشدودة الرأس بطرحة سوداء، وجهها محروق من العمل في الغيطان. أرملة أحد الأقارب. ومجرد أن جلست "سرية" بجانب أختها حتى قالت:
"عطيات عندها الحل".
كان الحل الذي اقترحته الأرملة صعباً لكن لا مناص منه. قالت المرأة: لا داعي لتدخل الداية مرة أخرى، حتى لا تلوك الألسن سيرة البنت، وإن فاطمة عليها أن تتحمل بعض الألم عندما نربط "الفضلة" بخيط رفيع، ونزر الرباط، وبعد يومين تنشف "الفضلة" وتسقط من تلقاء نفسها كقطعة من الجلد الميت.
في يوم الجمعة والرجال في الصلاة خاضت فاطمة التجربة، بعد أن أتعبت قلب خالتها سرية ليلة كاملة حتى تمكنت من إقناعها بأن تتحمل الألم بدلاً من الفضيحة. لكن الألم كان فوق احتمالها. في صمت ظهيرة الجمعة والدار خالية ارتعب الأولاد من صرخات آتية من المقعد العلوي، صرخات ظلت بالنسبة لبعضهم فجوة في الحس بالأمان، وخلقت مخاوف غامضة في قلوب الصغار، بعضهم لم يتخلص منها طول عمره.
في المغرب ارتفعت درجة حرارتها وظلت تهذي ليلة كاملة وفي الصباح بدأ نفسها يتوارى. كان يمكن أن تموت، لولا أن طلبها الشيخ لكي تعد له قهوته. أخبروه أنها مريضة. دفعه خوف غامض إلى أن يمر عليها. ألقي نظرة خاطفة على جسدها ملفوفًا بالأغطية وبرقت في بؤبؤ العينين الجمرة المشتعلة التي يهابها كل من يتعامل معه، وأرسل في طلب سيارة الحاج قرشي، وحملها إلى الأطباء في طنطا.
عادت بعد يومين صفراء ذابلة كأنها مخلوق آخر. عيناها مشعتان وأنفها طويل، صامتة صمتاً لا يمكن اختراقه. بمرور الوقت بدأت تتعافي لكنها أصبحت عصبية تتدخل فيما لا يعنيها، وتشارك بالرأي في كل شيء، وتسببت في مشاكل مع الجيران في أثناء دراس المحاصيل في الأجران وفي أثناء تخزين القش وحطب القطن. تلومها الست خديجة فتقول بإصرار: "لا بد أن أعدل الحال المايل". ترسخت منذ ذلك الوقت عادة أن يتركوا لها مجالاً للتنفيس، وسامحوها في كل مرة تفلت أعصابها، فلم ينس أحد كيف كانت على وشك الموت وأنها تحملت ألما لا يتحمله إنسان.
تقول الست خديجة:
"تشبه أباها في صمتها وصبرها وصلابة قلبها".

مر الأمر بسلام، ولم يعرف به أحد، ولا حتى الست كوثر التي كانت تزور الدار كثيراً في تلك الفترة تتابع ما يقوم به الشيخ لحل مشاكلها على الميراث مع أهل زوجها الأول. تواطؤوا على إخفاء الأمر، وظل سرًا من أسرار دار سليم.

****

خمسينيات القرن المنصرم كانت سنوات بهجة. حس سحري سري في الحياة. يد السلطات البعيدة لاحت أناملها لتلك البلد التي تشبه الجب. وزعت أراضي على الفلاحين، وبنت الوحدة المجمعة وأخذت إحدى سرايات سعيد بك لتكون نقطة البوليس، وأنشأت جمعية زراعية، اقترح الحاج قرشي أن يكون "الشيخ عبد الرحمن سليم" رئيسها، فهو أدرى الناس بشؤون البلد.
رنت الزغاريد مرة أخرى فرحًا بالنجاح والأعراس والميلاد. الدار المحبوسة في ظلامها بدأت تتنفس. غطت لياليها، من جديدٍ، أضواء الكلوبات في المندرة، وحركة الرجال الدائبة. المداود أمام الدار لم تخل من ركوبة تنتظر ضيفًا يجلس مع الشيخ الحركة تدب في الأركان، ويسمع في الصباح ثغاء العجول وبكاء الرضع، وفي المساء يبقى في فضائها دخان الفرن ورائحة الأرز وعبق فطائر القمح التي تتوهج فقاعات الزبد عند حوافها.
كان المساء رمز الحياة الجديدة. تبتهج النفوس بروائحه، ويسري مرح في وجوه النساء. إنها طريقتهم في الإحساس بأن الحياة نفضت رمادها وأدارت سحنتها الكريهة، ومع أن لياليَ كثيرة لمستها جهامة الشيخ، ولم تفح منها غير رائحة الجبن القديمة واللفت المخلل، إلا أن ذلك كان استثناء؛ فالروح الجديدة تمحو القديم وتعده مؤقتًا. قامت الحياة من كبوتها، وقد عبرت الست خديجة ذات يوم عن ذلك قائلة:
"عاد اللبن للضرع"

****

(3)

المتعة عابرة كالحياة

"عرفت يا حمار ما هو السديم؟"
"اسمع. لو سرت على هذا النحو في حياتك فسوف تضيع".
"أعرف انني أتكلم مع عيل ساقط، لكني اقول لك ما أعرف، إغواء النساء يمكن أن يقتل، يمكن أن يضيع الحياة".
ازدادت عيناه حضورًا، وبريقًا. للحظة خاطفة زايله الذهول، وقلت خلاص يمكن أن يعود إلى صورته المعتادة، لكن البريق الوامض في عينيه أشع بسرعة واستغرق في التفكير ثم رفع كفه في وجهي:
"اسمع وتعلم. إن ظننت أنك يمكن أن تقبض على المتعة فانت في ضلال. انت فاكر عمك سعد البدوي؟ قريب الحاج قرشي، صاحب مضرب الأرز؟ ترك له ابوه ارضًا ومضربًا وجراراً، لكنه كان يحب النساء، يطاردهن في كل مكان. اخوه غير الشقيق سليمان، اشترى منه كل شيء. استغل خفته واستولى على ارضه.
المهم عمك سعد كان يحب النساء، لكنه لم يعرف العشق. كان جميل الطلعة يحب حب النساء له. انظر كيف انتهت حياته. في أيامه الأخيرة كان يتسول من أخيه، ويعيش عالة على ابن الحاج قرشي. فاهم؟ صرف كل مليم من ثروته على مطاردة النساء، ولم يجن شيئًا، حتى الذكرى التي تتركها اوقات الحب في القلوب كان منها خاليًا، لأنه لم يحب. كان يجري وراء شهوته مثل الأعمى ولا يدرك أن مصيره إلى ظلام.
أتعرف ما سبب كل ذلك؟
لم يجب.
الشهوة أيضاً يمكن أن تكون مصدر غني للإنسان. افهم جيداً ما أقوله لك. الضلال أتي في حكاية سعد البدوي من أنه لم يعرف الحب. في أمور الحب إن كنت تريد أن تزدهر حياتك فلا تطلب المحبة، بل أحبِبْ، عندها تجني المحبة ويدين لك الحب، ينير قلبك كأنه مصباح في الليل.
جدك حياته كانت صعبة. المحبة تروي، اما من يطلب المحبة، فعطشه لا يرتوي. هذا ليس حبًا، إنه حب المرء لنفسه، وهو سم يتخايل للمرء على أنه عسل. يظل المرء يجري طول عمره وراء أن تحبه النساء، يسعى لأن يكون معشوقا، يجري وراء المرأة حتى تحبه، وعندما تحبه يفقد رغبته فيها ويبحث عن اخرى وهكذا بلا نهاية، وهو في تلك الحالة يشبه من شرب من ماء البحر، لن يرتوي ابدًا.
عمك سعد البدوي حضر ذات يوم عرس بنت أحد التجار الكبار في طنطا، رأي راقصة مشهورة، كانت تظهر في الأفلام وفي أعراس أولاد الذوات. فُتن بها. عاد إلى البلد. باع فدان ارض وسافر إلى مصر لكي يقضي معها عدة ليالٍ.
وكان ذلك قبل موت الحاج قرشي بشهور. يومها كنا نجلس حول فراشه. الكل مستغرب ما فعله سعد.
قال الحاج قرشي:
"سيبقى عيلًا طول عمره".
كنت معجبا بجرأته. قلت:
"سعد أجرأ من في البلد، من يقدر على ما فعل؟ يتخلى عن الأرض كأنه يلقي عقب سيجارة".
قال الحاج قرشي بغضب:

"اسكت يا عبد الرحمن، انت آخر من يتكلم. لن تفرط في شبر من الأرض لو قطعوك".
وقتها كنت شابا مشاكساً، وقلت له:
"خيابة يابا الحاج، خيابة".
عاد سعد من مصر، مزهواً. رأيته يقف امام داره على الزراعية بجلبابه الكشمير، سألته:
"ما الأخبار يا سعد؟"
قال: "كانت ليلة من ليالي ألف ليلة يابن خالتي. المرأة كانت تصرخ كأنها لم تعاشر رجالاً من قبل".
وضحكنا.
بعد وقت طويل، بدأ جسده في الضعف، وذاكرته تتآكل، كان يجري وراء النساء ثم البنات والأطفال، ثم أي كائن يقع تحت يده، وفي النهاية كان راقدًا في غرفته مريضًا جلده يلتصق بالحصير من كثرة النوم مع النساء. زرته قبل موته بأيام، وسألته عن الراقصة، لم يكن يذكر أي شيء، ثم رفع عينيه وقال:
"لماذا تسألني عن الراقصة، أسأل صاحب الشأن".
"انت صاحب الشأن يا سعد، ألم تبع فدانًا في حوض سواس من اجلها؟"
"أنا أعمل الأعمال الخائبة؟ لا يمكن، أخويا سليمان هو من عمل ذلك".
ثم قال كأنه يكلم نفسه:
"ومع ذلك ربنا أكرمه ويملك ضعف ما ورث من ابيه".
عرفت أن مخه طار. عرفت أنه شقي. لم يبق من ليلة ألف ليلة أي أثر. خسارة هذه الملذات الضائعة".
أرهقته حكاية سعد فصمت ونظر إلى السقف، لم يصدر عنه غير صوت تنفسه، عاليًا متلاحقًا، كأنه يطارد خواطر بعيدة عصية تفلت منه.
نظر إلي وقال بحزن:
" عندما كنت الف بالبلاد وانا شاب، كنت ادخل بيوت الكبار والصغار، وأرى النساء، كن يعرفني من نظرتي، وكنت أعرفهن من نظرتهن، انجذبت إلى بعضهن كأن بأرواحهن مغناطيساً، كنت أشم رائحتهن تحت الثياب. في فترة الشباب صانتني المحنة وحب الست كوثر. كنت عفيًا ومنيعًا، لم تتمكن تلك الغريبات مني ولم أسمح لنفسي بالتمكن منهن. أقول لنفسي: "عيب عليك يا شيخ، هذا ليس طريقك". كنت قد قابلت الست كوثر، وعرفت طعم المحبة، والحظوة التي تحيط بها المرأة من تحب. حرير يحيطك من كل جانب. تشعر بأنك مَلِك. هذا ما منحته لي الست كوثر، منذ أن رأيتها. الست كوثر لها سلطانها. لم ترها في شبابها، كانت قوية ممشوقة رقبتها طويلة، نظرتها حازمة وحنون. امرأة لا مثيل لها.
لم ارها يوم زواجها من نور الدين، كنت مستغرقًا في علوم الفقه والتفسير والنحو والبلاغة. نور الدين كان يدرس معي. كنا نزور الشيخ محفوظ، شيخنا في الجامع الأحمدي. لكني لم أر كوثر، هو الذي رآها. كانت أرملة صغيرة السن. ذات يوم جاء وقال لي: "اسمع يا عبد الرحمن، لا أطيق العلم يا شيخ. العلم يحتاج إلى صبر، وأنا هوائي أحب النساء والمال والحياة، عش انت مع دروس الفقه والنحو. لك عقل يمكنه أن يرعى هذه الثروات، ويتحمل هذا الملل، أما أنا فأريد أن أفرغ سوائلي واملأ حفر النساء".
ندم عمري كله، أنني لم أر كوثر قبله. حقدت عليه.
يومها ضحكت من خفته. كنت واهمًا، فقد حظي بالجوهرة، وتركني أرعي الكلمات. لم اشعر بحضورها إلا يوم الخروج من الكارثة.
كنا قد تركنا بيت الحاج قرشي. مشينا في الطرق الموحلة بعد مطر ثلاثة أيام. تصورت في ذلك اليوم أن

الغمة قد انقشعت، لم أكن أعرف أن بهجة القلب وألمه ينتظرانني. في ذلك اليوم عرفت أنها امرأة تساوي ثقلها ذهباً. حضورها فيه من الحنان والمودة ما يجعلك تشعر بأن وجودك يتفتح.
هل عرفت ذلك؟ هل شعرت به قط؟
مازلتَ صغيراً. أعرف أن هذا كلام كبير عليك. ذات يوم سوف تعرف قيمته.
الست كوثر امرأة بمعنى الكلمة. جدك لا تخطفه المظاهر. تعلّم أن يوجه بصره إلى ما في القلب. من كثرة الأسفار ومعايشته للناس في احوالهم، من كثرة ما رأى أصبحت له بصيرة يكشف بها نوع القلب.
في ذلك اليوم رحل ألم وحل محله آخر. هذه امراتي، كيف فاتني، كيف حدث ذلك؟ في اليوم التالي، سافرت مع نور الدين إلى البحيرة، وقسنا الأرض وأعددناها لزراعة القطن كما طلب الحاج قرشي.
صورة الست كوثر وصوتها لم يفارقا خيالي. سكن طيفها وجداني واستقر هناك. صحيح أنني أنغمر في أعمالي، لكن صوتها ظل يثير الذبذبات في جسدي. أقوم من النوم كأنني ممسوس. لو قلت لك كم من المرات حلمت بها، فسوف تقول كبر الشيخ وخرف.
جدك تألم كثيراً، وعرف ما استطاع معرفته. معرفة ليست مثل معارف الكتب. معرفة ثقيلة مثل الألم. لن أقول إنني قوي بما يكفي لأتغلب على هذا. ظلت الست كوثر وجعاً في القلب. نظرتها حينما تستقبلني او تودعني، حينما تميل تجاهي وتطلب من سعدية أن تعد لي القهوة، كل تلك اللفتات المغموسة بالمحبة والرغبة، تجعل الألم يشتعل. إنها زوجة صاحبي ورفيق دربي، أقرب لي من أخي. تربينا معًا. ابوه كان خولي أرض سعيد بيه، وصاحب أبي، ظلا متلازمين يدخنان المعسل معاً كل ليلة حتى وفاته قبل كارثة الأرض بعام واحد. ذهبنا إلى الكتاب معاً، حفظنا القرآن معًا، لا يمكن أن أنظر إلى ما في يده.
أبعدها عن ذهني بحسم ولا اسمح لنفسي بالتفكير فيها.
أقول لك الحق. ساعدتني محنتي وصانتني. كان لها وجهها الطيب أيضًا، حمتني من الزلل، وعملَت في حياتي مثل الحد. لكن الست كوثر كانت تقترب مني وتجذبني، بوعي وبرغبة واضحة في العين، والحركة واللمسة. برصانة امرأة قوية كانت تطلبني. لكني لا اطاوع الهواجس والأخيلة. بعد سنوات من تلك المناهدة، كلفتني بان أساعدها في نزاع مع أهل زوجها الأول على نصيبها في ميراثه. كان زوجها الأول ابن ذوات، أحبته بشدة كما قالت لي، ويئست من الدنيا بعد موته، لولا رغبتها في الإنجاب لما تزوجت.
في ذلك الوقت سافرت معي كثيراً، تجيء عربة أختها من طنطا وتسافر بنا. في الإسكندرية تنام عند اقاربها وأنام في شقة الشيخ محمد الخضري في الإبراهيمية. نشرب القهوة في تريانو، وفي الصباح نغوص في أرشيف المحاكم، ونقابل من يمكن أن يساعدنا من المعارف. كيف حدث هذا، ولم أتحطم، او أبرك مثل الجمل المتعب؟ حدث ما حدث، وما احكيه هو مجرد نتف تهل عليّ الآن وأنا أغادر الحياة. ذلك الألم بقي طازجاً كما كان منذ اربعين عامًا.
قالت ذات يوم: "لو قابلتك قبل أن أتزوج نور الدين ما تركتك". الست كوثر قادرة. اختارت أن تعيش في البلد وتترك البندر وتنأي بنفسها بعيداً. لها في الناحية ثلاثون فدانًا. طول عمرها تحاول أن تنجب طفلًا، تمنت، لكن الله لم يشأ، فعاشت حياتها بطريقتها. انتظرت ان أطلب منها أي شيء، وخاصة بعد أن أعدت لها سبعة أفدنة، من أرض زوجها الأول في نواحي شبرا بلولة، سبعة أفدنة تزرع بالياسمين الذي يصدر إلى فرنسا، لصناعة العطور. كانت ثروة كبيرة، وقالت لي بصراحة: "يا شيخ عبد الرحمن، اطلب أي شيء، اطلب نور العين، سوف اعطيه لك. أقول لك هذا عن طيب خاطر، وانت تعرف أن كوثر بنت الشيخ محفوظ قادرة على تنفيذ كلامها".
كان مساءً غريبا، كلامها له وهج، وجسدي توتر كأنني في يوم عرسي، كأنني ما عاشرت النساء من

قبل. كان الجو صيفا وناموس يئز في الشرفة في دارها، ورائحة دخان في الجو، رائحة شيء يحترق. حقول القطن تغرق في صمتها في المساء، ونور الدين مسافر. أنا وهي وحدنا. حدث الأمر بسرعة. شعرت بجسدي يميل ناحيتها. كانت بجانبي تجلس على حافة الكنبة، تستدير بنصف جسدها حتى تراني، عيناها تشعان بالبريق. ملت تجاهها، وأمسكت كفها، فضمت كفها الأخرى على يدي. في تلك اللحظة انطلق صراخ، ثم صفير، وسمعنا الناس تجري من طريق المصرف إلى غرب البلد. أحد حرائق الصيف.
كف الفوران في الحال، فقد أدركت أنها علامة. أفقت، وتراجعت بظهري على مسند الكنبة وقلت: "يا ست كوثر، أنت بالنسبة لي أغلى من الحياة، وحظي السيئ أنني لم أرك وأتخذك زوجتي، أنا رجل حمله ثقيل، وألم قلبه عظيم". وقمت مستنداً بكلتا يدي على الكنبة، وضعت يديها على كتفي، ومالت تقبل يدي. رفعتها وقبلت خدها، ورأسها، ونزلت درجات الشرفة كأنني عجوز عمره مئة عام، رغم أنني كنت في كامل عنفواني. ربك سلم، واستطعت أن أخرج من باب السياج ورائحة الحريق في الجو مقبضة، أشعر بالغبن والخسارة إلى أعمق نقطة في كياني، خسرت متعتي الحب والعلم، وحزنت في تلك الليلة حزنًا لم أكن قادراً عليه. رجعت إلى الدار، وابلغتهم انني مسافر إلى مصر، وقضيت هناك ثلاثة أيام أنهيت بعض المصالح في الإصلاح الزراعي، ووزارة الري، ومصلحة المساحة، وعدت قادراً على تحمل وجع القلب.
هذه أول مرة وأخطر المرات. بعد ذلك تلونت صورتها في الخواطر بالحزن والخسران، وعادت النقمة على حياتي: رغبتي في تحصيل العلم التي ضاعت، وفقدي للمرأة التي كان يمكن أن تدخل البهجة إلى قلبي. أدركت الهزيمة وقت النصر. فبعد أن استعدت مكانة عائلتي وأصبحت في الناحية كلها الرجل الذي يمكنه أن يفك الخلافات ويستبدل الصلح بالدم والعراك ويترك الناس راضين متفهمين، في تلك اللحظة كان قلبي مثل قلب صبي، يتهاوى تحت ألم الحب المستحيل الذي يمكنك أن تلمسه وتناله لكنه محرم عليك.
كان أبي يأتي في أحلامي تحاسبه ملائكة شداد غلاظ، يقول له أحدهم: أنت كالبغل، أضعت كل شيء، وأراه يتعذب وحوله الزبانية. أفرغت طاقتي في العمل، وفي رعاية الأرض، ونظرت إلى بعيد، علّني أجد الشفاء، علّني أجد ألم القلب وقد هان، لكن ذلك كان بعيداً جداً، ومازال امامي طريق طويل لا بد من خوضه، قبل أن يحدث ذلك.
بعد ذلك تمت المحبة بيننا، أعمق مما كانت. ونسبت الأمر إلى أننا لم نخضع لشهوتنا. قد يكون ذلك صحيحًا، لأنني كدت أتهاوى في أثناء كارثة عمك "علي" بعد ذلك بسنوات، كادت رجلي أن تزل مرة أخرى، ولكن الله سلم. كان نور الدين في الحج. الأحزان توهمك أن حضن امرأة يمكنه أن يخلصك من أحزانك. هذا وهم. فقدي لعلي ابن اخي جعل الست كوثر شهية كأننا في أيام الشباب، لكن الله سلم مرة أخرى، وبعد ذلك ازدهرت علاقتنا، وأصبحت أقوى مما كانت.
الآن أفكر: لو تركت نفسي لتلك الشهوات العابرة ما الذي كان سيحدث؟ لا شيء. لم أكن لأتمكن منها. لم تكن لي. ورغم وجود شروط المحبة غير أن شروط الأوجاع أيضاً موجودة. الحمد للّه أن قدمي لم تزل. لقد خَلَقْتُ محبتنا بتغلبي على تلك اللحظات. أما هي، فبعد كل تجربة من تلك التجارب، تزدهر ويزيد قربها وتقديرها، حتى أصبحت تشبعني نظرة المحبة في عينيها.
أعرف أن متع الحب غالية. ما الذي يعادل ملمس الشفاه ونعومة الصدر، وضمة الحبيب؟ لا شيء. متع الحب مثل السحر، لكن الشهوة عابرة مثل الحياة، عندما يفرغ الرجل سوائله يصبح مثل ماعون فارغ، الشهوة تبقى محبوسة في السوائل بمجرد الإنزال تتبخر، ويعود المرء فارغًا. ماذا يعني أن أشبع

شهوتي وفي المقابل أضيع حياتي؟ لن يبقى من هذا الجمال غير خيانة الصديق والنفور منها. سوف أخسر صاحبي وأخسر نفسي وأخسرها، وربما تبدلت وأصبحت مثل أي امرأة أخرى. آه من الزمن وتدابيره، والعقل وحيرته في الملكوت، ربما لو تزوجتها ورعيت مصالحها ورعت حياتي لأصبح للحياة طعم آخر. ذلك مكمن الحزن. الحب مختلف مع امراتك التي تحب. رغبتك تسري فيها وتعطيك هي محبة ورفقة وودا، تتسع بها وتتسع بك، لكن ما حدث لي أنني لا يمكن أن أقربها لأنها زوجة صديقي، ولن أتمكن ابدا من أن تكون زوجتي.

تعبت من نفسي ومن الحياة وأريد ان أمضي من هنا.

سألتها ذات يوم:

لماذا تزوجتِه يا ست؟

قالت: كنت محطمة بعد موت زوجي الأول وفكرت أنه ينفعني. كان وقت الطمع. كنت شابة أحب الضحك والفرفشة ونور الدين وسيم وطيع، وطيب ايضاً وسوف يعمل لي ألف حساب.

"كنت تريدين رجلاً على مزاجك يا ست كوثر؟"

"والله يا شيخ لم يكن القصد، لقد أردته حقًا، كان يبدو أنه رجلي، أنت لا تعرف الناس إلا بعد أن تعاشرهم، وهو مزواج، ويحب النساء، خفيف، أي امرأة يمكن أن تغويه".

نور الدين هكذا طول عمره، خفيف طيب. الحياة بالنسبة له بهجة ممتدة لا يعكر صفوها شيء. نور الدين مثل طائر لا تحط في قلبه الأحزان. قلبه أملس مثل البلاط وهذا سر قوته. لكنه يشعر بالغبن لأنه لم ينجب. ظن أن الست كوثر عاقر، وفي فورة نهاية العمر تزوج سرًا من بنت صغيرة، وأجر لها بيتًا غرب البلد. عرفت الست كوثر، وارسلت في طلبي. قالت والشر يطق من عينيها:

"لقد سكت على خُبصه طويلا، هذه المرة يعملها رسمي ويجرسني أمام الناس؟ انا كوثر بنت الشيخ محفوظ يتزوج على عيلة تعمل في أرضي؟ قل له يرسل إلى ورقة الطلاق، ولا يعتب داري ابداً".

قلت لها: "اسمعي يا ست الكل، أنت تعرفيني وتثقين في حكمي. نور الدين لا يمكن أن يستغني عنك، وما فعله ربما تحت تأثير المخدر الذي يتناوله، ورغبته في الذرية".

نظرت إلى بغضب، كأنها كانت تنتظر مني كلاماً آخر. ربما انتظرت مني أن أجيء لها بورقة الطلاق، فرصتنا الأخيرة لنعيش معًا ما بقي لنا من عمر. لكنها لم تعرفني. لم تعرف عبد الرحمن بن سليم. المواقف الصعبة تنبهني، تعيدني إلى عقلي. نظرت إلى بدهشة، وبادلتها النظر بحسم. في النهاية قالت بصوت مبحوح بالدموع:

"افعل ما تشاء يا شيخ. أنا موافقة".

فهمَت وعرَفت ما أنوي.

الغَريب أن نور الدين بعد زواج استمر عاماً وأكثر، لم تحبل البنت الصغيرة، واكتشف أنه أيضاً لا ينجب، مثل الست كوثر، وانهما خلقا لبعضهما. سويت الأمر بطريقتي. راضيت أهل البنت وأخذت نور الدين إلى داره، واستسمحت الست، وعبرت الاختبار الأخير، لكي تنير المحبة قلبي كأنها سراج. صحيح أني خذلتها، لكنها امرأة ولا كل النساء. تتفهم. تدرك المعنى. أدركت ما قصدت.

بعد فترة قالت لي:

"الخسارة حدثت منذ البداية، الخسارة التي تحدث في البداية لا يمكن إصلاحها. فهمت يا شيخ وقدّرت".

كانت تلك آخر الفرص. مضى الزمن وطهّر الرغبة وجعلنا قادرين على فهم بعضنا دون كلام. أصبحت صلتنا أكثر قوة. أصبحت غنية بما يرقد في جوفها من شهوات قديمة لم تصل إلى غابتها، فتحولت إلى

بريق صاف، وانصهرت في مودة عميقة، أقوى من علاقات الدم والزواج. كثيراً ما حمدت الله وشعرت بالتوفيق، لأنه منحني حباً خالصاً، بعد مشقة كبيرة".

صمت وأغمض عينيه.

تنفست الآن بقدر من الراحة. كنت مشدودًا، خائفاً من كل كلمة يقولها، فلم أكن أتصور أن يقوده الكلام إلى تلك النقطة التي كان الهمس يدور حولها في الدار والبلد. كثيرًا ما ذهبت في مشاوير إلى دار الست كوثر. كانت تقبلني وأشم رائحتها الحلوة التي تشبه رائحة البرتقال ورائحة التبغ. لم أتخيل أن يتحدث عن حبه بهذه البساطة. عرفت أنه لم يعد موجوداً. بالتأكيد كان شخصاً آخر. كل الحكايات التي سمعتها في طفولتي عن أن الست تفضله على كل الناس، ولا تأمن إلا له، والسخرية المستترة من أنه يحب زوجة صاحبه، عندما كانت تسافر معه، كل تلك التخمينات والأقاويل أصبحت فجأة حقيقة في هذا الهذيان الأخير.

***

(4)
كن يقظاً وقت الأفراح

أسند ظهره إلى المخدة متعبًا وأغمض عينيه. تخيلت أنه قد فارق المكان، وجاءت فرصتي أن أتسلل وأخرج من الغرفة. أعرف أنني لن أتمكن من هذا ولن أجرؤ عليه. كان الصمت قد تحول إلى صلاة، يتألق فيها حديثه عن الحب مرة أخرى، يحوم حولنا ويشكل فضاء له سكينة جذابة تشبه سكينة الفجر. تلاشي إحساسي بالبرد ومن خلف النافذة راح ضوء النهار يخفت ثم يشع مرة أخرى مع طلوع الشمس من خلف سحابة، وأهل الدار بعيدون في واد آخر، وعندما سمعت عمتي فاطمة تنادي إحدى البنات لتشعل الفرن، شعرت بأنه اصطحبني معه إلى زمن آخر.

فتح عينيه مرة أخرى، وقد استعاد حيويته وعاد لجلسته المعتادة طاويًا ساقيه وناظراً تجاهي بحزم:

"إلى أين وصلنا؟"

لم أتمكن من الإجابة.

قال بصوت لين فيه نبرة أعرفها وأحبها، نبرة رأفة ورغبة في التعليم:

"وصلنا إلى الكلمة الرابعة. خذ عن جدك".

"كن يقظاً وقت الأفراح. تحتاج تلك الفترات إلى انتباه. أوقات المحن تخلق يقظتها وانتباهها ولا سبيل إلى الشطط فيها، أما أوقات الرخاوة فالخوف منها. عليك أن تشد الحبل على الآخر وتشحذ انتباهك، حتى تعرف كيف تسيّر المركب. لو تراخيت مع وقت الرخاء ضعت. الحياة مهاويها تتخايل للمرء في صور مزخرفة، ورُب حادث صغير، تظنه تافها، يجرك في لحظة الفرح إلى الهاوية".

رفع كفه ومسح بها على وجهه وقال:

"لا تأمن للفرح، عشه كأنه لن ينتهي، لكن لا تأمن له. أنت تحتاج إلى ذلك أكثر من أي واحد هنا. سأعلمك شيئًا، أعتن به، وضعه في قلبك، إن أردت ألا تكون مثل الطفل وتترك الأفراح تسيطر عليك، فتعامل مع نفسك على أنك حلقة من سلسلة. تذكر دائماً فكرة "السلسال". أنت نقطة سوف تمر مثلما يمر الزمن، عندها سوف تدرك أنك لست مؤيداً وتتعامل بشكل حسن".

ثبت نظره على وجهي، وتاه. شعت عيناه ببريق كأنه يعاين كل لحظات الزمن القديمة التي أدت إلى وجوده. عاد خوفي القديم من عبوسه ونظرته الماحقة، التي تمحو الصلة بيننا وتحيله إلى كائن أعلى، غريب، آمر، راغب أن أنجز ما لا أقدر عليه. عادت إليه تلك النظرة التي كرهتني في حياة عائلتي وتعاليمه. تسلل خوف نيئ إلى قلبي وسكن كل شيء.

الآن يعود له الحزم الذي أعرفه، ويدفعني بقسوة إلى النظر في الهوة التي يسقط فيها، إلى معاينة المجهول الذي يستعد إلى الرحيل إليه. كان خائفًا رغم البريق الماحق في عينيه، ولم يكن يدرك أنني لم يعد يعنيني أي شيء. كنت شارداً مستمتعًا بعملي سائقًا للجرار، أحمل الرمل من الجبل إلى الطريق، وأعيش في دوامة من الحب والمرح، وأشعر براحة في الصحراء، مالي وهذا الكلام المخيف.

وخيل إلى أنه يرى أفكاري، عندما نظر إلى نظرة جادة وغاضبة في الوقت نفسه وقال بزهق:

"لا تأمن للأفراح".

تذكرت صباحًا بعيدًا، كان يقف في وسط الدار، وقد أمسك كوز ذرة وجده مرميًا بجوار الحائط. نادي جدتي خديجة غاضبًا. كان يلبس عمامته الأزهرية وجلبابه الصوف وفي يده العصا المعوجة يرفعها في وجه جدتي ويقول:

"حرام عليكم، هذه نعمة، فاهمة؟"
يشير بكوز الذرة:
"ربنا يمسخنا لو أهملنا، فاهمة؟"
يقرب العصا من وجهها بعناد:
"ربنا يمسخنا، فاهمة؟"
ظل منظره المخيف في هذا الصباح الربيعي الذي كنت أقف فيه على باب الزريبة أمد يدي بأعواد البرسيم للعجل المولود، يكمن دائمًا خلف مودته، وأشعر بأنه يمكن أن يظهر في أي لحظة. لم يكن كلامه هو ما حمل معاني الشر، بل رفعه للعصا في وجه جدتي وعيناها ترمشان وتحاول إبعاد العصا بيدها، ونظرتها الخائفة. ما تركه لي المشهد أكثر من خوف جدتي هو أسطورة المسخ. التفريط في حبوب الذرة سوف يستدعي أن يحولنا الله إلى كائنات أخرى: قرود، بهائم، بغال. سوف نحبس في أجساد حيوانات إن تركنا نعمة الله دون عناية، ولذلك فإن كلام جدتي عن "من لا اسم لهم" الذين سيسكنون الدار ويطردوننا منها في نهاية الزمان، كان مخيفًا، وله مصداقية غامضة، جعلتني أعتني بحديثها. لا أصدقه، بل أعتني بحدس قلبها، وأحاول تفنيده كلما عم الخير الدار، وتوالد النسل، أحاول أن أجد الدليل على هراء هذا الحس المخيف الذي تركته في صدري حكاية المسخ، والدار التي سيعمها الخراب في نهاية الزمان، إن أهملنا كيزان الذرة.

***

أنجبت الست خديجة ستة بطون. عاطف ومحمد، ماتا في سن مبكرة، وعاش من أبنائها: عبد الله وصالح ونعيم وفاطمة. عندما تتحدث عن أبنائها لا ننسى أبداً أن تذكر من مات. عاطف طفلها الأول عاش حتى الثالثة، تضحك وهي تروي عنه بعض كلمات، نطقها بالطريقة المحرفة لنطق الأطفال. أما محمد فقد مات بعد ثمانية أشهر من ميلاده، لا تذكره إلا ويغيم وجهها بالندم لأنها تركته مع حماتها، وسهت عنه الست العجوز، فمد الطفل يده إلى عود سريس وبلعه، فشرق ومات. تتحدث عنهما كأنهما أحياء في مكان ما، يمكن أن تراهما مرة أخرى.
تنسب موت الطفلين إلى الكآبة التي عششت في الدار، وإلى الصراع الخفي بينها وبين من لا اسم لهم. تنسب فقدهما إلى الأحزان التي غزت قلبها، وغربة زوجها في البلاد، ومرافقة حماتها في جمع الملوخية من أراضي الناس لتبيعها في سوق المحلة، في الأسبوع مرتين، يوم الثلاثاء ويوم الجمعة.
جاء ابنها الثالث إلى الحياة محاطاً بهذه المياه الراكدة من الخوف. عقدوا العزم على تسميته "شحاتة"، لكن الشيخ حسم الأمر:
"اسمه عبد الله".
حاولت أن تناديه "شحاتة" منذ أيامه الأولى، فنهر الشيخ كل من ينادي الولد الصغير بهذا الاسم. نادته به في سرها، وظلت تحفظه كاسم له، ولم تعرف عبد الله إلا من فم "علي سليم" أو الشيخ. بقي في أعماقها "شحاتة"، وخيل إليها أن هذه التعويذة هي ما حافظت عليه، ووهبته الحياة. كثيرًا ما استعادت اسمه السري في لحظات الخطر التي مر بها، حينما غدر به الجمل وكاد يلتهم ذراعه، ولم تدعُ له قط بغير هذا الاسم، ظنًا منها أنه محفوظ عند الله بالاسم الذي أطلقته عليه.
أحاطته برعاية متوجسة. تحمله على كتفها وتذهب به إلى الكتاب. لا تعبأ بتهكمهم عندما يرونها تحمل على كتفها صبياً في طول قامتها. كانت خائفة أن يمشي على الأرض. خوف مجرد، خشن. رآها الشيخ ذات يوم تحمله، نهرها، قائلاً إنها سوف تخيبه.

اضطرت أن تقلع عن عادة حمله، لكن قلبها سكنته مخاوف أكثر قسوة، لجأت إلى تعاويذها وصلواتها الخاصة، تراقبه واقفة أمام باب الدار، حتى يختفي عن نظرها في طريقه إلى الكتاب وتنتظر عودته في المغرب، لكن قلبها يأكلها عليه طول الوقت. ذات يوم سيطرت عليها الوساوس. لقد حدث مكروه للولد. خطفت طرحتها من فوق المصطبة وتوجهت إلى الكتاب. لسوء حظها لم تجده بين العيال، وعرفت من "الفقي" أن الولد لم يجئ منذ ثلاثة أيام. بحثت عنه في كل مكان حتى وجدته يلعب وحده عند ساقية أرض النخل، رغم غضبها لم تنهره، حملته على كتفها وعادت به إلى الدار. كانت متخيلة أن الموت لو جاء فسيأخذه في الأول، فهو الكبير، الحجر الذي تغلق به بئر الموت، لو تزحزح، فستمتد يد الموت وتأخذ باقي نسلها.

***

ذات يوم جاء الشيخ من الخارج يحمل "عبد الله" من ظهر جلبابه كما يحمل صرة هدوم. كان راجعًا من السفر. أمام سراية سعيد بك، وقف عسكري إنجليزي يلقي للعيال بملاليم معدنية، ويتفرج عليهم يتقاتلون من أجل التقاطها، يغبرون وجوههم بالتراب، ويخربشون بعضهم، ويمزقون الثياب، والعسكري وزميلاه يضحكون. رأي الشيخ ابنه في كومة العيال، انقض على جمع العيال وحمله من ظهر جلبابه، وعندما وصل إلى الدار رماه في حجر الست خديجة:

"شوفي خيبتك".

لم يبك الولد رغم الضرب. ستظل هذه السمة إحدى خصاله. صمته صلب كالحجر، رغم طيبته، كأن جوفه خال من ذلك الماء الذي يريح القلب. في ذلك اليوم عندما جاء "علي سليم" من الغيط أمره الشيخ:

"من الصبح تأخذ الواد عبد الله معك، وتغرسه في الطين".

تقول الست خديجة إنه نصيبه. تمصمص وتصمت. كان ضعيفاً لا ينفع للفلاحة، ومن وجهة نظر الشيخ لا ينفع، أيضًا، لحمل المصحف. القرآن ثقيل كالجبل، وخشونة التعليم الأزهري تحتاج إلى صبر يشبه صبر العمل في الأرض.

في ذلك المساء انفجر غضب الشيخ ونادى "صالح"، وقال بالصوت الأمر نفسه، وهو يمسكه من معصمه:

"من الصبح تأخذ مصحف أخيك وتروح الكتاب".

من وجهة نظر الست خديجة كان "صالح" مؤهلاً للفلاحة أكثر من "عبد الله" كان أقوى وأكثر صبرًا، وقد تعلم أن يرافق الرجال إلى الأرض، يرعى البهائم ويدير الساقية، ويقوم بأعمال صغيرة، حتى بدأ يتعلم حش البرسيم وإمساك الفأس وسد القنوات بجواليص الطين، لكنه فسد لأنه يذهب كثيرًا إلى بيت الست كوثر. فكرت الست خديجة أن تغيُّر مصائر ولديها جاء بإيعاز من تلك المرأة الغريبة، لكن تلك الهواجس لم تصمد، لأنها تداعب عبد الله بالطريقة نفسها التي ترعى بها صالح، وإن أشارت مرات إلى أن "صالح" ذكي وأنه خسارة في الفلاحة، لكنها قالت ذات يوم وهي تقف أمام الدار: "لم لا يتعلم الولدان؟"

من كان يتصور أن تتبدل المصائر؟

يخفق قلب الست خديجة بوجل، خائفة، وغاضبة من زوجها، لكنها لا تستطيع الاقتراب، أو التدخل. تدرك بفطرتها أنه يلومها على خيبة الولد الكبير، وأنه ينتظر تدخلها كي يفجر غضبه فيها. رأت أحزان الولدين. "عبد الله" انزوي في ركن المصطبة كفأر صغير، ينظر في الفراغ بعيون واسعة بنية اللون

ووجه نحيل. و"صالح" يرتعش من إطباق يد الشيخ على معصمه.
منذ ذلك المساء، اندفع صالح في حفظ القرآن. يقوم في الفجر، كأنه ذاهب لري الأرض، يحمل المصحف ويذهب إلى الكتاب، ويعود مع غروب الشمس.
تقول الست خديجة مندهشة:
"ربنا فتح عليه".
وأخفت في قلبها غيرة من الست كوثر، لأنها أدركت أن حب صالح للتعليم جاءه من تلك المرأة.

***

الست كوثر تحب "صالح" وترعاه منذ نعومة أظافره. تراه يسحب الجاموسة تقول للشيخ: "الولد خسارة في الفلاحة يا شيخ". يقول ضاحكًا: "عادة العائلة يا ست الكل واحد يتعلم والثاني يشتغل في الغيط". تنادي صالح وهو سارح إلى الغيط وتطلب منه أن يمر عليها في المرواح. تعطيه ثمرة فاكهة أو قطعة حلوى، أو تبقيه معها للعشاء، وعندما يرفض خائفًا من أبيه، ترسل مرسالًا إلى الدار بأن صالح عندها. في أحد الأصياف رأته يضع منديلًا مبللًا بالماء على عينيه. عرفت أن ضوء الشمس يعشي عينيه، ويسبب له صداعًا. لا يهتم أحد في عائلة سليم بهذه الأمور الهينة. نبهت الشيخ إلى ضعف بصر الولد وطلبت أن تصحبه إلى مستشفى السبع بنات في طنطا، تعرضه على طبيب من معارفها.
بعد يومين جاءت سيارة أختها من طنطا وركب صالح بجلبابه المخطط بجوارها في المقعد الخلفي، فأثار غيرة عيال الدار، والأقارب. في العصر عاد برفقتها. توقفت السيارة الفورد أمام دار سليم ونزل صالح وبيده صرة أدوية. أخبرت الشيخ أن الطبيب أوصى بألا يتعرض للشمس ويعمل نظارة بعدما يخف التهاب العينين، وعندما عرفت أن الشيخ أمر أن يذهب صالح إلى الكتاب، أرسلت مرسالًا تطلبه. أخرجت من خزانة الكتب الخاصة بأبيها مصحفًا قديمًا ورقه أصفر مزخرف الحواف ومنحته للصبي، وطلبت منه أن يمر عليها كل يوم لكي تسمع له ما حفظ من القرآن.
يعود صالح من الكتاب إلى دارها، يسمع لها ما حفظ في يومه، تأخذه في حضنها، وتمنحه جملة والدها التي كان يمنحها للشطار من تلاميذه: "فتح الله عليك يا بني". وتعطيه قطعة كراميلا. بعد ذلك أعطته محبرة وريشة للكتابة، وورقاً. أحياناً تستدعيه يوم الجمعة بعد الصلاة ليقرأ لها بصوته المنغم سورة مريم، ويقرأ معها صفحات من كتاب البخلاء للجاحظ. حدثته عن والدها الشيخ محفوظ الذي كان علّامة لولا مرض المفاصل الذي حرمه أن يرحل إلى مصر ليعلم في الجامع الأزهر. في مكتبتها رأي لأول مرة مجلة "التنكيت والتبكيت"، وعرف أن السيد عبد الله النديم كان هاربًا من سلطات الخديوي في تلك المنطقة وأنه عاش في بيت مثل بيتها، في بلدة قريبة. علمته أشياء كثيرة، لكن أهم ما تعلمه هو حب العلم كأنه نور العين. فظل طوال عمره يشعر تجاهها بالامتنان، وحتى عندما سافر إلى بلاد الدنيا وخطب على منابر المساجد في العالم الواسع، كان يرسل إليها الخطابات ويحيطها بشؤونه. لم ينسها قط، ما إن تحط قدماه أرض البلد يتوجه إلى دارها قبل دار أهله، وعندما ماتت حضر جنازتها وبكاها كأنها أمه.

***

في الستينيات دخل دار سليم راديو "توشيبا"، اشتروه من تاجر يسافر إلى "غزة" ويعود إلى البلد ببضائع من كل صنف. راديو بني اللون له غلاف من الجلد، يوضع في المساء بجوار عبد الله، يسمع

المسلسلات والأغاني بعد العودة من الغيط. غير أن الروح الداكنة التي فرضتها سنوات الكارثة ظلت محفورة في تفاصيل الحياة: في حركات النساء، وهن يسرن متطلعات بجوار الجدران ليلتقطن قطعة خبز، أو يحاسبن وهن يحلبن البهائم، وفي أثناء الحصاد عندما يلمون كل سنبلة قمح من شقوق الأرض، وفي الأجران عندما يحيطون المحصول بعشرات الأيادي التي تسف التراب عن الحبوب وتلقيها فوق كوم الحبوب العالي، وحتى "عُقَل" سيقان القمح والفول يلمونها في أجوله، ويحملونها إلى الدار لتكون علفًا، وإن كانت البهائم تعافه فالحمير تأكله.
في الغيط يؤدي الرجال أعمالهم بانتباه. "علي سليم" الحارس هناك لتلك الروح، فهو شاهد على الكارثة، حتى أصبح هذا الحس الداكن للدار شائعًا في البلد، فعندما نقول لأحد الأنفار إنه سيعمل في أرض "سليم"، يمتعض، ويوافق مضطراً. الكثير منهم يتهربون. "علي سليم" لا يكف عن العمل طوال الوقت، ولا يصح أن يعمل صاحب الأرض والنفر جالس. كانت محنة لمن يضطر أن يعمل في تلك الأرض.
لم تفارق هذه الروح أيام الأعياد، والأمسيات. أحياناً يدخل الشيخ الدار وعندما يسمع صوت الراديو يقول بجدية خشنة لابنه الكبير:
"اطفي الزفت وقم شق على البهائم".
تجد هذه الروح الداكنة مقاومة في أيام الأعياد والمواسم، بلا جدوى، فالشيخ يحرسها، ومن خلالها يحكم قبضته على كل شيء، وبها يبعد مخاوفه وأحلامه بأهله. عصر يوم الوقفة تسبقه الحصيرة والشلت إلى المقابر. بمجرد وصوله، يلقي السلام على الموتى، ويجلس بجوار شجرة السنط. يلمس جذعها الداكن ويفرك بيده شيئاً من الصمغ السائل على الجذع. يأتي الناس لزيارته ويرد "علي سليم" الزيارة عند قبورهم. يبقى الشيخ جالسًا مستندًا بظهره إلى جدار القبر، تحت شجرة السنط التي زرعها بعد موت أخيه "نعيم"، مستريحًا إلى ظلها المثقب بأشعة الشمس، يتابع ببصره أفرعها التي طالت حتى لامست سطح القبر. يعرفون جميعًا ارتباطه بهذه الشجرة، لكنهم لا يخمنون أنه في ضميره يراها الرابط بينه وبين أهله. جذرها مغروس في عالمهم وفروعها في عالمه. أحياناً تتحرك شفتاه بحديث لا يسمعه أحد. يحسبه الجالسون تسبيحًا أو قراءة هامسة للقرآن. يبقى في المقابر حتى يؤذن المغرب ويفطر هناك. يميل عليه علي سليم، يخبره بأن الدنيا أظلمت وأنهم لا بد أن يعودوا، يرد كل عام بالجملة نفسها:
"انتظر يا علي، دعنا نأتنس بأهلنا".

***

(5)
الثروة مثل الدابة عليك أن تسوقها

قال بانتباه: "الظهر يؤذن".
أُنصتُ فلم أسمع شيئاً. حركة في الدار التحتانية وحديث النساء أمام الفرن. ربما كان أذن الظهر حقيقة، فلم يكن عصر مكبرات الصوت قد وصل البلد، ربما التقطت أذنه المرهفة الأذان من راديو ترانزستور يحمله فلاح يعبر الطريق. رأيته ينصت بشدة إلى الأصوات في الفضاء.
قال مرة أخرى: "انتصف النهار".
شعرت بأنه يراقب مرور الزمن الذي يبدو الآن لحظات كثيفة. كل لحظة مثل مشوار ثقيل على القلب. يقطع منه أميالاً من السنين في حكاياته دون أن يظهر ذلك الثقل. لا بد أن الحيرة مؤلمة للمرء وهو يعاين كثافة اللحظة ويرى في الوقت نفسه الحياة التي مرت كأنها حلم. لا بد أن المرء يشعر بالرعب إن كان يعرف أنه لم يتبق له على وجه الأرض غير لحظات مثل هذه التي تتبدد.
أغمض عينيه واستدار ناحية القبلة، وراح يصلي صلاته المتعجلة التي ظلت مثار تعجبنا، فقد كنا نضحك ونسأله عن التمهل، يقول:
"الله في القلب، الصلاة مجرد ميقات لتذكره، وما دمت أذكره طول الوقت فهي ليست سوى تأكيد للتذكر".
اعتدل في جلسته وظل صامتًا كأنما صفته الصلاة قليلاً من وجل مرور الزمن. نظر تجاهي بود، وعاد لوجهه سمْته الذي أعرفه، عندما كان بيحكي لي في طفولتي عن الناس والحياة. نظرته صافية ولم أصدق أنه سوف يموت بعد يومين، هذا حلم من أحلامه لم يتمكن من تفسيره.
قال بصوته المعتاد:
"إلى أين وصلنا؟"
وبدا كأنه تذكر، فقال:
"كنت اريد ان احدثك عن المال".
الثروة نعمة ونقمة، مثل الدابة عليك أن تركبها، لا تتركها تركبك. الإنسان غشوم، تغره الثروات، يظن أنه امتلك العالمين، لكن الخيانة بالمرصاد، قد تجدها وقد قفزت إليك من نقطة لم تعمل لها حسابًا. احذر أن تهزم أحسن ما فيك بتعلقك بالمال. اجن ما استطعت منه، لكن استعمله كما تستعمل الركوبة. الثروة تسلب الروح، مثلها مثل النساء الذهب له إغواء لا يقاوم تعرفه النساء، والضعاف من بني البشر. أتعرف حكاية علي بابا؟ الذهول أمام الثروة هو سلب للروح.

****

ردت الست خديجة باب الدار الكبير، بعد أن سمعت صوت المطر فوق عيدان الحطب خارج الدار. كان ذلك قبل المغرب بقليل، عندما دخل الشيخ من باب الدار، وعلى عباءته السوداء نقط صغيرة بلورية لم تتحول بعد إلى بلل. عاد مبكراً اليوم. لا أحد يمكنه أن يعرف أو يسأل. أفعاله لا تخضع للمساءلة.
علق عصاه على الشنكل وراء باب المندرة وقال:
"نادوا لي البت نبية".
التصرفات اللينة للشيخ نادرة، يتم حفظها في الذاكرة كرمز لشيء يمكن أن يفهموا معناه بعد ذلك. في ذلك اليوم كان وجهه مضيئًا. عيناه لامعتان كأنما عاد إليه الشباب. دخلت "نبية" خائفة إلى المندرة.

خفت الضوء تمامًا وأصبح المطر أكثر كثافة. أخرج الشيخ من جيب الصديري رزمة نقود، وقال بصوت خافت:
"حطيهم في الصندوق".
وأشار بالنقود قبل أن يدسها في يدها:
"اوعي تمدي يدك عليها حتى لو بارت الأرض".

***

"نبية" زوجة علي سليم، طويلة لونها مثل لون القمح أوان النضج. ملامحها دقيقة ووجهها نحيل. سواد عينيها داكن يظهر عمقه عندما تغضب، ويشع كأنه انعكاس ضوء على مرآة. دخلت الدار في منتصف الأربعينيات. زوّجها الشيخ لابن أخيه، الصلب، الذي رعى الدار في أثناء عمله في البلاد. اختارها له وهو يزور خاله ذات يوم، قبل موت أمه بعدة أشهر. قالت الأم: "البنت نافرة مثل أمها". قال الشيخ وقد عقد العزم: "على ابن أخي سبع".
أخذت مكانتها في الدار، لا بسبب القرابة بينها وبين الست "نصرة" أم الشيخ، بل بسبب صفاتها. منذ الأيام الأولى لاحظوا أن لها سرعة بديهة، وقدرة على الكلام المنمق، ومعرفة بالشهور العربية والأفرنجية، وشهور الزراعة، وقراءة ساعة الجيب، وبعد ذلك عندما ترسخت مكانتها في الدار حملت في جيب جلبابها، قلم كوبيا بحجم الإصبع، وورقة قديمة متهرئة تدون فيها مصاريف الدار. أكثر ما تميزت به هو قدرتها على العمليات الحسابية بدقة دون استخدام أوراق. كثيرًا ما حسبت عدد القناطير، واستخرجت المبالغ وما يحتاجه الفدان من البذور، بسرعة أذهلت النساء، وأخافتهن. ربما لهذا السبب ظنوا أنها ممسوسة. أثار ذكاؤها وترفعها الضغائن في قلوب النساء، حتى إن الست خديجة قالت بسماحتها المعتادة:
"والله باخاف منها".
الضغائن جاءت من أنها، ودون أن تطلب، أصبحت مركز تسيير الأعمال في الدار، بسبب المهارات التي تمتلكها في إقناع الأنفار بالعمل في أرض سليم التي يتهربون من العمل فيها. أصبحت هي التي توزع الأنصبة في المواسم على المزين والمداري والجمّال والقباني والبنت التي تسقي الصبار في المقابر. تنجز أعمالها بمهارة وتصل إلى ما يجب أن يأخذه كل منهم وهي ترفع وجهها وتحدق في السقف، مثلما يحدث عندما تحسب عملية حسابية.
أعطتها هذه الميزات مبررًا للتنصل من أعمال النساء، وهنا بدأت الضغائن تأتي ثمرتها، فكثيرًا ما تذكرت في أثناء الخبيز، نفرًا لم تحاسبه وامرأة يجب أن تبيّت عليها من أجل جمع القطن. أعطتها هذه الأنشطة بعدًا آخر مختلفًا عن النساء، وبدت طريقتها في التصرف لا تخص امرأة تكنس الزريبة أو تعجن الخبيز، بل قرَّبتها من الشيخ، ومن مناقشة الأعمال مع الرجال بعد العشاء.

***

في وسط الدار برك صغيرة من ماء المطر. تفوح رائحة الطين من الجدران. تدس "نبية" رزمة النقود في جيبها. تصعد السلم الموحل مستندة بيدها على السياج الطيني الرخو، شبشبها يلتصق في الدرجات الطينية ويعرقل رغبتها في صعود متعجل. عند الدرجة الأخيرة كادت أن تنكفئ، غير أنها تشبثت بالقش. في ظلمة المقعد أخرجت من الدولاب صندوقًا خشبياً مكعب الشكل له باب في أحد جوانبه. فتحته بمفتاح صغير. أخرجت بعض الجنيهات من أجل أنفار زراعة القطن، ثم دست المبلغ داخل الصندوق وتنهدت. النقود شحيحة في تلك الأيام، وحمل مبلغ كبير كهذا لا بد أن يحيطه الجو السحري

الذي يحيط بالكنوز، ويرفع المرء درجات فوق نفسه ويسرب إليه حساً بالتفوق.
قضت نبية تلك الأمسية كغيرها من الأمسيات في أعمال الدار. ربطت البهائم وأشعلت الفرن لتدفئ أواني الحليب. جهزت العشاء مع نساء الدار.
بعد العشاء قال علي سليم:
"بلوا البذرة. سنزرع القطن يوم الجمعة".
في وسط الدار جهزت مع النساء طشوت النحاس الكبيرة، وعينت لكل طشت مقدار البذور، ثم استعدت لحلب الجاموسة التي تخصها.
الوحدة التي يفرضها حلب البهائم تحتاجها امرأة فرحة بامتلاك الثروة. جلست على كرسي خشبي صغير، تدلك ضرع الجاموسة بكف، وبالأخرى تسند رأسها، وتراقب قطرات المطر ترن في الصمت متباعدة. سقف الزريبة ما زال ينشع بعد أن توقف المطر. راقبت اللبن ينسكب في الوعاء ومخاوف غامضة تسري في قلبها، لكنها تتوارى في لمحة ويحل محلها حس طاغ بالفرح بالكنز يسكن دولابها.

***

الست خديجة في خزانة اللبن، تتلقى الحليب، وتعد الأوعية وتصفي اللبن الرائب، وتلف طيات القشدة من أجل صناعة الزبد. سمعت خطوات نبية. أنصتت وكفت عن عملها واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم. أخذت وعاء الحليب منها دون أن تبادلها كلمة. كانت تعرف، فقد رأتها في المغرب تصعد السلالم وتخفي النقود في طيات جلبابها.
في ذلك المساء أخذ غضبها شكل النقمة. رفضت أن تبقى في خزانة اللبن؛ في القاع. هذا ليس مقامها. بعد كل هذا العمر تصبح أمينة على خزانة اللبن، وتتحول "نبية" أمينة على خزانة النقود؟
الست خديجة لا تعرف الحساب، ولم تكن بحكم طبيعتها السمحة قادرة على القيام بدور حارسة الخزانة، لكن رؤيتها للشيخ يعطي زوجة "على" النقود قامت في عقلها مقام الرمز. لم يكن الفهم متاحاً، لم يكن موجودًا غير الغضب.

***

في تلك الليلة حملت نبية اللمبة الصفيح وخرجت من باب الدار. ادعت أنها سوف تبيّت على أنفار لزراعة القطن. لم يسأل أحد عن ضرورة الخروج من الدار في ليلة شتوية خاصة أنهم لن يزرعوا القطن في اليوم التالي. سارت في طرقات البلد، تتلمس طريقها باتزان في الطرقات الموحلة. تحبطها غلالة الضوء الأصفر المغبر للمبة الجاز التي تحملها على رأسها. دخلت حارة ضيقة وأوصت عدة بنات بأن يستعددن لزرع القطن في أرض سليم يوم الجمعة. ثم توجهت إلى دار أهلها في وسط البلد.
الباب مفتوح، ولا أحد من إخوتها الرجال في وسط الدار. لمبة صفيح وضعت بإهمال على طرف المزيرة. رن صوت من الداخل:
"من في الدار؟"
"أنا نبية يا أمه".
تجلس الأم على الفرن في قاعة على يمين الباب. دخان حطب القطن عالق في فضاء القاعة. مصاصة القصب مرمية بجوار الفرن. أفسحت مكاناً لابنتها وقالت:
"قشري لي عقلة قصب".
ثم نظرت إليها وقالت بدهشة:

"وشك منور".
تركت نبية القصب من يدها ولم تتمالك نفسها:
"الشيخ أعطاني رزمة فلوس، أحفظها في الخزانة".
"رزمة كاملة؟"
"كاملة يا أمه. يمكن ألف جنيه".
"ربنا يوسع عليه. لكن الناس تلوك سيرته".
ثم مالت على ابنتها وهمست:
"أقول لك سر؟ خليه بيني وبينك".
أكملت الأم:
"يقولون إنهم يرشون القطن بالماء ويأخذون "البودرة" ليبيعوها بالغالي".
قالت نبية بغضب:
"الشيخ له أعداء، يريدون أن يأخذوا مكانه في رئاسة الجمعية". عادت نبية إلى الدار، معكرة المزاج، خائفة. تفكر في أحقاد الناس وقلوبهم السوداء. الرجال الذين يملؤون المندرة يطلبون ود الشيخ، لهم وجه آخر في الغيطان والطرقات. عبرت وسط الدار تلم طرحتها على نصف وجهها الأسفل. المندرة مضاءة بالكلوب وأصوات الرجال عالية. وضعت اللمبة على الفرن، ودخلت غرفتها. خلعت الملابس وطلعت على السرير ذي العمدان، وفردت الناموسية، اللحاف بارد مثل الرصاص، لكن في أعماقها يلمع فرح له رنين الأجراس الصغيرة التي تطوق رقاب الجمال.
ظلت تتقلب في فراشها، حتى دخل "علي سليم". جلست في السرير، وضمت الغطاء على صدرها. خلع جلبابه الثقيل ولبس جلباب النوم وتمدد بجوارها. لف سيجارة وأشعلها. خشيتها منه تثقل صمتها؛ فهي لا تتمكن من معرفة كيف سيتصرف، وإن كان ذكاؤها يمنحها قدرة على المناورة والتحايل على مزاجه العكر، لكن صمته في تلك الليلة كان مستغلقًا ومخيفًا، وهي نفسها مضطربة تشعر بنوع من الإثم في إخفائها للنقود، يرسخه فرح خفي لا تتمكن من السيطرة عليه.
لم ينطق "على سليم"، فانكمشت على نفسها، وحبست ما أعدته من كلام أطفأ السيجارة وأطفأ اللمبة واستعد للنوم، سمعت صوته من قلب الظلام يطلب منها ألا تنسى أن تبيّت على أنفار زراعة القطن يوم الجمعة. وجدت المنفذ الذي انتظرته، وراحت تحكي عن رحلتها في البلد بعد العشاء وعن زيارة أمها، لكنها لم تتمكن من التحدث فيما يقال عن الشيخ في البلد، ولا عن النقود التي تخفيها. أدركت بشكل غامض أنها إن فعلت فسوف ينفجر غاضبًا.
في المساء التالي لم تكن قادرة أيضاً على أن تخبره. كل يوم يمر يزداد يقينها بأن ما ستقوله سوف يغضبه. سوف يهيج ويهجم عليها يمزق جسدها، ومع ذلك ظل سحر الكنز يعمل عمله. يغير شيئاً في طريقتها في الخبيز والحلب ومزاولة أعمال الدار. تصرفاتها طبيعية، لكنها تحمل اختلافا طفيفًا عن طريقة تصرفها في الظروف العادية. في الأيام التالية أصبح الكنز منيرًا وكابوساً في الوقت نفسه، وظل عدم معرفة زوجها بما يحدث يلقي غيماً على صورة الكنز الجميلة.
ذات ليلة بعد العشاء، وفي وجود أهل الدار، طلب منها الشيخ أن تحضر مائة جنيه، لأنه سوف يسافر في الصباح إلى مصر. الكلمات البسيطة التي نطقها الشيخ على مرأى ومسمع من الجميع ولفظ الجنيهات المائة التي كانت تساوي ثروة في ذلك الوقت لم يخلصها من قلق الأيام الماضية فحسب، بل أعطاها المكانة العليا في الدار. أكدت تلك الواقعة بشكل نهائي أنها أمينة الخزانة، وأنها هي التي يجب أن يُرد إليها عندما تحتاج الأرض إلى البذور وعندما يحتاج الأنفار إلى نقود والبيت إلى مؤن. الآن

أصبح في يدها سلطان الدار.

***

وضع العشاء على الطبلية الكبيرة أمام الرجال. فادية بنت "علي سليم"، التي أصبحت صبية، كانت تنزل اللمبة من الرف، كي تشعل لمبة أخرى. اهتزت يدها. وقعت الزجاجة على الأرض وانكسرت
اقتربت الست خديجة من البنت وربتت على ظهرها وقالت مواسية:
"أخذت الشر وغارت".
ظلت واقفة تشرف على عشاء العائلة. حلة محشي الكرنب الكبيرة يتصاعد منها البخار، ويدها تشع بالسمن. كل من في الدار بدأ طعامه، وأحاديث خافتة تتردد هنا وهناك، والست خديجة بين الطبليتين، طبلية النساء وطبلية الرجال، تعطي هذا طبق لفت، وهذا رغيف خبز، عندما سمعها الجميع. صوتها أوضح قليلاً من كلامها العادي، لكنه أكثر حدة ومدبب الحواف، ويفيض بالجدية:
"وبعدين يا علي؟ ماذا جرى لامرأتك؟"
حط صمت ما زالت تتردد فيه بعض تمتمات وضحك الأولاد من رعب "فادية" عندما انزلقت من يدها زجاجة اللمبة. غدا ضوء اللمبة أكثر وضوحًا كأنه يظهر عندما يسود الصمت.
قال الشيخ بتمتمة مكتومة:
"يا ولية اتركي اللقمة تنزل بطننا".
لكن الست خديجة ظلت واقفة، تحمل طبقًا وراحت تعبئه من الحلة الكبيرة، كأنها لم تسمعه، تؤدي الأعمال التي تؤديها كل ليلة، وبسبب حركتها المستمرة، فإن لحظة الصمت تبددت، وعادوا يمدون أيديهم في طبق المحشي الكبير.
سمعوا صوت "علي سليم" خافتاً واضحاً:
"ما لها يا أمه؟"
عيناه مشرعتان في وجه زوجة عمه، وقد كف عن الأكل وراح ينتظر تفسيرًا، ليس للسؤال بل أيضاً لوقت السؤال.
قالت وهي مستمرة في توزيع الطعام:
"تأجير الأنفار وحسابات الدار لا تحبك إلا ساعة الخبيز والغسيل وحلب البهائم كأنها خلاص لم تعد من أهل الدار".
ساعدته حركتها وهي تتكلم في أن يتحمل الكلام. "نبية" لم تتحرك. ثبات واثق في الحركات، وتماسك في مد يدها. تأخذ طعامها ببطء كأن ما قيل لا يخصها. علامة انتباهها تكشيرة خافتة بين الحواجب. زاد هذا الجهد وجهها حدة ووشاه بصفاء وتركيز. ترقب الطعام وتمضغه ببطء، جميلة بشكل نادر.
رمي الشيخ اللقمة من يده:
"وبعدها لك يا خديجة؟"
ونظر إليها لحظات ثم أكمل:
"ليس هذا وقت الكلام. اتركونا نأكل اللقمة".
"علي سليم" ظل صامتًا، ينظر إلى عمه، حائرا كأنه لا يعرف عمَّ يتحدثون. الذهول والصمت الذي أصبح عادته وطابعه العام بعد ذلك، بدأ يظهر في تلك الليلة: ليلة "المحشي" كما سجلتها ذاكرة الدار.
توقفت الست خديجة في وسط الدار لا تتحرك، تنظر بجدية وغضب في وجه الشيخ، فأدرك أنها ليست الطريقة المثلى لمعالجة الموضوع.

قال بصوت واضح وزهق:
"يا بت يا نبية، اوعي تبيتي على أنفار وفيه شغل في الدار".
أكمل:
"إن شالله ما اتزرعت الأرض".
واستدار ناحية زوجته:
"مبسوطة يا خديجة؟"

(6)
احذر أن تقتل أخاك

"احذر أن تقتل أخاك".
كررها ثلاث مرات، وصمت. تطلع نحوي، وترك نظرته تحط على وجهي، وتاه. وبدا على وشك أن يقول شيئًا، لكن خواطره سحبته بعيدًا، ونسيني. انتظرت طويلاً أن يتكلم، وراحت الجملة التي قالها بحسم وجدية، تتردد في ذهني: "احذر أن تقتل أخاك". ربما عادت إلى ذاكرته حوادث ذلك العام الذي زرع فيه الأرض بالكتان، وصفع عمي "علي" كما يقولون الحادثة التي تدعي عمتي "نبية" أنها أساس مرض زوجها. لا أحد يمكنه أن يصل إلى أمر مؤكد، حتى حكايات الرجال الذين كان يجلس معهم عمي "علي" عند الساقية في ذلك اليوم، كانت متضاربة.
كل ما في الأمر أنه توقف عن الكلام، وظل تائهًا فترة طويلة، وانتظرت بلا جدوى أن يبدأ حديثاً في تلك النقطة التي حيرتني طويلاً، لكنه لم ينطق كلمة، حتى ظننت أنه لن يتكلم بعد ذلك، ولن يملي على ما تبقى من كلماته العشر التي وعد بها.

****

للشيخ جولات في أرضه. يحب أحياناً أن يقترب منها ويحسها مباشرة، بعد أن يتعب من صورها في الخرائط والعقود. يشتاق أن يلمسها ويمشي في أرجائها. جولاته في الغيطان تنوعت، منها المخطط من أجل رؤية المحصول في نموه، ومنها الطارئ الذي تفرضه الظروف. يكون راجعًا من مشوار في إحدى العزب لحل نزاع بين عائلتين. يجد نفسه قريبًا من أرضه. يتجه إلى أقرب الأحواض وينزل ليعاين الزرع. أما جولاته الرسمية فتحدث بمواقيت خاصة به من الصعب التنبؤ بها. بعد أن يتناول غداء خفيفًا، يسميه "لقمة"، يطلب أن يجهزوا له "ركوبة".
يعرفون أنه بدأ التفتيش، ويستعدون للحساب. ينتقل من أرض إلى أخرى. أحياناً يعود راضيًا مطمئناً، كأنه وجد نفسه هناك، فكل أرض جديدة هي امتداد لروحه واتساع لها، وها هي الأرض تتسع وتطرح محاصيل عفية بما يكفي ليطمئن، وفي أحيان أخرى يقدم ملاحظات في أثناء العشاء: هناك على رأس أرض الذرة حشيش لا بد أن يتصرفوا فيه. الخطوط التي تحيط بقنوات الري في أرض القطن نوارها ذابل. الأرز أصفر يحتاج إلى سماد. في بعض الأحيان يعود غاضباً، ويحاسب الرجال حساب الملكين على ما تصوره إهمالاً.
عصر يوم من أيام الصيف بدأ إحدى جولاته. في شهر أغسطس تأخذ أطراف نوار القطن الصفراء الزاهية لوناً داكنًا وتتحول إلى درجات متباينة من البني في طريقها إلى الذبول، لتكشف عن لوزة القطن الخضراء، الثمرة التي ينتظرونها طول العام. كان عصراً طيبًا. شجر الكافور العالي في أرض البحري يصدر عن أوراقه وشيش كلما عبرت خلاله نسمة خفيفة وما إن تخمد حتى يتمدد الصمت فسيحاً يلمس أرض الله الواسعة.
حث الحمار على الانحراف إلى طريق فرعي يجعل منه التيل المزروع على وسائد الأراضي ممراً ضيقًا. ربط الحمار في شجرة جازورين على مدار الساقية ونزل يتجول في أحب الأراضي إلى قلبه: أرض النخل. الأرض العفية التي يحب محاصيلها. مر بين خطوط القطن، ومشى في قناة الري حتى أوغل في باطن الأرض. هناك تنبه. شم رائحة عطن يعرفها جيداً. استبعد على الفور أن يكون مصدرها أرضه. كان متيقنًا من أنها آتية من أرض الجيران.

توقف لحظة وشم بعمق، وهو ينبه نفسه: حتى لو كانت آتية من أرض الجيران. دود القطن ينتشر بسهولة من أرض إلى أخرى. سار عدة خطوات، متحفزًا، يتابع الرائحة ويفحص القطن، منجذباً تشده الرائحة. بجوار النخلات الثلاث في وسط الأرض بالتمام، رأى الأوراق المخرمة، الثقوب غير المنتظمة التي يتركها دود القطن بعد أن يتغذى على الورق. رعشة غمرت جسده، وحملت معها بقايا ذكريات قديمة. مال يمسك إحدى الشجيرات وهزها. تساقط الدود على كفه وعلى الأرض، دود أخضر بطيء الحركة من التخمة. دود ناضج يقترب من طور التحول. امتدت يده إلى نوارة وفتحها. رأى دودة صغيرة تتلوى، تعيش ببراءة داخل الصفار المضيء لنوارة القطن.
استقام ونظر إلى أرضه الواسعة، التي لاحت منذ قليل امتدادًا لروحه. أصبحت الرائحة العطنة للقطن المصاب بالدود هي الهواء الذي يتنفسه. الغشية التي أصابته لحظات مصدرها مرارة الذكريات التي تربط بين دود القطن وضياع الأرض. الرائحة كتمت أنفاسه وهيجت صدره. سعل سعلات خفيفة، مدركا أن ثقته غير مبررة وأن الزمن يمكن أن يعود إلى الوراء. كيف استنام ووثق بأن كل شيءٍ طيب، والأركان التي أقام عليها حياته ثابتة لن يزعزعها شيء. هذا الدود الذي يزحف على الأرض باحثًا عن شجرة أخرى، وتسلقت واحدة منه حذاءه، يسخر منه. تشكك في بصره وإدراكه لحظة، وعاد ينظر إلى داخل النوار، إلى ضوء الشمس الذي يغمر كل شيء. تتكشف له الثقوب التي صنعها الدود في لوز القطن الغض تحت النوار.
ما زلت غراً يا عبد الرحمن يابن سليم. لم ينضجك الزمن بالقدر الكافي.
بدت كل سنين الشقاء غير كافية لحمايته من المصير الذي خطف أهله. تسللت الرخاوة ووجدت مكاناً لها في أرضه. وجدت منافذ خفية مثل خطوات الشيطان. الاطمئنان للحياة رخاوة. كان عليه أن يستيقظ ويعرف طرقها الخبيثة في التسلل. أهانه صدق الفكرة وجعله راغبًا أن يمسك الفأس وينزل بها على الشجر يحطمه ولا يتركها إلا بعد أن تغادره تلك الغصة التي تشبه "شربة" الملح.
عاد ببطء من قناة الري في قلب الأرض يفكر فيما يجب أن يفعل الآن. هل كان عليه أن يزرع الأرض بنفسه؟ هل كان عليه أن يرعى كل شجرة؟ تحولت نقمته إلى "علي سليم" الذي بدا له أنه قد خانه. انزاح غضبه على نفسه وتركز على وجه ابن أخيه. بدأت الخواطر تتجول. يسترجع أحداثًا بدت له تافهة، أخذت الآن معناها.
في الفترة الأخيرة ومنذ زراعة الأرض بالكتان و "علي" صامت، معزول، يجلس في المندرة كأنه يؤدي واجباً. "علي" تغير. أدرك الشيخ ذلك التغير على نحو خافت، تحت سيل الغضب، إذ إنه لم يكن قادراً على أن يبعد عن ذهنه صورة الدود يتلوى ببطء فوق حذائه، ويطل من النوار. مئات الديدان تتموج في خياله، وإحساسه بأرضه المتسعة التي كانت يشبعه تخيلها أو التجول فيها، أصبح الآن معتمًا يرعى فيه الدود.
ينهر الحمار، كأنما يحاول الابتعاد عن مجال الهزائم. تلوح في الأفق سكك شائكة. لن ينهزم كما انهزم أهله. لماذا لم يعتنِ "علي" بهذه الأرض، وترك اللطع تفقس الديدان الصغيرة وكبرت الديدان وها هي على وشك التحول إلى فراشات؟ منذ فترة لم ينزل "علي" إلى هذه الأرض. كان أبسط ما يمكن عمله، أن يرسل عاملاً إلى الجمعية الزراعية يطلب الموتور، أو يطلب المبيدات. كيف يكون هو الذي يصرف المبيدات للناس وتكون أرضه ممتلئة بالدود؟
على رأس أرض الذرة، يجلس "علي سليم" تحت شجرة السنط وحوله عدد من الرجال. لم يتمالك الشيخ نفسه وقال بصوت عال قبل أن يصل:
"قاعد تتسامر والدود يرعى في أرضك ويأكل محصولك؟"

صمت الرجال ووقفوا جميعاً. كلما اقترب تيبست حركتهم. أفلت "علي سليم" من تحجره ومشي ببطء تجاه عمه، وتمتم باستفسار ظهر فيه عدم التصديق هشًا لا يعبر عن وقع المصيبة:
"دود؟ دود في أرضنا؟"
اقترب الشيخ غير قادر على السيطرة على الغضب:
"الدود يملأ الأرض يا فالح".
مده يده تجاه ابن أخيه، وفي لمحة تبدل مسار الكف وبدلا من أن تحط على الوجه المستغرب، أمسكه من طوق القميص وجره تجاه الحمار، وقال بصوت غاضب:
"اركب يا سبع وعاين بنفسك"
وقف "علي سليم" أمام الحمار مرتبكًا، لا يعرف ماذا يفعل.
قال كأنه يكلم نفسه:
الأرض مرشوشة من يومين، موتور الجمعية كان هناك، وأنا بنفسي كنت واقف مع الأنفار".
أشعلت هذه الكلمات غضب الشيخ. اقترب منه وهو يرفع يده إلى وجهه. هذه المرة بدا أن الصفعة يمكن أن تكون قريبة الحدوث:
"أنا باقول لك الأرض بتشغي بالدود".
"علي سليم" لا يتحرك.
الشيخ يقترب منه حتى أصبح في مواجهته وأشار بقوة وحسم:
"اركب ورح حالاً".
"اركب".
دون أن يفكر أن يلبس جلبابه المعلق على شجرة السنط، قفز "علي سليم" بالقميص الداخلي والسروال على الحمار واتجه إلى أرض القطن.

****

"علي سليم" صامت في أثناء العشاء، يمد الملعقة بتكاسل إلى وعاء الأرز، ويلوك الطعام ببطء. الوجه الأسمر داكن السمرة. توتر مكتوم في حركاته، يسيطر عليه بصعوبة. نظرته حادة تذكر أهل الدار بأساطيره القديمة، كأن السباع التي تعيش في جوفه محبوسة. فجأة ترك الملعقة، وقام قبل أن يكمل العشاء. نفض مداسه على العتبة وخرج من الدار.
عاد في الليل. المندرة مضاءة بلمبة باهتة الضوء. الشيخ يجلس وحده شارداً أمام منضدة خالية من الأوراق. تردد "علي سليم" قليلًا، ثم عبر باب وسط الدار، وطلع إلى المقعد فوق السطوح مخالفًا بذلك عادته؛ فلم يعد مرة من الخارج دون أن يجلس قليلاً مع عمه يتحدثان في شؤون الأرض.
في اليوم التالي توقف موتور رش المبيدات على رأس الأرض. نزل العمال ومدوا الخراطيم في القنوات والخطوط محاذرين أن يكسروا الشجر، وبدؤوا الرش. انتشرت في الجو رائحة المبيد. لم يكن علي سليم موجودًا. لم يكن هو الذي يرشد العمال إلى مناطق الإصابة. الشيخ بنفسه، يحمل شمسية بيضاء يرفعها فوق رأسه يقف في وسط الأرض. أول مرة ينزل إليها ويعمل فيها حقيقة لا على الخرائط ولا في رحلات التفتيش.

****

لم يعد "علي سليم" يربط البهائم بنفسه ويوصي على علفها. يترك الحبال على عتبة الدار وتدخل

البهائم وحدها إلى مرابطها، أو يسلمها ليد امرأة أو بنت من بنات الدار، وينصرف. لم ينتبهوا لتبدل عاداته، فقد تخلصوا من تكليفاته بأعمال لا تنتهي، ولم يدركوا غيابه على أنه تغير في علاقته بالدار، بل على أنه راحة من أعمال إضافية. لم يسألوا عما حدث له، ولا إلى أين يذهب. خمنوا تفسيرات سهلة. في البداية قالوا إنها مشاوير من أجل الأرض، أو إنه يصلي العشاء في الجامع، أو إنه أعاد صداقته بزوج أخته "سعدة". واستقر الوضع بحكم العادة، حتى أصبح من الطبيعي أن يترك رباط البهائم على العتبة ويمضي إلى الخارج، فليس لرجل مثله أن يدخل ويربط البهائم بنفسه، ورغم ذلك بقيت طريقته المتشددة في العمل تشق طريقها إلى تصرفاتهم، فيلومون بعضهم على البرسيم المرمي في وسط الدار، أو الوحل الذي تقف فيه العجول الصغيرة أو لفة المناجل الموضوعة في غير مكانها، وفي الغيط لاحظ الأنفار أنه يتسلل ويتركهم ويجلس وحده تحت شجرة السنط على مدار الساقية، لكن طيفه ظل موجودًا وعندما يبدؤون في الانفلات يجدونه على رأسهم. تمارس صورته القديمة تأثيرها عليهم أكثر من وضعه الجديد، الذي تسلل ببطء، وبعد فترة كان من الطبيعي رؤيته ينسحب صامتًا باتجاه الساقية، ولا يثير ذلك أي تساؤل.
الست خديجة هي من تنبه إلى هذا التغير وأثار مخاوفها. كل ليلة عندما ترى البهائم تدخل وحدها، تسأل مندهشة: "فين علي يا أولاد؟"، أخذت وقتًا حتى تأكدت أنه لم يعد يبقى في الدار في المساء. ذات يوم جلست على مصطبة خارج الدار في انتظاره. اندهشت البنات من وضعها، فهذه الفترة من النهار تكون في قمة انشغالها، تبيت الفراخ، وتعد حمية للفرن وتجهز آنية الحلب، وتقطع الجبن بالسكين، وتطمئن على عشاء الرجال. لم يجرؤ أحد على أن يسألها عن سر تركها لأشغالها. "آمنة" حفيدتها الصغيرة التي تصحبها في أعمالها المسائية تمكنت من اختراق العزلة وقالت: "يا ستي الديك الرومي لم يدخل الخزانة". قالت وهي تنظر في عمق الطريق: "يتحرق".
غياب "علي سليم"، يخيفها. تعبت من الخوف وجاءت اليوم تنتظره. تريد أن تراه، وتتحدث معه. لسوء حظها أن "علي سليم" في ذلك المساء كان غاضبًا. ترك رباط البهائم في يدها واستدار إلى الطريق. كان ذلك أسرع من تفكيرها، فقالت بصوت عال والبهائم تجرها إلى داخل الدار: "رايح فين يا علي؟" لم يمهلها لتكمل عبارتها، وسمعت صوته آتيًا من الطريق:
"في داهية".

***

كان الشيخ متشدداً فيما يخص التهاون في العمل، والميوعة في التصرف ولعب العيال كما كان يطلق على "تدخين الرجال". شراء الدخان لحظة توتر في مساء كل يوم. صراع صغير يكشف طريقة الشيخ في الحياة مقابل عادات الرجال. بعد العشاء، يسود صمت مترقب. كل من في الدار يعرف أن علي سليم وعبد الله وعبده شمس، في انتظار باكو الدخان. في كثير من الأحيان، يرسِل إلى كل واحد شلنّا، وبرفقته كلمات عن لعب العيال. في مرات يكون غاضبًا، يدخل المندرة يخرج أوراقه، ويستغرق متجاهلاً طلبهم. ينتظرون صامتين فترة لا تطول كثيرا لأن "على سليم" لا يتحمل هذا التجاهل فيقول:
"ادخلي يا أمه وهاتي لنا الدخان".
"تدخل الست خديجة المندرة":
"هات دخان الرجال".
يسخر من وصفهم بالرجال، فما زالوا في نظره صبيانًا، بدليل تعلقهم بشيء فارغ كالدخان. يخرج محفظته الطويلة السمراء ويستخرج منها "شلن ورق" لكل رجل. دائماً يرافق ذلك تنبيه باليقظة في

الفجر لإنجاز أمر يخص الأرض. تظهر كراهيته للاستهلاك بلا معنى، وعدم قدرته على إدراك كيف يمكن لشخص عاقل أن يحول النقود إلى دخان يطير في الهواء.
في ذلك الصيف الذي بدأ فيه "علي سليم" يفض يده من أعمال الدار، بعد حادثة إصابة أرض النخل بالدودة، اعتاد أن يذهب إلى دار أخته سعدة بعد العشاء. يعرفون أنه يستريح هناك. بطل لف السجائر، وبدأ يشرب الجوزة مع زوج أخته. "المعسل" أرخص. كوز ذرة يشتري باكو، والباكو الواحد يكفي للتدخين يومين وأكثر. أحياناً تأتي أخته سعدة لدار العائلة، وعندما يراها يطلب من زوجة عمه أن تعطيها كيلة أرز أو قمح، يبقى في الدار حتى يتم ذلك. لا ينفع معه ردها المطمئن: "خلاص يا علي روح انت، هاكيل لها كيلة". تعرف أن الحبوب خزينه للدخان في بيت أخته. أراحه ذلك من انتظار "شلن المساء"، لكنه جلب عليه ألماً خفيا، كان أول أعراض انفصاله عن الدار والأرض. في تلك الفترة بدأ يشعر بأنه مثل عود ذرة ناشف، كما قال لأخته ذات يوم، عندما حاولت أن تفك عقدة لسانه.
ذات يوم ألحت عليه أن يحدثها عما به، فقال وهو يتنهد:
"نفسي مصدودة عن الدار والأرض والدنيا كلها".

***

قبل ذلك بعامين قرر الشيخ أن يزرع خمسة أفدنة من أجود أراضيه بالكتان. حاول "علي سليم" أن يوضح له أنهم لم يتعودوا زراعة هذا النوع من المحاصيل. لم يكن يفهم الداعي لزراعة محاصيل أخرى، مادام يعرف كيف يزرع محاصيله ويأخذ منها ما يجعل الدار تعود إلى عزها. شهوة الشيخ لجني أكبر فائدة من الأرض، كانت في ذروتها في تلك السنين. أراد أن يجرب محاصيل أخرى، أن يغير جلد الأرض. تدفعه أهواء من الصعب فهمها، تتجسد في ذهنه خفية وتظهر لمن حوله في شكل أوامر. يفكر في شيء واحد: كيف يمكن جعل هذه الأرض أكبر من حجمها، ويتدبر الطرق لتنفيذ ذلك. شهوة غريبة في استخراج أحشاء الأرض.
حاول "علي سليم" أن يوضح أن المصلحة تكمن في المضي في زراعة ما نعرف. اتهم الشيخ هذه النظرة بالجبن، وأصر على زراعة الكتان إصراراً غامضاً لم تظهر فيه بارقة أمل للتراجع. الأمر مرهق لعلي سليم لأنه ظن أن قرارات الزراعة تخصه؛ مشكلته أنه لا يعرف كيف يطيع بلا فهم. أهون عليه أن يشرب السم. أدرك أنه لن يزرع الكتان، لو فعلها فسيهري الكمد كبده.
أخبر عمه ببساطة:
"لن أزرع الكتان".
قال الشيخ بغضب:
"إن كانت الدار خالية من الرجال، نكري رجالاً ليزرعوا الأرض". أصابته العبارة في الصميم. عبارة عادية يقول مثلها كثيراً ليضغط على الرجال ويستحث همتهم. سقطت في جوف علي سليم مثل النار. لم يقصد الشيخ معناها الحرفي، لكن "علي" المتعب والذي خطا خطوة كبيرة في مخالفة عمه، لم يكن قادراً على فهم ظلال الكلمات، وحدثت الإهانة كجرح يقاوم أن يندمل.
حدث ذلك في رمضان. الكلوب مضاء في المندرة. خرج "علي سليم" من الغرفة غاضبًا. ضوء الكلوب مازال يعشي عينيه، تعثر في عتبة باب وسط الدار، وكاد أن ينكفئ. استند على المزيرة، وعندما اعتدل وجد "قلة" فارغة ألقى بها على الأرض. سمعوا صوت تحطم إناء فخاري في الليل، لم يخرج أحد ليعرف ما حدث، ظنوا قطة أوقعت شيئا من فوق المزيرة.

***

مضى الشيخ في زراعة الكتان غير عابئ بالغضب الطفولي لابن أخيه. لا أحد يعرف إن كان قد قصد بزراعة الكتان مكسباً جديدًا، وتغييرًا في نظام الزراعة، أم أنه أراد أن يعطي درسًا لعلي سليم الذي بدأ يتصرف بعجرفة وغلظة مع البهائم ونساء الدار والأنفار. لا أحد يعرف، لأن الكتان لم يزرع غير مرة واحدة في أرض سليم. قيل إن سبب التوقف عن زراعته هو الخسارة التي تكبدها الشيخ، وقيل إن الكتان يرهق الأرض، وبعد عام أو اثنين لن تكون صالحة لمحاصيلنا، وظل عدم زراعة هذا المحصول غير مرة واحدة، يلقي غموضًا على نوايا الشيخ.
تأكد "علي سليم" أن عمه يمضي في طريقه ولا يضعه في اعتباره، والأدهى أنه أخذ يعامله كأنه غير موجود. هدأ الغضب، وحل محله إدراك جديد بأن قيمته أقل كثيراً مما ظن، تحللت دهشته وتحولت إلى حس بالإهانة وطبعت نظرته إلى الأرض بطابع جديد. تحطم وهمه بأن أمور الزراعة من اختصاصه.
أيام زراعة الكتان في أثناء سيره في حقل محروث يجهزه لزراعة القمح، جسد الموقف في جملة خاطفة همس بها لنفسه:
"اللجام في يد الشيخ يا بن نعيم".
جسّد في هذه الجملة جوهر ألمه، وبدأت علاقته بالأرض تتفسخ. الأرض بالنسبة له مركز شخصه، وإحساسه بالسيطرة عليها يمنحه الشعور بأنه يعيش. يظهر ذلك في نبرة صوته وفي قوة بدنه، وفي وقفته وبسمته وكرمه. معرفته بتفاصيل خطوطها والأماكن العالية والواطئة فيها والحدود والنجيل على وسائدها، والنقر البائرة في أطرافها، طالما أعطاه حسًا بأنه يملكها، وله حق التصرف فيها، وملأه بالغنى. فكيف يتحمل نزع الروح عن تلك الصلة؟ أصبح ذلك مؤلماً، كأن المرأة التي يحبها أصبحت فجأة لا تخصه. إدراكه لانصراف مشاعره عن الأرض، غدا أكثر ألّما من كلمات الشيخ، ورغم ذلك لم يتمكن من أن يوقف تذكر الأيام التي استقبل فيها الأرض، أول القراريط في حوض البحري، إلى آخر الأراضي. وتراءت له أفراحه ساذجة.
لم يذهب ناحية أرض الكتان. لم يقف في الزراعة ولا خطت قدماه الطريق الموصل إلى الغيط، رغم أن الشيخ تراجع بعد ذلك عن عناده، كأنه تنبه إلى القسوة التي عامل بها ابن أخيه، واستدعاه في المندرة وأغلق بابها عليهما، وحدثه حديث الرجال، عما خططه لزراعة الأرض. أخبره في البداية أنه يعرف أنه أرجل رجل في الناحية، وأن غرضه كان أن يستحث همته. حاول أن يفهمه أن الدنيا تتغير. هناك أوضاع جديدة ويجب أن نسايرها، تعليم ومصانع ومدن ووظائف. الحياة الجديدة أساسها النقود. "النقدية كما كان يقول". النقود في الأرض والحياة معاً.
كانت طريقة الشيخ في "تطييب خاطره" مؤثرة. استطاع "علي" أن يفهم أن الموضوع لم يكن عنادًا من عمه، بل طريقة أخرى في النظر إلى الحياة. قال "علي" في نفسه إنه تعلم في الأزهر وأحماله ثقيلة. كان يحاول أن يجد في نفسه صدى لمشاعره القديمة حتى يحافظ على رابط داخلي بينه وبين عمه. طابت خواطره، لكنه لم يستطع قبول محصول الكتان. طلب شيئاً واحدًا، أن يُعفى من متابعة محصول الكتان أو المرور على الأرض.
بمرور الوقت تراجع إحساس "علي" بالإهانة باستمرار الانتباه إلى تغير الحياة من حوله: الموظفون الذين يأتون إلى البلد من المدن، المستشفى وطبيبه، والفلاحون الذين تركوا البلد وعملوا في مصانع المحلة وفي المدن. أدرك صدق رؤية عمه للحياة. رغم ذلك لم يفارقه حس داكن، يزحف عليه كلما تذكر أن رجالاً أغراباً زرعوا أرضه، ولم يتمكن من استعادة حسه القديم بها فاكتفى بالإشراف.
أصبح يركب الحمار ويلقي بتعليماته للأنفار ويمضي. رسّبت هذه الأزمة في أعماقه شعوراً بأنه لا يملك السيطرة على الأرض. أحيانا تتوارى تلك المشاعر كأنها تلاشت، لكنها ما تلبث أن تعود لتنقض عليه،

وتؤكد له أن الإهانة لم تمح، وأنها سوف تبقى في صدره ما بقي تفكيره في تلك الأرض التي حرم نفسه من المرور عليها. فهم أن ما يعيشه على السطح، من تدبيرٍ للأمور ومتابعة المحاصيل، ما هو إلا قشرة. الإدراك الفطري بقوته شحن تلك الأفكار بالألم. يفكر أحيانًا، أنه رغم المكانة والأرض الواسعة، لا يساوي غير الشلن الذي يحصل عليه في المغرب ثمنًا للدخان.

الأفكار باهتة تتحرك كسحب في الأعماق. تفعل فعلها في الداخل، بعيدًا، كما تفعل ظلمات الأرض في البذور. تدفع إلى السطح أبخرة من الغضب. يثور لأي سبب تافه. أحياناً يدفعه الكدر، من عمله ك "خولي" للأنفار كما غدا يسمي نفسه في سره، إلى الرغبة في خلع هدومه وإمساك الفأس والنزول وسط الرجال، يشتغل كما اشتغل أيام زمان. حنين غريب إلى أن يعرق جسده مرة أخرى، ويعايش الحس القديم بالتعب، عله يبعث الحياة في علاقة تموت، لكن الوهن هو ما يجنبه من الإغراء المباغت، الذي كان أحياناً يستسلم له. يخلع ملابسه، ويقول: "وسع يا ولد". كبرياؤه يمنعه من التراجع لكنه يشعر بالوهن كحقيقة، كأنه فقد شيئاً من قوته. وعندما يخلو بنفسه على مدار الساقية، أو مقرفصًا على رأس الأرض يتساءل:

"أين راح علي سليم؟"

***

(7)
الأحزان سموم القلب

تطلع إلى فضاء الغرفة، ثم إلى الشماعة وراء الباب، معلق عليها جلبابه وعمامته، وإلى الجدران، وإلى دولاب جدتي القديم، ثم إلى النافذة القبلية المغلقة، وإلى الكنبة التي أجلس عليها، ثم إلى كتبه الأربعة على المنضدة الصغيرة.
ينظر إلى كل شيء كأنه يتعرف عليه، بتلك الدهشة التي تظهر على وجوه من يصحون من النوم غير قادرين على التعرف على أماكنهم أو أنفسهم. يتطلع بتعجب من نسي أسماء الأشياء، يحدق فيها لكي تهبه اسمها وتعود مرة أخرى إلى وجودها الذي يعرفه.
حالة الصمت التي يدخل فيها تجعل وجوده مخيفًا أكثر من كلامه. الكلام حتى لو لم أكن قادراً على تحمله لكنه يجعل حضوره محتملاً، أما تلك اللحظة الكثيفة من الصمت التي غرق فيها كأنه يعاين الأشياء في حالة الخلق الأول، أرهقت قلبي وجعلتني أتعجل كلامه.
حاولت أن أتخلص من خوفي بالتأمل في الدولاب: دولاب جدتي ذي الزخارف القديمة والمرايا النقية التي تظهر على حقيقتك. دولاب عرسه في العشرينيات، وخطر لي أنني لا بد أن أقوم لأرى صورتي في المرآة لأتأكد أنني مازلت موجودًا.
غير من طريقة جلوسه، ورفع كفه واستغرق في تأمل خطوطها، ثم نظر إلى النافذة القبلية. قلت إنه يتحقق من درجة سطوع الضوء، ثم وجه نظره تجاهي وقال:
"ماذا كنا نقول؟"
لم أتمكن من الرد. لم أجد القوة على مواجهة تلك الحالات التي تتبدل بطريقة لم أعهدها عليه من قبل. أشعر بالخوف، إن تكلمت خدشت الصمت والخواطر التي تلوح له. اختيار الصمت في تلك اللحظة سمح لحضوره أن يوجد.
ظننت أنه سوف يستكمل حكاية عمي "علي"، أو يعلق على موضوع القتل، أو الصفعة، ولكن ذلك لم يحدث، قال بصوت حزين وبنبرة واهنة:
"الأحزان أطياف، نتركها تتسلل إلى القلب، ومتى سكنته، لا تخرج ابداً. عليك أن تدافع عن قلبك بالمعرفة، بالمحبة والحركة. لا تترك الأحزان تسكنه. أتعرف؟ لو سكنتك الأحزان فأحسن وسيلة للتغلب عليها هي أن تمسك الفأس وتشق قناة بطول الأرض. كان يجب على عمك "علي" أن يفعل ذلك، أن يفحت قناة بطول أرض النخل، ولو فعل، لتلاشى حزنه من تلقاء نفسه، لكنه استسلم له، فضاع. الحزن سم يتخزن في الكبد ويفتته".

****

على مشارف الشتاء أقاموا مولد سيدي عبد العال. نصبوا خيمة بجوار الجامع، قبل ثلاث ليال من الليلة الكبيرة. لم يكن "علي سليم" يهتم بتلك الأمور مثلما يهتم "عبد الله" ابن عمه، وزملاؤه من الشباب الذين يعملون على الجمال. إنهم نوع آخر من الرجال، طائرون فوق جمالهم لا يرتبطون بالأرض مثله، بلا مستقر، من الغيط للدار ومن الدار للغيط، هوائيون ليسوا مثله طيني المنبت والروح. هؤلاء الشباب يسافرون إلى بلاد بعيدة لسماع المنشدين أو لحضور الموالد، أما هو فينظر إليهم ساخرًا ويقول إنهم رجال فارغون، قلوبهم خفيفة.
ذات ليلة اقترح زوج أخته أن يحضروا الذكر أمام سيدي عبد العال. وافق "علي سليم" بصعوبة، وقال

متلكئًا:

"نشرب حجر معسل".

وصلوا إلى الخيمة. كان الذكر منصوباً. جلسوا مع مجموعة من الرجال على سلالم الجامع الحجرية يميلون بروؤسهم مع الإيقاع. أحيانا يرددون أصواتًا مع هزات أجساد الرجال التي تتحرك أمام المنشد. انجذب "علي سليم" إلى الإيقاع. وجده يشد جسمه. وضع طاقيته في حجر زوج أخته ودخل حلقة الرجال. الجسد يتشرب إيقاع الذكر. الكلمات المنغمة تنسل إلى أعماقه، وتثير فيه الأذكار سيلًا من الدفء والحنية لم يعرفهما قط. بدت له متعة حرم منها نفسه بلا تبصر. جسده يتمايل مع الإيقاع الذي يشده بعمق. الجسد يصهد ثم يعرق، في عز الشتاء: الله الله الله، تخرج من فمه موقعة وقوية: الله الله الله، الل- ااااااه الل- اااااااااه الل- ااااه. الإيقاع عميق يلمس سر روحه وحزنها، ويحرره. الثقل يفارق الجسد. الظلمات تتبدد من قلبه، ويفيض نور يراه متعينًا كنور البدر، ينسل من مسامه وينتشر في كيانه، كأنه غيط قمح يطلع عليه القمر. الأرض تصحو في أعماقه مبتهجة بالنور: الله الله الله. انغمر في إيقاع أخذ يتسارع، يتسارع، يتسارع، حتى غاب عن نفسه تمامًا.

أدرك زوج أخته ما سيحدث، فقد رأى جسد علي سليم يتشنج. هب مسرعًا ليلحقه، لكن الجسد المتخشب كان أسبق، وسقط على الأرض مرة واحدة كما تسقط شجرة كافور. لم يقدر خمسة رجال على رفعه من مكانه. قربوا من أنفه بصلة مهشمة، وحشروا في فمه قطعة من الجبن القديمة. بعد فترة أخذت أنفاسه تصحو وتنتظم وتعود إلى الجسد بعض المرونة مكّنت الرجال من حمله مثلما يحملون صخرة وأسندوه إلى جدار الجامع. رأوه بعد ذلك يقرفص، ويضع رأسه على ذراعيه وتصدر عنه أصوات خافتة، اعتبروها نشيجًا، بكاءً مليئًا بالشهقات، وعندما رفع رأسه اكتشفوا أنه لم يكن بكاء. تأكدوا من ذلك، لأن عينيه اللتين شرعهما فيهم، كانتا ناشفتين.

حبك طاقيته على رأسه وتوجه إلى الدار.

***

دبت الخلافات بين "علي سليم" وعمه على أتفه الأمور. أصبح عصبيًا، يغير مواعيد زراعة المحاصيل بدون مشورة، أو يقترح عددًا أقل أو أكثر من الأنفار لزراعة محصول، أو جمع القطن، ويخالف الجيران في مواعيد ري الأرض، أصبح مشاكسًا يعارك ذباب وجهه. حسم الشيخ تلك الخلافات بقسوة موافقًا أحياناً على رأيه، ومخالفًا رأيه كثيراً. وعندما زادت مشاكله مع الجيران، بدأ الشيخ يتصرف كأن "علي" غير موجود. راكمت هذه التصرفات حسًا بالعزلة أخذ ينمو في السر، لم يتعرف عليه "علي سليم" إلا على سطوح بيت أخته عندما كانت تلح عليه أن يحدثها عن سبب همه.

في أحد المواسم التي أكلت فيها الدودة محصول القطن، بدأ يسري همس في البلد، أن الشيخ شارك في الكارثة. سمح لعمال الجمعية ومشرف الزراعة، أن يخلطوا المبيدات بكميات كبيرة من الماء ليوفروا عبوات كاملة من المبيد الخام، تباع سراً لحسابهم الخاص. الحكايات على الطرقات وعلى رؤوس الغيطان لها طابع مختلف عن الوقائع، تتلون بالتفاصيل والحوادث كأنها تمثيلية في الإذاعة. تطرقت الحكايات إلى الأسماء الوهمية والحيازات الزراعية التي لا أساس لها والتي يستعملها الشيخ لصرف علف ماشية وسماد الأرض وبيعها في السوق السوداء. تصل إلى "علي" صدى الحكايات، فتراكم حسه بالمهانة والغضب. الوحدة العضوية بينه وبين عمه لا تجعل كلامًا يخص الشيخ لا يخصه. الفساد الذي يوجه لعمه يوجه إليه، وبالذات إلى أصله. الإحساس بهذا التوحد مغروس كنوع من العقائد في صدره. فأنكر في نفسه هذه التهم، وقال إن الناس تهوى الكلام والحكايات، واللسان طويل دائمًا في أكل

لحم غيره. يريحه أن يتذكر أن الأرض تكونت بالكامل قبل أن يصبح الشيخ رئيسًا للجمعية الزراعية، لكنه لا يستطيع أن يتخلص من الانقباض. يتوقف الهمس عندما يرونه قادمًا. يتم استقباله بالترحيب الصاخب الذي يرافق جلوسه في جماعات الرجال. يعرف أن الترحيب به أصبح قشرة زائفة، وحمله بين جنبيه كإهانة أخرى، حتى بعدما أثبتت الأيام كذب الشائعات، ففي أحد الأصناف تم ضبط المشرف الزراعي وحُمل إلى نقطة البوليس ثم أرسل إلى المركز، للتحقيق معه في النيابة بشأن المبيدات المخلوطة بالماء. عرف الناس أن الشيخ لا يد له في الموضوع، وأخذت أقواله على سبيل الشهادة، وبقي رغم التحقيقات رئيسًا للجمعية. لكن الهمس لم يتوقف بل تحولت الشكوك إلى يقين محاط بالاحترام. "كيف فعلها؟". أصبح الناس يهابونه قائلين إنه يقدر على كل شيء، لقد طلع من قضية المبيدات مثل الشعرة من العجين.

****

يرقد "علي سليم" فوق قش السطوح، في بيت أخته "سعدة"، ناظرا إلى السماء. صمته مقفول لا يملك أحد مفتاحاً له. تحاول أن تدفعه للحديث. يجيب بكلمات مكررة، كالنفس المصدودة، أو القلب المهدود. هو نفسه لا يعرف.
اقتربت من الجرح ذات يوم وسألته:
"أنت زعلان إن عمك لم يكتب لك أرضًا؟"
رد بسرعة:
"لأ. كتب لي ثلاثة أفدنة".
هنا يكمن جذر المشكلة التي لا يفهمها مهما حاول، فقد كتب له الشيخ أرضًا، وأمسك القلم ورفع اسمه بالكف نفسها التي تمسك الفأس، وفي حضور الشهود، على عقد بثلاثة أفدنة، إلا أنه يدرك بطريقة غامضة أن العقود صورية، مجرد أوراق، وأن الأرض بعيدة عنه.
ظلت "سعدة" مهمومة بحزن أخيها، تحاوره ولا تتمكن من التخفيف عنه. تراه كابسًا الطاقية، يزيد همّه كل يوم عما سبق من أيام. في النهاية، فاض الكيل، فقالت ما أخفته طويلا:
"خلاص يا "علي" اطلب (العزلة)".
قالت ذلك بحسم امرأة، لم تجد حلاً آخر ينقذ أخاها:
"كلم عمك وخذ أرضك واشتر دارًا".
هب واقفا. ربما لأن الفكرة كانت تتحرك في أعماقه وتناوشه خفية:
"أنت أتجننتي؟"
أمسك مداسه واستعد للرحيل:
"أموت الأول".
قال ذلك بيقين: إنه يفضل أن يموت قبل أن ينفصل عن لحمه. لم يكن مجرد كلام، كان جوهر كيانه. الحفاظ على الوجود في العائلة هو الحياة، الخروج منها خيانة.
خرج من دار أخته، مشى في الحواري المظلمة، حتى طلع إلى "داير الناحية". أعمدة الكهرباء الخشبية تلقي ضوءاً أصفر باهتا، والعيال تلعب تحتها، وتتحرك في ضوئها ذرات الغبار والحشرات. الفكرة ناوشته قبل ذلك، لكن النطق بها، أمر مختلف، ولأنها ظهرت على السطح فقد راحت تنفي نفسها. وعرف أنه لا يمكن أن يضحي بالوحدة الأساسية، وحدة الجذر. في صميم روحه يعتبرها خيانة، وبالنسبة له العيش في العائلة هو ملامح وجهه، فكيف يمكن للمرء أن يفارق ملامحه؟

الجو به لمسة برد، وتلفيعته ملفوفة على رأسه ورقبته. يده في "سيالة" جلبابه. يمد الخطو في ليل البلد النائمة إلى الدار. توجه إلى غرفته في طرف الدار، لاحظ أن الضوء يملأ شقوق الشباك والباب الذي لا ينغلق بالكامل في الشتاء بسبب امتلاء الخشب بالرطوبة. عندما دخل رأى "نبية" جالسة على الأرض، أمام الدولاب، وصندوق الفلوس مفتوحًا. أربكها وجوده المفاجئ فوق راسها. كان يعرف أنها تحفظ فلوس الدار في صندوقها، لكن رزم الفلوس المفرودة في حجرها، كانت أكبر من أي تصور له عن النقود.
حياته من لحظة ضياع الأرض وهو صبي حتى هذه اللحظة، قضاها على الطرقات، وفي الطين، يروض الأرض ويفهم طباعها ويتمتع بجلسات الرجال على مدار السواقي، ومتابعة نمو المحاصيل، لم يكن للنقود وجود في هذه الحياة. الشيخ يقوم بكل شيء: يشتري الملابس في المواسم والأعياد، ويتدبر مصاريف الأرض والدار. حلقة دوران النقود لم يكن "علي سليم" أحد أطرافها. حتى في الصور والأخيلة، النقود بالنسبة له سيارة مثل سيارة الحاج قرشي وبيوت كبيرة وسرايات وخدم وناس يجلسون في الشمس بلا عمل. رؤيته لهذا العدد الهائل من النقود الورقية في حجر زوجته، تفوح منها رائحة غريبة خليط من الزفارة والعطن، شوشت أفكاره أكثر مما هي مشوشة، ولكونه لم يمسك في يده غير نقود قليلة، أكثرها كان الجنيه الذي يتسلمه في يده في أثناء الاستعداد للسفر لمولد السيد البدوي، فقد بدا هذا العدد الهائل من النقود خرافيًا. استمر ينظر إلى زوجته صامتًا، مندهشًا من أن امرأته تتعامل بألفة مع هذا العدد غير المألوف من النقود، وبدت في لمحة كأنها شيطانة ترعى عفاريت صغيرة. رقد على السرير لا يرغب في لمسها. ظل جامداً في مكانه، يشعر بوشيش في أذنيه، ورائحة النقود لا تفارقه. في الكثير من المرات بعد ذلك، عندما يمسك جنيهًا سيشمه، حتى يتبين حقيقة الرائحة التي شمها في تلك الليلة.
ازدادت صورة الشيخ في ذهنه الغازًا. إنه شخص غريب، حتى يستطيع الحصول على هذا العدد من النقود. من أين جاء بها؟ من المحاصيل!! وبدا له الفرق شاسعًا بين عالمه وعالم عمه. فالمحاصيل بالنسبة له لا يمكن أن توحي بلفظ النقود، أو صورتها. إنها "غلة"، يعرف كل مراحل نموها: قطن، أرز، ذرة، بصل، ولا يمكن النظر إليها على أنها نقود. بدا غريباً أن يتمكن إنسان من امتلاك هذا القدر الهائل من النقود. وإذا امتلكه فماذا يصنع به؟ في قرارة نفسه، لم يكن من سبيل لصرف النقود بعد تدبير شؤون الحياة إلا في شراء الأرض. وظهرت له هذه الأوراق، الملفوفة والمربوطة بقطع من القماش، لها قدرة غريبة على التحول لتصبح أراضيَ واسعة. كل ما عاش من أجله يمكن تخزينه ببساطة في رزمة نقود. انزعاجه، جاء من أن الأرض التي احتلت قيمة سامية في حياته، واعتبرها أغلى شيء ومصدر الفخر والفرح، يمكن أن تنكمش وتسكن النقود، وأن النقود أوسع من الأرض التي تحتل قاعة واحدة في رحابة النقود التي لا تحد، وبقيت دهشته الساذجة مؤلمة، وظل غير قادر على التصديق: الأرض الواسعة التي تخلق المحاصيل يمكن أن تخزن في جوف أوراق النقود، وأن النقود نفسها، التي تشبه الحاوي، محبوسة في صندوق خشي، مفتاحه مع زوجته. غرابة هذا الوضع أرهقته، وظل ينقلب طول الليل شاعرًا بأنه يتعرف على عالم غريب وأنه كان في غيبوبة طول الوقت.

***

قالوا إن "علي سليم" تعبان.
بقي في غرفته العلوية وحيدا فترة الصبح، يشعر بضجر العيش في الدار في هذا الوقت من النهار. في هذا اليوم فكر لأول مرة بوضوح في الاقتراح الذي اقترحته أخته، بدا له أن الأوان قد آن ليأخذ دارًا

وحده ويأخذ أرضه وينعزل بحياته. ترك الفكرة تأخذ مساراتها، كحل لازم لإنقاذ حياته. تأكد إحساسه بأنه يرغب في حياة جديدة. أراد أرضًا يملكها فعلًا، ليست روحاً متلونة كالحرباء، مثل أرض "سليم"، أرضا يزرعها، يثق فيها، بعيدة عن أي صورة عدا كونها مكاناً للعيش، وإنتاج محاصيل. أيقن في عزلته، أن هذه هي الطريقة التي يمكن أن يستعيد بها حسه بالأرض والحياة.

بقي علي سليم في غرفته عدة أيام. الشيخ يخمن ما حدث له. كل يوم في أثناء العشاء يرسل إليه كي ينزل يتعشى مع الرجال. يرد بأنه تعبان، فتحمل له زوجته آخر الليل طعامًا لا يأكل منه غير لقيمات صغيرة.

في الصباح عندما سرحت البهائم والرجال، وخلت الدار، استند الشيخ على عصاه، وتوجه إلى مقعد "علي" فوق سطح الدار. وقف بجسده المتين، وقال بصوت عاتب:

"متى تتوقف عن لعب العيال وتقوم لتسرح تشوف أرضك؟"

اعتدل "علي" من رقدته فوق السرير قائلا:

"تعبان".

لم تطاوعه نفسه أن ينطق "يابا" التي ظلت تتردد على لسانه سنوات طويلة. جلس الشيخ على حصيرة بجوار السرير ذي العمدان. اضطر "علي" لأن ينزل ليجلس بجواره.

رفع الشيخ وجهه وقال بجدية:

"ماذا تريد يا ابن أخي؟"

جدية الشيخ نصل سكين. نظرة عينيه مركزة واضحة تحمل تصميمًا. إنها النظرة القديمة نفسها التي لا ترتجف، ثابتة، لكنها في هذا الصباح خالية من أي قسوة، بها حس أبوي تسري فيه مودة يمكن إدراكها دون وسائط، تطبع رنين الكلمات وصفحة الوجه وتشابك الأصابع.

قال الشيخ:

"تريد أن تنعزل في عيشة خاصة؟"

الكلمة هزت "علي"، وأسقطت عنه، في لحظة، كل رخاوته، كل الهموم والهواجس التي علقت به ثلاثة أيام. كان للجملة رنين شاذ وجاف، يشبه الموت. تفكير "علي سليم"، طوال ثلاثة أيام، أن يستقل بحياته، مختلف عن ظهور هذا التفكير بوضوح الآن في كلمات الشيخ. الفكرة برّاقة في أثناء وحدته. الكلمات التي نطقها عمه بصراحة واجهت "علي" بالحافة التي يقف عليها. أخافته صراحة الشيخ وحيّرته:

"شوف يا ابني، لن أجبرك على العيش في الدار".

صمت قليلاً كعادته:

"حدد ما تريد، وسأنفذه لك بالحرف".

رفع يده:

"بشرط".

ونظر في عيني ابن أخيه مباشرة:

"أن تكون رجلاً كما كنت دائما".

في ضوء كلمات الشيخ، بدا تفكيره في "العزلة" صبيانيًا، وجاء ذهوله من أن الشيخ يري ما بداخله. لم يكن قد باح لمخلوق بهواجس قلبه. فكيف عرف عمه ما في نفسه؟ صراحة الشيخ جعلته مكشوفاً أمام نفسه، إنه يخون الأساس الذي قامت عليه الحياة هنا منذ القدم. إحساس خافت بالضعف، لم يجربه قط، أمسك به، وجعله يدرك أنه كان مريضًا حقًا طوال ثلاثة أيام لأنه أعطى هذه الأفكار فرصة النمو.

في اليوم التالي نزل إلى وسط الدار، وسرح مع الرجال إلى الغيط. كان عليلاً أصفر الوجه. هزمته ثلاثة أيام من الرقاد في الدار، لرجل خلق للعمل في الغيط. لكنه، مرة أخرى، لم يجد لديه رغبة في العمل. عاد أكثر تهاونًا.
مر موسم القطن، وزرع القطن الجديد في الشتاء.

***

تلاشى تأثير حديثه مع عمه بمرور الوقت. الكلمات التي سمعها في ذلك اليوم، أصبحت قديمة. عاد الحنين إلى أن ينفصل بحياته مؤلماً لأنه أدرك أنه فقده إلى الأبد. أغلق دونه الأبواب في اليوم الذي تحدث فيه مع عمه، ولم يقدر أن يطلب ما يتمني، واعتبره خيانة. كل يوم يزيد اقتناعاً بأنه خسر ما تمناه، ولن يقدر على طلبه مرة أخرى، لأن الاتفاق الصامت بينهما في ذلك اليوم، هو عقد غير مكتوب لا يمكن الرجوع فيه. "علي سليم" بالذات، من المستحيل أن ينقض تعهداً لم يتكلم فيه كلمة واحدة، مهما تراءت حياته الخاصة لامعة خلف أحزانه الراهنة.
أصبح أكثر نزقًا، يهفو إلى أي خناقة. يعارك الرجال في الغيط، وبدأ الجيران يشكون للشيخ من غضبه غير المبرر، ورغبته في فرق حدود الأرض بعد كل محصول، وأن يروي أرضه قبل الناس جميعًا، وجرب بعضهم لمسة من عنفه الذي تحول إلى أذى صريح، عندما تعمد أن يغرق أرض الجيران لأنهم سبقوه في الري. كان يعامل الأنفار بقسوة كبيرة، فتتعب "نبية" حتى تجد أنفارًا. الشباب والبنات الذين يُعرض عليهم العمل في أرض سليم يسألون: "أبويا على هيكون موجود؟"، وعلى أساس الإجابة يقبلون العمل أو يرفضونه.
ذات ليلة، كان راقدًا على السرير. قال لزوجته بصوت خافت:
"هاتي القلة".
قالت وهي تخلع ملابسها بجوار الدولاب وجلباب النوم في يدها:
"عندك في الشباك".
كانت القلة بجواره. السرير جنب الشباك، ويمكن أن يمد يده من مكانه ويصل إليها، ويدها كانت مشغولة. انطلق جسده الثقيل من فوق السرير، وقال بصوت أجش، مليء بالغضب:
"أما أقول هاتي القلة، تجيبي القلة".
أمسكها من طوق جلبابها، خفيفة في يده، يرفعها عن الأرض، يكاد يخنقها، وهي تنظر إليه مذعورة. ترددت صرخاتها، في ليل الدار. جرت الست خديجة إلى غرفته. صرخات "نبية" لا تتوقف، لها وقع جنائزي، آتية من أحلام مخيفة، بها خشونة الحس الداكن الذي يصاحب الفواجع.
دخلت الست خديجة الغرفة، ودفعته بعيداً. وأخذت "نبية" إلى الركن وأحاطتها بجسدها.
صوته الثقيل الخشن تردد خلفها:
"المرة بنت المرة، تروح دار أهلها حالًا".
استدارت الست خديجة:
"اهدا بالله يا علي، اهدا يا ابني".
"اسمعي يا امرأة عمي، أنا قلت كلمة، أنا حر في مراتي".
إن كان قد كف عن أن يخاطب الشيخ بلفظ "الأب"، فإنها المرة الأولى التي ينادي فيها الست خديجة بـ "امرأة عمي". لأول مرة يمحو الغلالة الوهمية من القرابة ويعيد العلاقات إلى أصلها.
أدركت أنه جاد، وأن الوحوش في جسده حية:

"طيب يا ابني، اهدأ والصباح رباح".
"لا صباح ولا رباح، تروح دار أهلها حالًا".
لمت الست "خديجة" هدوم "نبية" في صرة وأخذتها معها. ألبستها جلباباً أسمر فوق جلباب النوم، وقادتها خارج الغرفة ترتعش. عيناها سوداوان، لا أثر فيهما للدموع، أضاءتا من الرعب، وذقنها ترتعش، ومنديل رأسها محلول تاركا شعرها الطويل الأسود مفرودًا خلف ظهرها. أول مرة يراها أطفال الدار بدون طرحة ولا منديل الرأس فبدت غريبة، ورعبها أرعبهم. غطتها الست خديجة بالطرحة. وضعت على رأسها اللمبة الصفيح وقادتها إلى دار أهلها.
في الليالي التالية أصبح صمت "علي" مخيفًا. لم يعرف أحد ما حدث له. ظل شهرًا يرفض رجوع زوجته إلى الدار، وعندما ذهب الشيخ بنفسه وأعادها، كان قد فقد إحساسه تجاهها. بل تسللت إلى قلبه كراهية لم يمحها شيء، انتشر الهمس بها. كانت رائحتها العطرة مثل البخور وجسدها الأملس لا يحركان في أعماقه مشاعر. لم تعد تخصه، وظنت "نبية" أن نساء الدار عملوا لها عملًا حتى يكرهها زوجها.

***

في خريف ذلك العام وفي أثناء تخزين الذرة، فوق سطوح الدار، كان المحصول وفيراً، فانهار سقف الزريبة. هب "علي سليم" ومعه بعض الرجال، وعروا السقف من طبقات قديمة من القش وعروق الخشب، وأعادوا تسقيفها بجذع نخلة وفروع الجازورين وشبكة من البوص. وقفته في ذلك اليوم وسط الرجال أعادت إلى الأذهان صورته القديمة التي تشبه صورة السبع المرسوم على ذراع زوج أخته، لكنه في اليوم التالي سقط مريضًا. قالوا إن جسده كان ساخنًا وهواء الخريف البارد سكن بدنه. أول مرة في حياته يرقد في سريره بسبب دور برد. أول مرة تقريباً يمرض، مرضاً حقيقيًا، وليس رغبة في اعتزال العمل والدار. طول عمره يفكر أن المرض أمر هين والجسم يداوي نفسه، ما دامت الأوجاع محتملة. الراحة وشرب الحلبة واليانسون تساعد على الشفاء، وكرجل مخلوق للعمل تحامل على نفسه. قام وسرح إلى الغيط، يأبى أن يكون في نظر نفسه مريضا. تابع بذر البرسيم، والقمح. تحامل على نفسه يوماً بعد يوم. يمشي في الأرض الخالية من القطن والأرز، تستعد لمحصول جديد، عفية تحت قدميه الحافيتين، يمشي طويلاً دون أن يعبأ بقدميه تدميهما جذور القطن الذي قُطعت أشجاره أو بقايا جذور الأرز، غير مصدق أنه مريض، وأن جسده العفي لم يعد يقوى على حمله.
ذات يوم كان يمشي في أرض النخل، شعر بالماء محصوراً في مثانته. رفع الجلباب، وقرفص ليتبول. حرقان في مجرى البول، دفعه إلى أن يتابع مكان تجمع الماء على الأرض. تماسك وهو يرى السائل الذي يأتي من أحشائه دماً خالصًا، كدم الذبيحة، لا عكار فيه، خاليًا من أي أثر لماء البول. ظل يحدق في الرغاوي وهي تتلاشى في جوف الأرض، ويفكر أن دمه تشربه الأرض مثلما تشرب ماء الري، ثم قام. دكّك سرواله ومضى يتابع الأماكن العالية التي لا يصلها الماء، لكي يأمر الرجال بتسويتها، ترافقه صورة غريبة أن الأرض شربت دمه، وأنها تتغذى عليه.
في المغرب رفض أن يركب الحمار الذي أعده له زوج أخته، وقال إنه سوف يمر على أرض البحري. أراد أن يختلي بنفسه، مدركًا أن سكينا قد انغرس في كبده وأنه سوف ينزف دمًا كلما أراد أن يبول. وقد صدق حدسه، كلما بال ينزل منه الدم بدلاً من البول، ولم تطاوعه روحه أن يخبر أحداً حتى أخته سعدة، إلى أن سقط ذات يوم في الغيط، ولحسن الحظ كان عمه موجودًا في الدار، في أثناء دخول الرجال يسندونه فوق الحمار. هب الشيخ، وأرسل أحد الرجال ليحضر سيارة الحاج قرشي وسافر به

إلى المستشفى الميري في طنطا.

***

قضى علي سليم في المستشفى ثلاثة أسابيع. انتقلت الست خديجة إلى شقة شارع المؤيد التي يسكنها "نعيم"، ومعها "نبية". توقفت الحياة في الدار تقريباً. أصبح تسيير الأعمال من نصيب "عبد الله"، فالشيخ لا يرجع من طنطا إلا للأعمال المهمة، في الجمعية أو الدار، ويقضي الوقت في زيارة الأطباء ومتابعة اتصالاته بالأقارب والمعارف.
أهل الدار يسمعون الأخبار عن كبد "علي سليم" المهري، وعن صحته التي تسوء. كان من الصعب تصديق الصورة المنقولة عن ذبوله وتلاشيه في فرشته في عنبر المستشفى، ولا تتمكن هذه الصورة من محو صورته المهيبة إلا عندما يزوره أحدهم. كل من زاره في عنبر واسع في الدور الأرضي في المستشفى على سرير بجوار نافذة يدخل منها ضوء شحيح، تعرّف على وجه آخر لا يمت بصلة إلى وجه "علي سليم".
الست خديجة ونبية تنزلان في الفجر، وتأخذان طريقهما على الأقدام من شقة شارع المؤيد بالقرب من ميدان كيتشنر حتى بوابة المستشفى الميري في نهاية شارع البحر. الدنيا خالية، والطريق طويل، ولمبات الطريق الصفراء تجعل رحلتهما في الفجر أكثر كآبة. تسرعان إليه قبل أن يطلع النهار، يقضيان معه النهار بطوله ويتركانه في الليل وحده.
"علي سليم" الذي لم ينم ليلة واحدة خارج داره، أصبح منظره في عنبر المرضى، في هذا الليل المشبع برائحة الأدوية والإضاءة الشحيحة والأنات، يقطّع قلوبهم. كل ما يقال عن المستشفى ورعبه لا يمكن فهمه إلا عندما يعاينه المرء. العنابر واسعة تسكنها ظلال يطلقها مصباح وحيد منبر الضوء. أسرّة يرقد عليها أشباح بشر. رائحة عطنة تهب مع الهواء القادم من الشبابيك. أنات خافتة لمرضى يستعدون لمغادرة الحياة تقبض القلب. الغيطان بليلها الثقيل على الروح أكثر رحمة من ليل المستشفى الذي يترك في الجسد قشعريرة باردة، مخيفة.
تقول الست خديجة:
"ألم تنم يا "علي"؟"
يجيبها بصوت خافت:
"من أين أجيء بالنوم يا أمه".
تتأكد الست خديجة من أنه خائف، وهي تجلس بجواره على طرف السرير، وظلت متيقنة حتى آخر لحظة من حياتها، من أن وجوده في المستشفى قضي عليه. تتذكره وهو يستقبلها في الفجر بلوم:
"اتأخرت يا أمه".
عاد يناديها بأمه وهو على فراش موته، مما جعل موته ذبحاً على الحي مثل موت طفليها الصغيرين اللذين كان يكبر أولهما بخمسة أعوام فقط. بطولة "علي سليم" هزمتها الممرات المظلمة والعنابر والأدوية والأغراب، الذين تعاملوا معه على أنه "لا أحد". أراد أن يقول لهم أنا "علي سليم"، أرجل رجال البلد، لكنه كان واحداً من عدد كبير من مرضي، بلا قيمة، ربما كانت لهم الصورة نفسها عن أنفسهم.
المستشفى مكان يشبه الجحيم لروح مثل روح "علي سليم". تلك الفترة تكديس لكل الكوابيس التي عاشها، وربما هي التي أسرعت بموته كما تظن الست خديجة التي ظلت نادمة لأنها لم تضغط على الشيخ، حتى يعيده إلى داره ليموت في فرشته. تبكي كلما تذكرت لهفة انتظاره لهما في الفجر وتحمر

عيناها:
"يا كبدي يا ابني. قال لي خديني أموت في داري يا أمه".
لقد أدركت ألمه ومحنته، لكن الشيخ كان بعيداً يقابل الأطباء ويكلم مدير المستشفى ويتصل بوكيل وزارة الصحة. تبكي بحسرة لأنها أدركت أن دواءه الوحيد كان أن يعود إلى الدار، ولو سمعوا الكلام وأعادوه لربما شفاه المولى، من يدري؟ كيف لم يفهموا أنه لا يتحمل ليل المستشفى.
تستعيذ الست خديجة من الشيطان، وتلم جرحها، وتقول:
"مقدر ومكتوب".
ظلت ذكراه قائمة، ويمكن القول إنه كان أكثر حضوراً بعد رحيله. يحكون حكاياته كأنهم يعيدونه إلى الحياة، يتذكرون روحه الأبية عندما كان فتى ورفض أن تأخذ جدته جنيها من سعيد بيه، ويوم زواجه عندما كان شاباً مشرقاً وعفيًا يضع لاسة من الحرير على كتفه، وأيام رعايته للدار، يمصمصون الشفاه، مندهشين من أن حضوره قد تبدد. تقول الست خديجة: "تدابير لا يعرفها غير المولى. خطوات ومحسوبة علينا. ربنا ينجينا من شرهم". مرة أخرى يسألها أحفادها: "من هم يا جدتي؟" تقول بتصميم: "من لا اسم لهم". فيبتعدون وهم يخبئون ضحكهم في أكفهم.

(8)
تَحَمّل الألم

"ذات يوم كنت أقيس الأرض في بلد بعيد. أفصل بين عائلتين بينهما قرابة وعداوة، وفي غمرة العمل، شعرت بلدغة في أعلى ذراعي اليسرى، اشعلَت النار في بدني. كنا قريبين من الصحراء، وقلت لا بد انه عقرب تسلل تحت جلبابي، وإنني هالك لا محالة. اجلس وسط الرجال، ينظرون إليَّ صامتين مترقبين. عليّ ان اكون يقظاً. في القرى القريبة من الصحراء، السلاح يعمل على اهون الأسباب، والناس تعتبر شبر الأرض هو كرامتها، يتماهون مع البهائم والأرض والدور، وتطير الرقاب. الألم يسري في بدني. مددت يدي وتحسست موضع الألم، وشعرت بدبور يرفرف تحت الجلباب. حمداً للّه لم يكن عقرباً. فعصته بيدي، وتركت الجسد يتصرف مع الألم واجبرت نفسي على الانغمار في العمل. واصلت شغلي بدقة وركزت تفكيري. بعد أن أنهيت عملي كانت ذراعي قد تورمت، ورقبتي. داواني رجل عجوز بزيوت الصحراء، واستخرج ابرة الدبور من جسدي، لكني لم اعد اشعر بالألم".

"سأقول لك، هناك طرق لتحمل الألم أحسنها أن تتركه يحدث، ولا تعبأ به. هذه أبسط وأحسن وسيلة. لا تقاومه، حاول أن تجد وسيلة لتتعلم تحمله، هذا اساسي. لا أحد يمكنه أن يعيش بدون ان يتدرب على تحمل الألم، الحياة منحة ومحنة، كيف يمكنك أن تشق طريقك فيها؟ لا شيء يمكنه أن يساعدك قدر معرفتك بوسائل، تبتكرها بنفسك، لتحمل الألم. مثلاً فكر دائماً للأمام، التفكير للوراء ضروري، من أجل الفهم والتعلم، أما الأساس فهو السؤال: ماذا على أن أفعل الآن؟ فكر في شيء يمكنه أن يخلصك ويدفع الحياة إلى الأمام. كل ما عليك ان تداوي جراحك، تتحمل أكبر وقت ممكن، وكن متأكدا أن الألم سوف يمر، هذا التأكد يجعله يمضي، لا تخضع له ولا تتركه يأكلك، قف أمامه بصبر، واعرف أنه أضعف منك".

"لا حياة خالية من ألم وأمل، يخرج أحدهما من الآخر. احتمل قدر استطاعتك هو الطريق إلى الأمل، وعندما يستبد بك الأمل والتلهف، اعرف أن في نهايته ألماً، استعد له وأعد روحك لتحمله، هل رأيت شخصاً لم تلمسه غوائل الزمن؟ لا يوجد من هو أسعد من الدواب، أما الإنسان فشقي بقلبه وعقله، لا ينجيه إلا قدرته على تحمل الألم. هذا دربه".

"فاهم؟ الإنسان شقي بنفسه، بعقله وروحه ورفاقه. طور قدرتك على تحمل الألم، إن حدقت في عينيه غلبك، تحايل عليه، اتركه جالسًا في المندرة مثل ضيف رذل لا تقدم له الضيافة حتى ينصرف من تلقاء نفسه. أما الأمل فهو النور الضعيف الذي تعيش به. طول ما قلبك مخلص سيظل يشع بالأمل. الحياة هي الأمل الذي تخترعه. اخترعه وعش به. أنا الآن على سفر، معي زادي من الأمل، سوف أرحل إليهم هناك، من طاردوني في احلامي، حتى تلك الهوة التي يخاف الناس من أن ينزلوا إليها، جدك يبتكر طريقته في تخطيها، وعنده أمل في لقيا أهله. اخترعت هذا الأمل حتى أجعل الموت سهلًا، سوف تصل في يوم الأيام إلى طرقك الخاصة".

"سوف تعرف، وتتعلم".

"اسمع؟"

"العصر يؤذن؟"

في بداية عام 1967 مات "علي سليم". ظلت الدار فترة لا يسمع فيها غير صوت اجترار البهائم وصوت عصافير في قاعة التبن، وتمتمات بعيدة مجهولة المصدر. أما أصوات البشر فكانت حشرجة.

الصمت استقر كفضاء لحركتهم وأعمالهم. عندما ينطق أحدهم يشعر بصوته غليظ النبرة، خشنًا، يرتد مباشرة داخل الفم. نوع من الشرود يسري في الجو، وعدم تصديق تقشعر له الأبدان. الوجوه جهمة، الجلابيب تخفق في أثناء السير. لو أطل المرء إلى أعماقهم، فسيرى أعشاب الأمنيات تذبل، والأحجار الصلبة لرغبة الحياة راقدة تتململ في الطين، والذكريات تهيم مثل حشرات تطير في فراغ، والآلام غائرة على شكل أخاديد، ويغطي كل هذا لون المساء.

ينظر الشيخ حوله حائرا. ضاع "علي سليم" ابن أخيه، سنده في الحياة، وتجلى إحساسه بالغبن؛ فرغم كل ما أنجز، رغم حظوته ومكانته في البلد وأرضه وماله، رأى حشداً من الشرور، يتربص به، ضغينة موجهة إليه، مصائب صغيرة تتسلل، وقد صدق حدسه؛ فلم تمر عدة شهور إلا وجاءت أخبار انسحاب الجيش من سيناء وهزيمة البلاد صاعقة، عمقت الذهول، وكشفت الحس الكابوسي لذلك العام.

لم ينته الأمر عند ذلك. في الصيف، انهار محصول القطن، ليس في أرضه فحسب بل في البلد كلها وحمّله الناس المسؤولية. يرون دود القطن ينسل من الغيطان إلى الطرقات، ويترك أخاديد على تراب الطرق الضيقة، يتذكرونه، ويهمسون: "منك لله يا شيخ عبد الرحمن يا ابن سليم"، أما هو فقد كان يتساءل: هل المبيدات التي تسلمها الحكومة مغشوشة، أم أن البلد كلها أصابتها اللعنة؟ رائحة القطن المصاب بالدودة تهل على البلد عطنة في زمتة الظهرية، لعنة ملفوفة في صهد الشمس. اكتملت الدائرة في نهاية العام عندما استُدعي "نعيم" ابنه الصغير إلى الجيش. لم يهنأ الشاب بتخرجه من معهد المعلمين، بعد سنوات من النفور والسرمحة، والتمرد، فعرف الشيخ أن الكارثة تحدق به.

أمر أن يجهزوا له اللمبة نمرة عشرة، ويضعوها في المندرة، حتى ينتهي من صلاة العشاء، وعندما دخلت فادية بنت علي سليم الكبيرة، نظر إليها بدهشة، وأمرها أن تعيدها إلى وسط الدار، وجلس في الظلام، والأوراق التي ينوي فحصها مفرودة على المنضدة.

البلد نائمة. بعض الكلاب يتردد نباحها بعيداً والريح تحف بالحيطان.

يجلس في المندرة وقتًا طويلًا، يريد أن يكتشف الخطوات السرية للموت. التسلل الذي لا تشعر به، لكنه موجود في أشياء صغيرة: في دودة القطن، والجلوس على الساقية، وجمع النقود. الموت شبح يتخفى في التفاصيل التي نظنها الحياة. لم يعبأ بأقاويل الناس، وحديثهم عن المبيدات المغشوشة، لم يعبأ بشيء، كان يعرف. الخيانة من هناك، من بعيد، من الرؤوس هناك في مصر، هو يقف بنفسه على تسلم وتسليم المبيدات، ويدفع برجاله لكي يحافظوا على المقادير التي تُرش بها الغيطان، ومع ذلك غمرت الدودة محصول القطن، فأدرك أنه لا يمكن أن يأمن أبدًا، الموت مضفور في الحياة كأنه ظلها.

***

أخبرت الست خديجة، ذات ليلة، "عبد الله" ابنها الكبير بأن يعد نفسه لبيع الجمل. نظر إليها بذهول وتوجه إلى غرفته دون أن ينطق. بعد موت "علي سليم" كان لا بد من اتخاذ تدابير جديدة، يعرف "عبد الله" أن صمت أبيه وعزلته لن يمرا على خير. بات ليلته مسهداً، سوف يهبط من فوق ظهر الجمل لينغرس في الطين.

الفلاحة تحتاج إلى صبر: الحرث والبذر ورعاية المحصول، شق القنوات ورفع الطين على الحدود بين الأراضي، يظل الإنسان محني الظهر طول النهار ينقي العفش من الزرع أو يطارد جذور البوص والنجيل في أخاديدها العميقة، يحتاج العمل في الأرض إلى روح صبور، لا يصلح له شخص هوائي مثله، قصير النفس لا يطيق العمل فترة طويلة. حركة الجمال في الطرقات مناسبة له. تحمل المحاصيل من الأرض إلى الأجران وتحمل السباخ والتقاوي إلى الأرض، هذا الإيقاع يناسبه. لم يكن عنده ما

يربطه بمساحة الأرض التي أحبها "علي سليم" كأنها امرأة، وعرف أن حياة ابن عمه أمّنت له العيش كما يريد وسوف يعيده موته إلى الأرض.
وبعد المغرب قطع الطريق إلى بيت "فاطمة" اخته شارداً عما حوله. كانت قد حلبت البهائم وتجلس على حصيرة في وسط الدار بعد أنِ مضى زوجها لصلاة العشاء. أفسحت له مكانا، فجلس صامتًا. ربتت على كتفه وابتسمت له البسمة المطْمَئنة، علامة التفاهم الصامت بينهما.
قال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:
"لو بعنا الجمل فلن أتمكن من العيش".
ضحكت قائلة:
"سوف تعيش أحسن من الأول".
قال بضيق:
"لا أنفع للفلاحة".
قالت وهي تقرب وجهها من وجهه وتنظر في عينيه:
"كان زمان يا "شحاتة". أنت الآن أبو الرجال".
تحولُ ضيقه إلى غضب:
"جئتُ لتساعديني في التدبير".
ثم نظر برجاء إلى وجه أخته:
"بيع الجمل خسارة، سنحتاجه في المواسم".
بلع ريقه وأكمل:
"أنزل الأرض، ونؤجّر جمالاً يعمل عليه".
قالت نافدة الصبر:
"سوف أكلم الشيخ".
بعد عدة ليال قابلت عبد الله عائداً من الغيط. قالت وهي تسحب البقرة بعد أن سقتها من الترعة:
"أبوك له تدابيره، لا يوافق. يقول إن الأرض تحتاج عشرة رجال. الجمل سيكون عبئًا علينا، لم نعد في حاجة إليه".
قابل الخبر بصمت من فقدوا القدرة على النطق، وعندما رأته على هذا الحال من الغبن قالت:
"سوف أربط البقرة وأجيء لك في الدار".
وصل إلى الدار. كان الشيخ يجلس في المندرة. ناداه وأخبره بأنه يجب أن يعد نفسه لكي يسافر بالجمل فجر الاثنين إلى سوق طنطا لبيعه، ويصحب معه عم شهاب وعبده شمس. تلقى الخبر كأنه توقيع على عقد. حُسم الأمر.
مربط الجمل في الساحة الواسعة بين الزريبة وقاعة التبن. يجلس عبد الله على جوال يلف أعواد البرسيم على شكل لقمة يضعها في شدق الجمل الصائم. جلست فاطمة بجواره:
"من يعرف؟ يمكن أحسن لك".
يلقم الجمل البرسيم:
"تستريح قليلا من شغل الجمال".
كالعادة في لحظات الحزن يفقد القدرة على الكلام. "فاطمة" تعرف ذلك، لكن هذه المرة أشعرها حزنه الثقيل بأنه يعيش في دنيا ثانية، ولا يشعر بكارثة الدار، فقالت بجديتها التي تشبه حسم الشيخ:
"المصيبة أكبر من مزاجك، المصيبة أكبر بكثير".

لأول مرة تحمل نظرته الإحساس بأنه يسمعها. أكملت "فاطمة" كلامها، تحاول أن تعيده إلى عقله، وتوقف أفكاره المجنونة التي تلخصت طول عمره بأن يركب الجمل ويمشي من بلاد الله لخلق الله، يحمل المحاصيل ويعيش براحته بعيداً عن تعسف أبيه.
قالت فاطمة:
"يا عبد الله اصح، أبوك أصبح وحيداً".
ولما لم يرد عليها، نفضت شبشبها وقامت قائلة:
"أنت حر. تفكر في نفسك وأبوك ينهد؟ أنت أعمى؟"
غادرت "فاطمة" الدار، وظل وحده مع الجمل، يعيش لآخر مرة تلك الصلة العميقة مع جمله. اجتاح قلبه حزن لا يعرفه إلا في لحظات طلوع القمر غائمًا كبيراً غامضاً في غيطان الأرز التي تستعد للحصاد، وقضى الليلة يتقلب تسيطر عليه صورة أبيه الذي يشبه جملًا برك وفقد قدرته على القيام.

***

استيقظ الشيخ من نومه وهو يقول بصوت مسموع:
"أين راح "علي" يا أولاد؟"
جلس في الفراش، وعرف أنه رأى مرة أخرى الحلم نفسه. "علي سليم" يلبس قميصًا من الدمور، ويسير مع مجموعة من الرجال ترتدي القمصان نفسها التي تستر الجزء العلوي من الجسد. صف طويل. ميز بينهم أباه وأخاه نعيم وجده محمد، في طريقهم إلى الحج، لكنهم تائهون على طرق فرعية بين غيطان قمح تمتد بلا نهاية. لا يعرفون كيف يواصلون رحلة الحج ولا كيف يعودون إلى بيوتهم.
الحلم مرهق للروح هذه المرة، وإن كان في مرات سابقة قد شعر بالونس، غير أنه عايش في ذلك الحلم حيرتهم على السكك كأنها حيرته. تولاه العجب. كيف يكون معنى الحلم قريبًا إلى هذه الدرجة، وبعيدًا كأنه طلسم. لام نفسه لأنه أهمل دراسته للأحلام. غرور فترات الصعود، إغواء الحياة. قال لنفسه وهو ينزل من فوق السرير، ويمر ببصره على مكونات الغرفة: الدولاب القديم والشماعة وكرسيين متهالكين من أعواد الخيزران.
كان ذلك في شتاء 1968. الآن أكمل خمسة وستين عاماً على وجه الأرض. كيف انقضى كل هذا الوقت؟ لم يفكر في مرور سنوات العمر، لكنه في ذلك اليوم، وصور أهله بقمصان الدمور على الطرقات عالقة بخواطره، شعر بمعنى غامض لمرور الأيام ودبيب الزمن، ولم يتمكن من ربط الأمر بصور الحلم.
فتح باب الدار الكبير كالمعتاد. النور ما زال يحمل أثر الظلام ولم تولد الدنيا بعد. صلى الصبح حاضراً وجلس في المندرة. لا يفضل لحظات الوهن في العزيمة، لكنه حزين لأنه أهمل تفسير الأحلام، وترك مشاغل الحياة تغمره. الحياة غواية. على الأقل انقضى العام الذي لم يحبه. انقضى عام الكوارث كما أسماه، وهو يبحث عن مكان ينطلق منه مرة أخرى، ويفلت من همومه.
انتظر حتى دبت الحياة في الدار، وعم النور. الشتاء فترة رخية بلا عمل تقريباً. البرسيم في الأرض، والبهائم تحتاج من يحش لها فحسب. القمح ما زال أمامه فترة حتى ينضج، وزراعة القطن سوف تتم الأسبوع القادم، وقبل عدة أيام أرسل رجالاً لشراء زريعة البصل من بلد قريبة، وتمت زراعته. لا شيء غير القلق الغامض والرغبة في أن يجد ما يحرر الدار من أحزانها.
في الضحى أرسل أحد أحفاده، إلى دار الست كوثر، يطلب كتاب تفسير الأحلام. ردت المرسال قائلة إنها سوف تحمل الكتاب بنفسها. في العصر دخلت بقامتها الطويلة وعباءتها السوداء التي تكشف عن جسد

ما زال فتيًا رغم العمر، مستقيمًا، بلا ترهلات، ورقبة طويلة ملفوفة بطرحة سمراء خفيفة. وجهها الأبيض منير وعيناها العسليتان الواسعتان تطل منهما المودة. تنتظرها عربة حنطور قديمة ظلت علامة وجودها في مكان ما. علامة على ما تبقى من عهود العز البائد، فلم يكن يملك مثل هذه العربة التي يجرها الحصان المكسوة بالقطيفة، غير الشيخ توفيق عمدة البلد.
دخلت المندرة وجلست بجوار الشيخ على الكنبة قائلة بعشم:
"وبعدين يا شيخ عبد الرحمن؟"
هذا يوم الضعف. لم يبك في حياته غير مرة واحدة، يوم دفن أخيه نعيم، وبعدها جف البكاء في أعماقه، ولم يجد يوم موت "علي سليم" دمعة واحدة. لم يجد في قلبه غير تلك النقمة الناشفة التي عاشها أيام نزع ملكية أرضه. بمجرد أن جلست الست كوثر بجانبه، شعر بأن البكاء يرجه. انتباهه للحظة الضعف، استدعى كامل طاقته وتدريبه الطويل على التحمل، حتى يتمكن من تلك الهزات التي أثارها الحنان. في هذه اللحظة عرف القوة القاهرة للبكاء، وكيف يجب أن يحترم، بعد ذلك، من يتمكن منهم.
وبذل جهداً كبيراً حتى استطاع تحويل رغبة البكاء إلى صور لمحطة قطار مهجورة وطرق خالية، وشمسية بيضاء يفردها على رأسه في حر يوم من أيام الصيف، وتشبث بصور الحلم والموتى تائهون على الطرقات، لكن الست كوثر أمسكت كفه بيديها الناعمتين. عادت مرة أخرى رغبة البكاء قوية، رافقتها نقمته على وهنه، فبددها بحزم واستعاد ما تبقى في ذهنه من صور الأهل، رغم ما سال في عمق روحه من حنان ومحبة حملتهما إليه نعومة الكفين.
قالت الست كوثر وهي تميل تجاهه، تحيط وجهه بعينين عسليتين ماهرتين في نقل المودة:
"مازلتَ هنا يا سيدي، مازلت حيّا يا شيخ عبد الرحمن، ويمكنك أن تعيد "على" رحمة الله عليه، برعاية أبنائه".
تبدد وهنه ورغبته في البكاء وصور أهله، عندما برقت، في أعقاب كلام الست كوثر، الفكرة التي كان يبحث عنها طول الأيام الماضية. تكاثفت التفاصيل السابقة كي تدفعها إلى الوجود. كانت تناوشه غامضة منذ يوم الموت، لكن لم يتعرف على ملامحها إلا في المناخ الطيب الذي تشيعه تلك المرأة. وُلدت في تلك الجلسة فكرة زواج "صالح" ابنه من "فادية" بنت "علي سليم" الكبيرة. ظهرت خفية تحت الونس. وجد نفسه يخلع كفه من بين كفي الست كوثر ويربت عليهما ويقول:
"أفضالك لا تنسى يا ست الكل".
تغضنت ملامحها بغضب متودد، وقالت:
"لا أريد أن أسمع هذا الكلام. أنت سيد العارفين من منا فضله على الآخر".
تنهدت:
"يا شيخ عبد الرحمن أنت سيدي وتاج رأسي".
"الله يحفظك يا ست".
تركت الست كوثر كتاب تفسير الأحلام، وفكرة تحولت إلى قرار صعب من قرارات دار سليم.

***

تخرج الشيخ "صالح سليم" من كلية أصول الدين وأخذ يعد رسالة علمية في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام. قضى عمره يتعلم في المدن، وعندما يرجع في إجازات قصيرة إلى داره، يرتدي جلباباً من جلابيب عبد الله، ويثير ذلك موجة من الضحك. الجلباب الفلاحي قصير عليه، يكشف الفارق بينه وبين أخيه في الطول والملامح، رغم اتفاقهما في طريقة المشي ونبرة الصوت. يظهر في ذلك الوقت الفارق

بين اللون النحاسي الذي صار إليه وجه عبد الله وبين وجه صالح الذي ما زال يحتفظ ببياض وجه الست خديجة. في كل زيارة يعيد إلى الأذهان ما كان يمكن أن يكون عليه الحال، لو استمر يعمل في الغيط. يكشف الجلباب الفارق الذي خلفه الزمن في الملامح والسمات ويذكّر أهل الدار بالجانب غير المتوقع الذي يعمل في سرية تحت جلد الحياة الرتيبة.
تغمر الدار حيوية في أثناء الزيارات المتباعدة لصالح القادم من مصر ونعيم القادم من طنطا، الأول بالجبة والقفطان والثاني بالبدلة الكاملة والكرافتة. الأول يعرف طريقه ويمضي في سبيل العلم، بعد أن أحرقت قفاه طفلاً شمس الغيطان، كما يقولون، والآخر يحب البنات وتحمله الست خديجة من زار إلى زار، لكي تخرج من قلبه حب الغجرية الذي هزمه، وبذلت كل ما استطاعت، لكي تنقذ ابنها الصغير من المجهول، إلى أن تخرج بصعوبة من معهد المعلمين ورحل إلى الإسماعيلية ليحارب الأعداء.
يبدو "صالح" في تلك الزيارات كطيف، ليس من نسيج الدار، وجهه الأبيض ونظارته الطبية وطريقته المتمهلة في الحديث، وصمته الزائد عن الحد، يوحي بأنه لم يعد واحداً منهم، عجنت طباعه بطباعهم وعاداته بعاداتهم، عكس نعيم الذي كان أول فرد في تلك العائلة يرتدي القميص والبنطلون، إلا أنهم يشعرون بأنه منهم. الشيخ صالح بعيد ناء، وجوده لم يتجسد إلا في ذلك اليوم الذي أخبرته أمه فيه بأن أباه قرر أن يزوجه فادية بنت علي سليم.
تحكي الست خديجة عن اللحظة التي أبلغته فيها خبر خطوبته بحزن كأنها لا تعرف ابنها، كأنها لم تلده من بطنها. كان يتمدد على سرير في المقعد العلوي. استقام جسده، وخلع نظارته وصمت. لم ينظر إلى وجهها، لم يقل لها: "ماذا أفعل يا أمه؟" كانت تنتظر منه كلمة يا "أمه" لكنه لم يقلها. تقول إنها لا تعرف أي شيء عن قلبه. طول الوقت في حضن الغربة والست كوثر. صمته وذهوله أربكاها فقد كانت تظن أن زواجه ببنت علي سليم، البنت التي ربتها على يدها، شيء طيب. لم تفهم سلوكه وعزز فكرها أنه طير شارد. لم يوجه إليها الكلام كأنها غير موجودة، نزل من فوق السرير، وارتدي الجبة والقفطان، وفي عز ليل الشتاء، غادر الدار.
لم يخرج من الباب الكبير فالشيخ يجلس مع ضيوفه، بل غادر من الباب السري لدار سليم، من الفجوة القائمة في سطح دار خالته سرية، ومضى من أمام سيدي عبد العال، إلى الطريق الزراعي. لم يتوجه إلى محطة القطار مباشرة بل ذهب إلى دار الست كوثر، وقابل نور الدين وهناك أفضى إلى الرجل وزوجته بهمومه، ولخص الأمر قائلا إن أباه يذبحه.
طمأنه نور الدين بأنه سيكلم الشيخ ويسوي الأمر معه، وهدأته الست كوثر، ولامته لأنه يقول مثل هذا الكلام على أبيه، الذي يرى أوسع منه. قالت له: "أنت ترى ما يخصك، أما هو فيرى المصلحة العامة". وذكرته: "ألم يأخذك من يدك إلى الكتاب بعد أن كنت تسرح إلى الغيط؟". حاولت أن تمتص غضب صالح على أبيه رغم أنها كانت غاضبة من الفكرة ومن تصرف الشيخ، وفي النهاية احتضنته وقلبت جبينه، وأرسلت عربة الحنطور لكي توصله إلى المحطة. يومها قال وهو يهبط سلالم الشرفة:
"للّه الأمر من قبل ومن بعد".

***

يدخل الشيخ الدار في المساء، يرفض أن يضيئوا له اللمبة. يظل جالسًا وحده في المندرة. تصله أصوات أهل الدار يقدمون العشاء، ويرفعونه، وهو في وحدته، ترافقه الظلمة الأليفة التي يحتاجها كلما رغب في التبصر. عادة قديمة من أيام ضياع الأرض. في الظلام تأخذ أفكاره مجرى آخر. تصله أصداء حقيقة جوانية تشوش عليها متطلبات الحياة وتبعده عنها. البصر والنور يحتاجهما المرء في تصريف

شؤون الحياة البرانية، ومراقبة سير الحوادث، لكنهما يبددان التركيز وقت الحاجة إلى الصلة بالجانب الآخر من النفس، وهو في أمس الحاجة أن يرى ما في الداخل، بعدما وصفت له الست كوثر بشفقة، منظر صالح وهو يركب الحنطور في طريقه إلى المحطة، ورجته أن يراجع نفسه، لأن القرار خطير، والولد يعد نفسه لمستقبل كبير.
تكذب النساء على من ينادي من خارج الدار: "يا عمة الحاجة أين أجد الشيخ؟" ويدعي الأولاد أنه مازال في الخارج، ويكون الشيخ فعلا غير موجود إلا في خواطره، متجولاً في طرقات لم يدخلها، حتى إنه يفوته الكثير مما يحدث في صحن الدار. يكون موغلا في البعد، مستغرقاً في تأملاته يدبر أمر الحياة التي تورط فيها وتورطت فيه. يقول للست كوثر: "الظلمة رفيقة بي، كثيراً ما أرشدتني، عرفتها أيام ضياع الأرض وفقد الأهل، وظلت رفيقتي في اللحظات الصعبة". تبرق عيناه ببريق حاد، مثل عين صقر، ويتسم وجهه باستغراق يقظ.
في تلك الليالي يسري وجل في الدار بأسرها، كل شخص يحاسب على صوته، الأصوات تهمس، الأقدام تدوس الأرض بوهن، وجلوس الشيخ في ظلمات المندرة يظل حيّا في أذهانهم يزيده مهابة ويمنحه ذلك الغموض الذي يسم كل من يتصل بالجانب السري من الحياة. ينتظرون خروجه بلا جدوى، يتركون له صينية العشاء، طبق الجبن وطبق الحليب، ورغيف الخبز الناشف، مغطاة بقطعة من القماش الأبيض، على المصطبة المواجهة لباب المندرة بجانبها المصباح الذي سوف يستعمله في صلاة الليل وفي الطريق إلى غرفة نومه. لا يقدر أحد على اختراق تلك العزلة غير نور الدين أو الست كوثر، أو الحاج قرشي رحمه الله.
بعد عدة أيام من تلك العزلة، دخل نور الدين الدار بعد العشاء. يعرف صاحبه، فلم يقتحم عليه خلوته ورفع صوته يطلب من "فادية" أن تضيء مصباحاً، ونادي من الخارج: "يا شيخ عبد الرحمن" لكي يعده لاستقباله، ووقف يتحدث قليلاً مع عبد الله. من داخل المندرة سمعوا الصوت اللين: "تعال يا نور". دخلت "فادية" بالمصباح وبصينية العشاء، لكي يأكلا لقمة قبل الحديث الذي ينتظر كل من في الدار نتيجته.
تابعوا الحديث العاصف. سمعوا صوت نور الدين الرخيم الذي يصدر من أنفه. الصوت الغليظ الممتلئ بالمخاط، وهو يصف الشاب الذي يعد نفسه لنيل الدكتوراه، وكيف أنه بهذا القرار يقطع عليه تركيزه، وأنه ما كان يجب أن يأخذ القرار وحده. الدنيا تغيرت، وسرت فيها روح جديدة: "يا شيخ عبد الرحمن هذا كان يحدث أيامنا، أما في الوقت الحالي فهذه الأمور لا تصح. ثم إن البنت ست الستات سوف يصلها نصيبها". سمعوا الشيخ يتكلم لكنهم لم يعرفوا ماذا قال. خمنوا رأيه من صوت نور الدين العالي، ومناقشته لصاحبه، وضربه أمثلة بابن فلان وبنت علان، وهو يحاول أن يثنيه عن قراره.
في تلك الليلة تحدد مصير صالح وفادية ونسل كامل سوف يأتي من تلك الزنجية.
خرج نور الدين من الغرفة غاضباً، يقول "لم تتغير يا عبد الرحمن، لم تتغير". جاءت الست خديجة من مكمنها عند الفرن وأسرعت وراء نور الدين خارج الدار. قال لها: "الشيخ مصر، مخه حجر، لا مفر. قلت له صراحة إن الولد يحب فتاة من مصر، أهلها طيبون، وهي متعلمة وبنت ناس أكابر. قال ببساطة يذهب ليتزوجها لكن عليه في البداية أني يتزوج بنت سليم. الشرع أباح أربعاً". مشي نور الدين يلم العباءة حول جسده النحيل الطويل.
ابتسمت الست كوثر عندما حكى لها نور الدين ما دار بينه وبين الشيخ. قالت: "ما يقدر أحد على المجادلة مثله. لن نتمكن منه". وطلبت من نور الدين أن يعيد عليها نص كلام الشيخ، ثم قالت: "لا بد أن تسافر مصر ونقنع الشيخ صالح". واكتسي وجهها بالهم على نحو مباغت.

اتصلت بمحمد قرشي وأبلغته أنها تريد السيارة بسائقها في مشوار إلى مصر. ركبت بجوار نور الدين وظلت طول الطريق صامتة. في القاهرة في شقة مصر القديمة في الطابق الثاني من عمارة حديثة، استقبلهما الشيخ صالح بجلباب بياقة من جلابيب طلاب الأزهر. جلسا في غرفة جلوس تتراكم على كنبتها الكتب والأوراق والجرائد. أحزنها منظره الشارد، واستحث فيها رغبة في تطييب خاطره. عرضت عليه الأمر بكامل تفاصيله. حاولت قدر ما يمكن أن تفهمه أن الشيخ له مَرام لا تخص "ذبحه" كما يقول، بقدر ما تخص تدبيره للحياة. حاولت أن تلين جانب صالح بسردها تاريًخ الشيخ، وحياده وتجرده من الأنانية، وأنه إن لم يكن مقتنعًا، فإنه على الأقل يمكنه أن يطيع والده، والشرع يوصيه بذلك. قال صالح بنبرته الهادئة:
"لكنه زواج يا عمتي، زواج، ولا رجوع عنه".
ابتسمت وذكرت بالنص الجملة التي قالها أبوه. وفكرت كيف أن الرجل الحصيف، يشدد الحصار بجملة واحدة، تظهر فيها كل الطرق مفتوحة، لكنها في الحقيقة مغلقة. في النهاية قالت له إنها ننتظر رده، وإن عليه أن يرعى بيته وعائلته مثلما رعى والده البيت والعائلة. غام وجه صالح وقال بصراحة:
"يعني عليّ أن أدفع ثمن تعليمي يا عمتي".
"رفعت رأسها بجدية، وقالت بحزم:
"هذا كلام لا يصح، والحرية لك، أنت كبير ومتعلم وموظف، يمكنك أن تتزوج من تحب. افعل ما يمليه عليك ضميرك".
وفي المساء عادت إلى البلد.
بعد عدة أيام رجع صالح. مر على دار الست كوثر في البداية. هذه المرة كان يلبس قميصًا وبنطلوناً، وبدا أنيقًا، ووسيماً بوجهه الأبيض ونظارته الطبية. جاء ليخبر الست كوثر بموافقته. قال لها إنه رغم ألمه وحسه بالغبن إلا أنه استخار الله وأدرك أنه لن يتمكن من العيش في سلام مع امرأة لم يخطبها له أبوه.

***

المظاهر الصاخبة التي سمح بها الشيخ في أثناء زواج "صالح" ظلت مضرب المثل لسنوات طويلة. أولاً جهز شقة شارع المؤيد الخالية بعد سفر نعيم إلى الجبهة. قالو إن شقة الشيخ صالح في طنطا تشبه القصر. صالة واسعة، جُرن، فيها أثاث يشبه أثاث القصور، رغم أنهم لم يروا أثاث القصور. لم يروا غير أثاث سراية سعيد بك، وهو بالنسبة لهم نموذج لأثاث أغنى البيوت. من وجه نظرهم أثاث شقة صالح يشبه أثاث السراية. عادت الست خديجة من طنطا فرحة، رغم أنها كانت برفقة الست كوثر. كانت منبهرة بهذه الأبهة التي سيعيش فيها ابنها.
يوم الفرح أقام الشيخ وليمة امتدت إلى منتصف الطريق. دعا إليها كل المعارف وأهل البلد وأرسل إلى من لم يسعه المكان نصيبه من الطعام والغلة. المدهش أنه كان معروفاً بحرصه في المصاريف، ولا يستسلم لهذه المظاهر بسهولة. يسخر منها ويعتبرها قلة عقل، وفنجرة كذابة. الست كوثر الوحيدة التي حدست ما في قلبه، وأشفقت عليه وقادته إلى داخل المندرة ونظرت إلى وجهه بشيء من الإثارة والحزن.
"يا شيخ أنا خائفة عليك".
ابتسم وربت على كتفها:
"يا بنت الناس الطيبين، لم تعرفي عبد الرحمن بن سليم".

وقال لأول مرة فخوراً بنفسه:
"هذه الكتف تحمل جبلًا ولا تكل".
يوم العرس لبست فادية طرحة بيضاء مخرمة من التلي تغطي وجهها، وفستاناً أبيض من فساتين بنات البندر تلمع على صدره حبات الخرز الملون. بدت غريبة في لبس المدينة، كأنما تم إبدال فتاة أخرى بها، وارتدي صالح بدلة كاملة بكرافتة وبدا أنيقًا بجسده الطويل ومختلفًا عن ذلك الشخص الذي يعود إلى الدار في رداء الأزهر. كان وسيمًا له استدارة وجه الست خديجة وعينان حزينتان تحت النظارة الطبية.

***

خريف عام 1968، عندما تزوج صالح من فادية، هو وقت انتصار الشيخ على همومه. كان -كما حدست الست كوثر- يرتق جرحًا خفياً. يعيد صلة بأهله هناك فيما وراء الحدود. لكن الأمور لم تسر في المسار المعد لها، فقد تملل "صالح" بعد عام واحد من السكن في طنطا. بعد ميلاد "رقية" طفلته الأولى، جاء إلى الدار برفقة الست كوثر وأغلقوا باب المندرة، ووصف لأبيه الإرهاق الذي يعانيه والتشتت وعدم قدرته على التحصيل ووقته المهدر بين وظيفته في وزارة الأوقاف وعمله على رسالته العلمية ورعاية بيته وسفره اليومي بالقطار من طنطا إلى القاهرة، وأنه يطلب الإذن لكي يأخذ أسرته ويقيم في القاهرة على الأقل حتى ينتهي من الدكتوراه.
الشيخ حصيف، لا يضغط حتى يُخرج الدم، فوافق وتمنى لابنه التوفيق. لقد أنفذ مشروعه، لكنه لم يهتم بالجانب الذي انتبهت إليه غريزة الأنثى. الأم التي عرفت حركات صغيرها، وهو يتحايل هنا وهناك لكي يفارق العش. كان تصور الست خديجة أقرب إلى حقيقة ابنها. الشقة في طنطا ستصبح محطة لأهل البلد كلهم، وليس للعائلة فحسب، ولن يتمكن من عيش الحياة التي يريدها. من وجهة نظرها، كان يريد أن يطير بعيداً. قالت ذلك لفاطمة يوم نقل العفش إلى مصر، وأكدت الأمر عندما وُلد طفله الثاني في القاهرة، ثم ابنه الثالث في غرب أفريقيا حيث عمل هناك إمامًا وخطيبًا. قالت لفاطمة: "ألم أقل لك إنه يريد أن يطير بعيدًا؟" عندما عرفت بأنه أنجب بنتًا في البرازيل. استعارة الطائر الذي يريد أن يغادر العش ويطير بعيداً، رددتها الست خديجة في كل تلك المناسبات.

***

أصبحت شقة طنطا مرة أخرى خالية، واستبعد الشيخ أن يزوج فيها "نعيم"، فقد بدأ يفكر في ترتيب الحياة بطريقة أخرى، إن كان صالح قد سافر بعيداً، فعليه أن يحتفظ بنعيم معه هنا. عبد الله في الغيط، ونعيم يمسك الحساب والمصاريف، وأنا أستريح كما قال للست كوثر ذات يوم وهو يجلس في شرفة بيتها. وفي نهاية العام بدأ يفكر في أن يخطب لنعيم، وفي بناء دار جديدة، وفي حمل أحفاده وأولاد "علي سليم" الصبيان ليتعلموا في المدن، ويعمروا شقة طنطا.
هذه النقلة حملت الأسي إلى قلب الست خديجة إلى نهاية حياتها. فقد كانت قادرة على فهم الرموز أكثر من فهم الوقائع في صورتها المباشرة، وكما فهمت زمان تفضيل "نبية" عليها، وتركها في خزانة اللبن، فقد فهمت مرافقتها للأحفاد في طنطا على أنه نفي لها من الدار، ومن حياته، وأسرت إلى فاطمة قائلة إن الشيخ مخه طار من يوم موت ابن أخيه. كانت تشير إلى أنه نفاها من أجل أن ينفرد بالست كوثر، لكنها لم تتمكن من قول ذلك صراحة، لكن فاطمة فهمت، فقالت بغضب: "حرام عليك يا أمه، أبويا عاقل، لا يمكن يعمل العيب". ومع ذلك ظلت على مودتها وحبها له، عندما يطرق باب شقة شارع

المؤيد تحمل عنه عصاه وتعلق ملابسه في الدولاب، وتجهز له سريره، وتجلس جواره صامتة، وتقول لنفسها، لكي تطيب أساها: لم تكن تتاح لي هذه اللحظات في الدار.

****

(9)
المحبة دواء أيام الباطل

"وجود الست كوثر مثل النور، ساعدني على تحمل حياتي. رحلتي صعبة، والناس أصعب. كل واحد يظن نفسه عليما بكامل الحياة، وهو يرى من خرم إبرة. الغريب أنه متيقن أن ما يراه هو كل شيء. بؤس. عشته كما هو، كأنه طبائع الأمور، وحاولت أن أتعلم".
"عليك الانتباه. عندما تقابل شخصاً انتبه. تدرب على هذا منذ الآن. ضع هدفك الرئيسي أن تعرف كيف يفكر. لو عرفت ذلك فقد عرفته وصلحت بينكما الأعمال أو الصداقة أو العشرة. لم أجد ذكاء مثل ذكاء الست كوثر وفطنتها. بنت الشيخ محفوظ، ماذا أقول؟ حاستها قوية، تدرك الأمر وهو بعد لم يتشكل. كان حظي عظيماً أنها أحاطتني بالرعاية من يوم الخروج من الكارثة إلى الآن".
"مرة واحدة توهب للمرء الحياة. جهز نفسك لهذا، الحياة أمر جدي. في البداية أنت وحدك وفي النهاية أنت وحدك. قد لا يكون حظك مثل حظي وتصادف إنساناً ينير لك الطريق مثل الست كوثر. وطن نفسك على أنك ستكون وحدك".
"لا تفقد ثقتك في المحبة، اسمع كلام جدك، هي الدواء لأيام الباطل. سوف تصون وحدتك وتغنيك. أحبِبْ كل شيء، الألم قبل الأمل. الأيام في تعاقبها الرتيب. المحن وهي تجيء وتنجلي. الأصحاب وهم يطرِدونك ويشيرون إليك بالسوء. الموت وهو يخطف أحب الناس إلى القلب. الشجرة وهي تفرع، والنور وهو يتبدل والبذور وهي تنبت، الطرق والمحطات، ولمحات السحر في وجوه النساء، ولحظات الغياب والحضور. أحبب كل شيء. احبب الحس الذي يسري في كيانك، نوع الحس الذي مُنحت إياه، هذا هو الأمر، وإن كنت لن تتمكن من ذلك في البداية فسوف تتمكن منه بعد ذلك لو جعلته نصب عينيك".
"تأكد أن الناس لا يفكرون إلا في ذواتهم ويخسرون حياتهم وأنت لست استثناء. فكر في ذاتك مثلهم ولكن الأهم أن تفكر في الحياة التي في عروقك. عندها ستشعر وأنت تغادر الحياة بأنك قد عشت. لذا اجعل قوتك في روحك، في صيانتك للمحبة. كل لحظة محبة نعيشها زاد للرحلة، املأ حياتك بتفاصيل مما تحب. لا يمر يوم دون أن تبحث فيه عن شيء تحبه وتتعلق به. ذات يوم سوف تُخرج تلك اللحظات التي تظنها قد بادت، وتنظر إليها بشغف مثل بخيل ينظر إلى ثروته. لا تنكر وحدتك. عشها. سوف تأتنس بلحظات حياتك التي تظن أنها بادت. سوف تأنس بحس الحياة الذي يسري في عروقك".
"موت "علي" ابن اخي هدني، لكن ما أهان روحي وأشعرني بقرب النهاية هو تسلط الأوهام. الأوهام وخلط الأمور معناه أنك فقدت الطريق، معناه أن الحياة تنسحب منك. الأوهام نوع من الصدأ يأكل الروح، لولا وجود الست كوثر كنت قد ضعت، لقد عاونتني منذ زواج عمك صالح إلى النهاية، وقفت في ظهري كأنها البوصلة التي فقدتها. ربّك أعانني في حياتي، ويمكنني أن أموت مستريحًا. لست حزينًا على شيء إلا على مفارقتي لحبها وقلقي عليك".

***

وُلد "نعيم" في الأربعينيات من القرن العشرين. أصر الشيخ أن يحمل اسم أخيه الذي رحل مع كارثة الأرض، ودائماً ما كان يناديه "نعيم الصغير" لكي يظل وجود "نعيم الكبير" قائمًا. كان أقرب أبناء الشيخ إلى ملامحه. منذ طفولته حاول أن يحفظه القرآن، ويرعاه. اصطحبه معه في رحلاته. تحسس ميوله ومواهبه، وبسرعة فض يده منه، ربما لانشغاله في بداية الخمسينيات بتدبير شؤون أراضي

سعيد بك الواسعة أو إدراكه أن الولد لا يحمل بصمة النبوغ التي يمكن أنٍ يدركها المرء في لمعة العين أو في تصرفات صغيرة. فض يده منه وألقي اللوم على الست خديجة قائلاً إن امرأتي لم تفلح في شيء غير إفساد أبنائها. لم ينج من حنانها الزائد غير صالح.
أخفت الست خديجة عن الشيخ هروب "نعيم" الدائم من الكتاب، وبسبب تغير الظروف، فالطريق إلى المدارس الأميري في المدن كان قد بدأ، فأخرجه أبوه من الكتاب وأرسله إلى طنطا ليتعلم وهو مازال صبيًا. تقريباً لم ينشأ في الدار، لم يذق المرارة ولم يعرف ما حدث إلا على شكل حكايات. هذه أمور يحسبها الشيخ، لكنه لا يعطيها الاعتبار الكافي، لأنه يرى أن الناس تكون مثلما تريد، ونعيم الصغير كان معجبانيًا، مغرما بنفسه وصورته، وقد كان مثلما أراد.
في وقت متأخر حاول الشيخ أن يوقف خيبة ابنه الصغير لكن الأوان كان قد فات. تعلق بفتاة رآها ذات يوم في مولد السيد البدوي، وذاب عشقًا فيها، ومشى وراءها من بلد إلى بلد، وجاؤوا به من "فوة"، مريضًا. أقام في الدار عدة شهور، جربت عليه الست خديجة، خفية، طرقها في العلاج وجهزت بمعاونة أختها سرية عددًا من جلسات الزار، لكي تخلص دمه من سحر الغجرية. بعد عذاب تم فصله من مدرسة طنطا الثانوية بسبب مرات الرسوب، وإلحاقه بمدرسة القديس لويس بالمصاريف، وفي النهاية حصل على دبلوم المعلمين، ومن معهد المعلمين إلى الجبهة، لا فاصل بينهما غير شهور. لم يهنأ بوظيفته كمدرس ابتدائي في مدرسة البلد.
هذه السيرة الدرامية لنعيم الصغير حملت لمحة من المستقبل الذي لم يتبين الشيخ خطواته إلا في تأملاته الأخيرة. بدأ المستقبل مع هذا الولد. أشار "نعيم" بجنوحه إلى الطريق الذي سوف تأخذه الحياة بعد ذلك؛ فهو أول من ارتدي القميص والبنطلون في عائلة قديمة مازالت تتولى الفلاحة كمهنة رئيسية وتعلم بعض أبنائها النابهين في الأزهر.
لباس الأزهر لا يختلف كثيرا عن الرداء الفلاحي، فهو جلباب مشقوق من المنتصف وغطاء للرأس، له تكوين ملابس الناس نفسه لكنه مزخرف قليلا من أجل التمييز، أما القميص والبنطلون فهو لبس الأفندية، وحياة البندر الرخية، فيبدو نعيم وهو يمشي في وسط الدار كأنه آت من عالم آخر، من بلاد تتراءى بعيدة وخفيفة وسحرية بها بهجة ومرح، يحيطه جو مثلي السينما وطريقة أهل البندر في السير والجلوس والحديث، ورغم نقمة الشيخ عليه فقد كان يعطيه الفلوس لكي يشتري الملابس، لكن لا أحد تخيل أن يبلغ به الاستهتار أن يشتري حذاء أبيض.
يمشي نعيم في الدار متوسط القامة مثل الشيخ، أسمر الوجه شعره أسود ناعم يدهنه بدهون عطرية، ويشمر كم القميص حتى أعلى الكوع ليظهر العضلات مثل ممثل شهير في ذلك الوقت. البنطلون ينزل باستقامة وينتهي عند حذاء أبيض، هذه أناقة فاتنة الناس مشوية في حر الغيطان ومتاعب العمل في الدار. في زمن كان الحفاء ما زال منتشراً، وكثير من الناس ترتدي أحذية من البلاستيك توزعها حكومة الثورة، أو بُلغاً داكنة اللون يسمونها "مركوب"، في ظرف مثل هذا ارتدى "نعيم" حذاء أبيض اللون.
كان ذلك في عام الكارثة قبل تجنيده، عندما جاء ليتسلم عمله مدرسًا في مدرسة البلد. رأته الست خديجة وهو يستعد للسفر. قالت وهي تضرب صدرها بكفها:
"ستقف أمام أبيك وأنت تلبس جزمة بيضاء؟"
جرته من يده لكي يخلع الحذاء الأبيض ويسلم على أبيه ويستأذنه في السفر ثم يعود ليرتديه ويعبر الطريق إلى خارج الدار من فوق السطوح، من المنفذ السري لدار سليم. من الطريق نفسه الذي مرت منه الغلال التي استخدمها علي سليم في صيانة المعسل، وعاد منه عبد الله بعد سهرات الحشيش ومنه

هرب صالح من الدار رافضًا خطوبته، ومنه نفذت الست خديجة إلى دار أختها أيام محنة فاطمة وأيام ما كانت تصحب نعيم إلى الزار.

***

الست خديجة أول من رآه. رمت كيزان الذرة التي تفرطها في الطشت واندفعت خارج الدار، ثم وقفت في منتصف الطريق وتطلعت إليه بحزن، وأخذته في حضنها. الشيخ كان يصلي العصر في ركن المندرة، وعبد الله يربط الحمار في حديدة المساحة أمام الباب. سلم على أخيه الصغير، وصدرت عنه تمتمات مضغمة ليست نوعاً من الكلام؛ ترحيب جاف تستقر فيه عاطفة غائرة.
جاءت "فاطمة" جريًا من دارها وأخذته في حضنها: "إزيك يا أخويا". الحمد لله على سلامتك". وعلا صوت من أمام دار الجيران: الأستاذ نعيم رجع من العسكرية". ترك الأولاد مخابئهم بين أعواد الحطب ووقفوا منبهرين على عتب الدور القريبة، بهذا الشخص الذي يرتدي البدلة الميري، والبيادة والبارية الذي يعطي للملابس العسكرية معناها، بشبه الجنود في الطوابير التي يرونها في تليفزيون الوحدة المجمعة. في ذلك اليوم اصطحب نعيم معه جواً آخر، غير الذي أحاطه وهو يرتدي الحذاء الأبيض، أكثر إثارة، به لمحة من الحرب والصحراء، والتدريبات والطائرات المحلقة، بدا في هذا المساء ملموسًا بالحس البطولي الذي يحيط عبد الناصر وهو يلقي خطبه.
دخل المندرة ليسلمٍ على أبيه. هذه المرة اختلف الموقف بين الشيخ وابنه الصغير. في المرات السابقة كان نعيم يبقى واقفًا ينظر إلى نقطة في الحائط خائفا؛ فالعصا في يد الشيخ يمكن أن تقع في أي لحظة على أي موضع من جسمه. هذه المرة يجلس بجواره على الكنبة مرتديًا البارية، صامتا. يرفع نظره إلى شباك المندرة، ليهرب من وجل أنه يجلس، لأول مرة، جوار أبيه.
الشيخ بلا عمامة، في نظرته الاستغراق نفسه الذي يتأمل به أوراقه. خلع نعيم البارية. رأسه الخالي من شعره الغزير ونظرته إلى النقطة نفسها أظهرا تشابه الملامح الوجه المستدير نفسه والعيون الواسعة السوداء والأنف الحاد، والذقن العريضة. في هذا المساء لم يكن للشيخ المهابة نفسها. ظهر طيبًا وقورًا وصغيرًا، في أثناء جلوسه بجانب ابنه. ظهرت له الحياة المتسعة أكبر من مهابته. الجيش والصحراء والحرب والقطارات والمدن. غاب حضوره المعتاد لأنه انعكس في مرآة حياة أخرى حملها نعيم القادم من معسكرات الجيش.
دخل ليغير البدلة الميري ويرتدي جلباباً من جلابيبه الفلاحي، وظل الشيخ وحيدًا، لم يطلب لمبة وكالعادة ترك الظلام يحيطه. لأول مرة يشعر بحجمه الصغير. بدا لنفسه تفصيلة في قلب متاهة. الحياة أكثر اتساعًا مما يظن، بالذات بعد أخبار حرب الاستنزاف التي بدت أنها لن تنتهي. حضر حزن نييء، فيه غضب لأن عليه أن يدفع كل تلك الأثمان لكي يسيّر حياته. حضر خوفه أن يفقد ابنه كما فقد علي سليم. لم ينتبه غير الآن أن الولد غال وأنه فرع من شجرة يمكن أن يُقطع في أي لحظة. اقشعر بدنه من تخيل لحظة القطع.
كان وقتها يجهز لزواج صالح وفادية، محاولاً الخروج من الحيرة وارتباك مسار الحياة، مرورًا من الهزيمة، ومن كلِ ما يحيطه، متشككًا فيما يقال في جلسات الاتحاد الاشتراكي، عندما يأتي شخص من مصر ليتكلم كلاماً غريباً عن تماسك الجبهة الداخلية، عندها يدرك أن الكارثة حقيقية، والنكسة هزيمة، في ظنه كنا مهزومين مهما كان نصرنا الشخصي.
أدخلوا له لمبة، ونادوه للعشاء، لكنه طلب طبقاً من الحليب ورغيفًا من الخبز. وبعد العشاء ظل جالسًا حتى ذبل نور اللمبة. الأوراق أمامه مفرودة، وفي ذهنه الكثير من المسائل، لا يمكنه أن يتوقف عن

التفكير. ينهزمون، لكني سأظل أعمل حتى النهاية، هذه حصتي من الحياة سوف أصونها. يقول لنفسه وهو يغلق عقود أرض قديمة باقية من أرض سعيد بك، قانون الإصلاح الجديد حفزه مرة أخرى أن يعود بالذاكرة إلى تلك الأيام التي غدت بعيدة.
انتظرت الأحزان مناسبة عودة نعيم من الجيش لكي يحيا علي سليم مرة أخرى. قال الشيخ في نفسه إن وجود ابن أخي هو ما منح تلك الدار صلابتها، رغم يقينه أنه هو من منحها الحياة. وجود علي سليم كان مطمئنًا. روحه الجادة عززت الحياة في الدار. قدرته على المساندة والوقوف في وجه الصعاب، حبه العميق للأرض، وإخلاصه لها، صان الحياة وجعلها تزدهر. طريقته في الحياة يجب أن تسود. الحياة هشة بعد رحيله. فارغة يمكن لهبة ريح أن تكنسها.
من الصعب حسم الأمر، إن كانت مهابة الشيخ هي التي عجزت عن منح الدار الطمأنينة بعد موت علي سليم، أم أنها ظروف البلد كلها. فقد تغيرت الأحوال وسرى الإحساس بالمهانة في الأرواح الطيبة في طول البلاد وعرضها. في تلك الليلة بدت له داره في وسط الخضم الواسع من الحياة ريشة في مهب الريح.

***

يعود نعيم إلى الدار في إجازات متباعدة. لم يعايش مشاكل الشيخ مع صالح بخصوص الزواج. كان يتدرب في المعسكرات. تقول الست خديجة إنه ولد بعد أن زالت الغمة، لم ير سنوات البؤس. كنت خائفة عليه طول الوقت. دائمًا أبحث عنه، أجده على السطوح بين كومات القش. يحبس نفسه في غرفة مظلمة. يمشي شاردًا على القنوات والترع فيجيء به الناس وهو يكاد يغرق في البحر. يسرح إلى أبعد الغيطان ليأتي بالصمغ من شجر السنط. كنت أعرف أنهم سيخطفونه. وعندما وقع في غرام الغجرية عرفت أنهم خطفوه: "كانوا يشدونه مني وكنت أشده منهم، تمزع بيننا، وعندما رأيته شاحباً ومذهولًا، بعدما عدنا به من فوة، دخل قلبي حزن لم أعرفه طول عمري". تظن الست خديجة أن الزار أبعد "من لا اسم لهم" عنه وخلصه من حب الغجرية، لكن الحقيقة أن المرأة هي التي هجرته، وقال الشيخ بعد ذلك: "سوف يخلصه الجيش من أوهامه".
أخذ "نعيم" موضوع زواج "صالح" من "فادية أمراً مسلماً به، ونظر إلى رفض أخيه وغضبه باستخفاف. قال له ذات يوم: "أنت لم تعرف النساء. بعدها كلهن سواء". كان حبه للغجرية قد تركه خالياً من انجذابه إلى أي امرأة. النساء متساويات في نظره، "فادية" مثل "علية" مثل "ناهد". كلهن واحد، عدا واحدة: "زينة"، التي جذبته خارج الدنيا، وكان مستعدًا أن يعيش عمره في الموالد بعيداً عن كل هذا، لكن المرء لا يمكن أن يعيش مطلق السراح، إنه فرد في دار وفي بلد، إن استطاع أن يفر من الدار فكيف يمكن أن يفر من حكومة البلاد؟ استدعاه والده ودفعته أمه إلى الزار، وطلبه الوطن لكي يرد آثار العدوان. في حلقات الزار، أدرك أن تعلقه بالغجرية هو الشيء الحقيقي الذي يريده. قربه الزار منها بدلا من أن يبعده عنها، لكنها هربت وتركته، فاستسلم بسوداوية للحياة في الدار والمعسكر.
ولم يحضر عرس أخيه صالح في خريف عام 1968، كان محبوساً في المعسكر، وعندما عاد كان مريضًا، وعصبيًا، ما إن يتكلم أحد حتى يعلق بسخرية جارحة. ترى الست خديجة نحوله وعصبيته فتقول إنهم لا يأكلون في الجيش. في عينيه خطوط حمراء، ولون بياضهما مغبر، فتقول إنه بكاء محصور. لم يكن نعيم يبكي، وهي تعرف أن الشخص الذي يبكي طيب، أما من تتحجر الدموع في عيونهم فهم قساة القلوب. تقول ذلك بحزن وهي تتصعب على حال نعيم وتشير من طرف خفي إلى الشيخ.

في الإجازات يعود إلى شقة صالح في طنطا ينام ليلة ثم يرجع إلى البلد في اليوم التالي. شاغلته في تلك الفترة "سعاد" التي تسكن في الشقة المجاورة لكنه كان خامداً، جاراها من باب أنها يمكن أن تجعل أيامه أكثر إثارة. يعود إلى البلد ويقضي الوقت ناقمًا، يشخط في الأولاد، ويعاند أمه ويرفض كل طلباتها. كانت تريد أن تعرف ما به، وفي ظنها أنه ما زال مغرمًا بالغجرية ويمكن أن يهرب من الجيش لكي يلحق بها، وقد صدق حدسها عندما هدد في إحدى المرات أنه سوف يهرب من الجيش، يومها قالت بعصبية:
"فضيحتنا تبقي بجلاجل".

***

بعد زواج صالح عادت إلى الشيخ حيويته وراح يدير الدار بقسوة. ودبت مرة أخرى الخلافات بينه وبين نعيم بسبب المصاريف. نعيم يحب ارتداء الملابس الجديدة الغالية الثمن، والساعات الجديدة، ويشذب شاربه بأناقة ويقضي وقتًا طويلاً أمام المرآة، وفي كل مرة تزيد طلباته عن المرة السابقة، فعادت شدة الشيخ. ينهره ويعطيه نصف النقود التي يطلبها، بعد أن يوقفه طويلاً أمامه، وفي كل مرة يقول مندهشًا: كيف يمكن لرجال بمثل رخاوة ابني أن يحاربوا، ويتهم الست خديجة بأنها وراء خيبته.
تنتهي الإجازة في غمضة عين كما يقول "نعيم" متذمرًا وهو يرتدي الزي العسكري، ويبدو كشخص فقد روحه. في المرة الأخيرة رفض الشيخ أن يعطيه نقودًا وحاسبه بالمليم على ما صرفه، وفي النهاية ناداه من عند العتبة وأعطاه مبلغًا يكفيه حتى العودة بالكاد. دخلت الست خديجة المندرة وتحدثت معه بلهجة لينة عن أن نعيم قد كبر وأصبح رجلًا، ولا يصح أن يعامله مثل الأولاد، وأنه يمشي بين الناس، ولا بد أن يكون معه مصاريف تحفظ كرامته، واستأنفت حديثها:
"صفي قلبك من ناحيته، الولد كان معمول له عمل".
قال الشيخ بقسوة:
"اسكتي يا خديجة، أنت بوظت ابنك".
ظهرت في ملامحه الجدية التي تخاف منها، عندما استدار إليها بغضب وأمسك ذراعها وقال:
"بدل ما تفكري في الكلام الخائب، دوريله على عروسة".
خرجت من المندرة تلوم نفسها على تفكيرها المحدود. الشيخ يفكر في ابنه أكثر مما تفكر هي. مشت شاردة في أرجاء الدار، تفكر أن زوجها يحيط بالأشياء كلها، ويفهم أكثر منها ويقدر الأمور التي لا تستطيع تقديرها، مندهشة من توصله إلى الفكرة التي غابت عنها.

***

في أثناء سبوع "رقية" بنت صالح، في أغسطس من عام 1969، رأت الست خديجة، "سعاد "مدرسة العلوم التي تسكن في الشقة المجاورة. فتاة قمحية اللون دمها خفيف، خدوم وجادة. لم ترفع نظرها عنها في أثناء السبوع، وتركت مجساتها الباطنية تتحرى تصرفات البنت. أعجبها أنها نشيطة، تعمل كل شيء بخفة، ومتعلمة. عادت مباشرة من طنطا وقالت للشيخ:
"وجدت له عروسة".
بعد يومين جاءت الست كوثر إلى الدار، في عربة الحنطور، وأبلغته بأن معارفها يؤكدون أنها من بيت طيب، والدها من السنطة، كان موظفًا في الري. الأسرة طيبة رغم تبذير الأم. في الإجازة التالية عرف نعيم أن أباه موافق أن يخطب له سعاد. انفرجت أساريره. يومها ذكرت له الست خديجة الشرط: أن

يتزوج هنا في الدار.
قال بغضب: "في الدار؟ "
قالت: "سوف يبني لك دارًا جديدة".

****

سرى همس في محيط العائلة أن الشيخ سوف يبني دارًا جديدة.
الفكرة قديمة طرحت عدة مرات خلال حقبة الستينيات المتقلبة التي بدأت بآمال كبيرة وانتهت بكارثة وبأوضاع طبعت ما تبقى للشيخ من سنوات على وجه الأرض، وبقي أثرها في حياة البلاد سنوات طويلة بعد ذلك.
قبل موت علي سليم اقترح نور الدين وبعض رجال البلد أن يبني الشيخ دارًا جديدة، فقد كثر زواره من أهل البندر ورجال الإدارة، من مهندسي الزراعة ورجال وزارة الري وضباط الشرطة، ومحصلي الضرائب. وحاولوا إقناعه بأن يبني دارا على طراز بيوت البندر تليق بالمقام. قابل الشيخ تلك المقترحات بابتسامة قائلا: "دار أبي وجدودي تكفي". وذكرهم بأن مأمور الناحية كلها جاء "بذات نفسه" إلى هذه الدار أيام انتخابات الوفد الأولى في العشرينيات ليطلب من أبي أن يكون شيخًا للبلد، لكن الرجل كان يعرف قدر نفسه، يريد أن يتفرغ لداره وأرضه وتنازل عن المشيخة لواحد من عائلة راضي. يردون عليه بأن الزمن قد تغير وأن ما يقوله قد مضى عليه خمسون عاماً. يصمت الشيخ ولا يتمكنون من معرفة فيمَ يفكر ولا ما هو القرار الذي سيتخذه.
موت علي سليم وأد الفكرة وتوارت مثلما توارى الترشح مرة أخرى للاتحاد الاشتراكي، ثم جاءت كارثة الهزيمة وانهار محصول القطن وعاش الشيخ حالة من صدة النفس، فكف الأصحاب عن مفاتحته في أمر بناء الدار الجديدة. تكفيه الأعباء التي كلفته بها السلطات من أجل صيانة "الجبهة الداخلية" كما كانوا يقولون وقتها. ابتعد الموضوع تماماً فلم يكن أحد يتخيل أن يتم بناء دار جديدة وعلي سليم في قبره. لكن الحياة تستمر. تأتي المواسم وترحل. تفجر الرغبات. وتطلب الحياة أن نقدم لها وقودًا من الأحداث فتوارى المشاعر والحوادث القديمة.
وفي نهاية عام 1969 بدأ الشيخ خطوات جدية لبناء دار جديدة. ذات يوم زاره مهندس معماري من أهل البندر. دخل كل الغرف ولف حول الدار، وأخذ مقاسات وطلع فوق السطوح، وعاين كل شيء. استمرت الجلسة في المندرة بعد الغداء فترة طويلة. كانوا يحاولون أن يوفقوا بين مبني على طراز حديث مثل بيت في المدينة ويفتحوا مجالاً في الركن لدخول البهائم والمحاصيل، يكون مدخلا للدار الفلاحي كما أسموها بعد ذلك، فيها غرف المعاش والفرن ومخازن الغلال والتبن والزريبة.
بدأ التوتر يسري في الدار بعد هذه الزيارة. كان ذلك أوان الحصاد ولم الغلال من الأرض، وأهل الدار منهمكون في الأعمال، يتطلعون بحيرة إلى تصرفات الشيخ ولا يتمكنون من معرفة قراره النهائي. لكن يبدو أن الأمر كان جادًا هذه المرة، وبدأ التوتر الخفي يظهر على السطح، بالذات من "نبية" زوجة علي سليم.
هذه التوترات موجودة طول الوقت لكنها زادت بعد موت علي سليم. وخفت قليلاً في أثناء زواج "فادية" وعادت تطل بقوة في الفترة التي بدأ فيها الاستعداد لهدم الدار. كانت "نبية" تحبس نقمتها، خلف حركتها الدائبة في تدبير شؤون الأرض والدار، وإن بقي ظل منها في شدة الطرحة على الرأس والجلباب الأسود الذي لم تخلعه من يوم موت زوجها، حتى أيام عرس ابنتها أصرت أن تبقي بشدة الطرحة والجلباب الأسود، ورفضت أن تسافر إلى طنطا لتعد شقة ابنتها. ظلت نظرتها حادة وانفلتت

منها أحياناً كلمات شديدة الوقع على أهل الدار. تقول كلاماً مضمرًا عن المر الذي تتذوقه والحياة التي تقسم ظهرها، واستخدمت براعتها في تحوير الكلام وجعله موحيًا بأكثر من لفظه، في أثناء الخبيز أو المشاحنات التي تحدث بسبب أعمال الدار، التي تلقي فيها كل امرأة مسؤولية الإهمال على الأخرى.
يوم الجمعة في أثناء الخبيز كان الكلام واضحًا، فقد أثارتها الجدية التي يستعد بها الشيخ لهدم الدار القديمة، غير عابئ بهمسها بأن هذا لا يصح خاصة في هذه الأوقات. يوم جمعة خريفي استعدوا فيه لخبزة عيش كبيرة لأنفار جمع القطن، بعد خطبة نعيم بعدة أسابيع. في ذلك اليوم أخرجت "نبية" ما في قلبها، وقالت إن علي سليم لو كان موجودًا لم يكن ليوافق بتاتًا على ذلك، وأنه لا يصح أن تكون عظامه لا تزال طرية في قبره، ونحن نهدم الدار ونقيم الأفراح والليالي الملاح. قالت الست خديجة بغضب: في عرس ابنتك لم تأت سيرة العظام الطرية، والآن والشيخ يدبر أمر زواج ابنه الصغير تقيمين الدنيا، ماذا تريدين؟ وسردت لها ما تعمى عنه عيناها حتى تعيد إليها عقلها: الشيخ زوج ابنتك الكبيرة لابنه، ويستعد لإرسال عيالك ليتعلموا في البندر، ماذا تريدين؟ جنازة وتشبعي فيها لطم؟
اغلب الغضب "نبية" في ذلك اليوم وقالت كلاماً لا يصح: "كل واحدة فيكم نائمة في حضن جوزها، وأنا نائمة في حضن الهم". وبدا واضحاً أنها توجه كلامها للنساء جميعاً. توقفت الأكف التي تبط الأرغفة على المطارح، والبنت التي كانت تحمي الفرن بأعواد القطن فتحت عينيها دهشة. حول الطبلية تجلس صفية زوجة عبد الله، وسعدة أخت علي سليم وفاطمة بنت الشيخ، وبعض بنات الجيران والأقارب. تكهرب الجو. توقفت الست خديجة عن الخبيز واستعملت سلطانها، الذي وقفت به ذات يوم في وسط الدار وقالت بصوت واضح في حضور كل الرجال: "مالها مراتك يا علي؟" تلك القوة المختبئة في تلافيف طيبة قلب طالته خطوط الضغائن. صحيح أن قلبها قادر على تجديد طيبته لكنها قادرة في الوقت نفسه على إبراز القوة عندما يبدو الموقف فوق تحملها. تنسى نفسها وتقول الحقيقة خالية من أي زخرف. يومها خبطت نبية قرص العجين على الطبلية وقامت تنفض جلبابها، وقد أطلقت صرخة فزع. قالت الست خديجة: "أنت قلبك مليان سواد، لو طلت تولعي في الدار تعمليها". توقف الخبيز وقامت فاطمة وراءها، فقالت الست خديجة بحسم:
"اخبزي يا بنت أنت وهي".
تلك اللحظات مجرد مؤشر على توتر سوف يظل يعمل تحت الأحداث، يشعله الشيخ، دون أن يدري، بطريقته التي لا تفصح عن مراميه. لم يكن يبوح بما في صدره، ويندهش من أنهم لا يفهمون. قال ذات يوم للست كوثر التي طلبت تفسيراً لما تراه غريباً في أمره؛ فكيف يسمح لمن يتزوج ببنت من بنات الدار أن يعيش في القاهرة ويجبر من تزوج من البندر أن يعيش في البلد. قال بسماحة: "صالح لا يمكن السيطرة عليه، لم يبق في الدار غير عبد الله الذي يرعى الأرض في غياب "علي سليم" وإن ليس بكفاءته، لذلك يحتاج إلى نعيم لتدبير المصاريف، وإمساك الحساب، فلم يعد يطمئن إلى تدبير نبية، عقلها خف بعد موت زوجها". ثم لخص الأمر:
"لا بد من التدبير حتى تسير المركب".
تحدد المصير وأصبح مؤكداً أن نعيم سيقيم في البلد، وستبقى شقة طنطا لمن يتعلم من الأحفاد في المدارس والجامعات، لكن ما حير الجميع أن يصر على إرسال الست خديجة لترعى الأحفاد في المدينة.

***

في بداية عام 1970 بدأ الاستعداد لهدم الدار، في فترة توقف العمل في الزراعة، لكن الأمر تأجل أكثر من مرة لأسباب واهية. كلما تحدد يوم الجمعة لبداية الهدم بيتم إرجاء الأمر بسبب ظروف طارئة، وبعد

تأجيل الهدم أكثر من مرة خطر لهم أن الشيخ غير جاد، دون أن يتمكنوا من تخمين أن هدم الدار القديمة يحمل في طياته خشية يصعب عليه مواجهتها. يسافر الشيخ برفقة نور الدين فجأة إلى طنطا للصلاة في الجامع الأحمدي، أو إلى مصر لحضور اجتماع التنظيم السياسي ويتأخر هناك، وغير ذلك من الأشغال التي تطلع فجأة، ولم يكن أحد بقادر على البدء في الهدم في غيابه. الضربة الأولى صعبة، والفكرة تأخذ بعض الوقت حتى يمكن إيجاد القوة اللازمة لتنفيذها.
جاء يوم جمعة، بدا أن الشيخ قد تعب من خشيته ورغب في منازلتها. في صباح ذلك اليوم، قال غاضبًا لعبد الله: أين الرجال؟ ثم نحي العباءة عن كتفيه وقام من فوق الكنبة، واقفاً في وسط الدار: ابعت هات الي الولد ابن سنية، وأرسل صبيا ليأتي بزوجي فاطمة وسعدة، وعدد من الرجال، وجاء جرار الجمعية الزراعية بمقطورته، ووقف أمام الدار، وطلب من الرجال أن يحملوا أثاث الدار، ليخزن في سراية الحاج قرشي.
انقطع العمل في أثناء صلاة الجمعة، وبعد الغداء صعد مع الرجال السلم الطيني، ووقف هناك يشاهد أول أعمال هدم الدار، التي بدأت من أعلى نقطة. راح الرجال ينحون العفش من فوق سطوح المقاعد العلوية، ويرفعون خشب الأسقف، نزل الشيخ السلم مرهقاً ولم يلبث أن وضع العباءة على كتفه وسار بخطوات متمهلة إلى دار نور الدين.
في الأيام التالية تم تدبير كل شيء، البهائم تكفل بها زوج فاطمة، وأخذها إلى زرائبه، وحملت النساء ملابسهن وأولادهن إلى دور الأهل، وعبد الله والست خديجة ذهبا ليقيما في بيت فاطمة، ولم يسأل أحد الشيخ عن نفسه، لأنهم كانوا يعرفون دون كلام أنه لن يستريح في أي مكان ولا حتى في سراية الحاج قرشي. يقولون بشيء من الغمز:
"سوف تعتني به الست كوثر، وسيكون هناك مرتاحا أكثر من بيته".

***

هذه أصعب لحظات دار سليم. أهل الدار متناثرون في بيوت الأهل والجيران. يجربون لأول مرة حس الغريب. السقف كان يمنحهم ألفة ضرورية لكي يزاولوا حياتهم، وبدون تلك الألفة التي تشبه التنفس في أهميتها وخفائها، يعيش المرء متوترًا كأنه يمشي عاريًا. سيظل ذلك قائمًا حتى يستعيدوا السقف مرة أخرى، ومن هم ارتباط خاص بالدار، مثل الست خديجة، سوف يعيش حالة من الغبن والرغبة في البكاء. كان ذلك حالها كلما رأت غرفة تهدم، وبيت حياتها يصبح تراباً. لم تتمكن من أن تخفي حزنها مثلما يخفي الشيخ مشاعره. هذه الدار قديمة جداً، قضت فيها حياتها، منذ أن كانت في السابعة عشرة من عمرها، هنا حدث لها كل شيء كأنها لم تعش في دار أخرى.
خصصوا للشيخ في دار نور الدين غرفة كبيرة، بابها يفتح على الشرفة ومعه مفتاحه، يمكن له أن يدخل ويخرج متى شاء. يصحو في الفجر، يصلي ثم ينزل السلالم ويعبر ممشى الجنينة وينظر بدهشة إلى سياج شجر الجازورين، ويقطع الطريق الحالي إلى المصرف ثم يعبر القنطرة إلى داره، التي تتحول يوما بعد يوم إلى أطلال. كان هو المولود في بداية القرن العشرين لا يعرف متى بنيت هذه الدار، وبقيت في الأذهان أنها قديمة قدم الدهر، لم تُبن، لم يحدث لها إنشاء، كانت هنا منذ بداية الخلق. هبط الناس إليها من مكان ما، مثلما هبط آدم إلى الأرض. مثل هذه الخواطر لا تفارق الشيخ ورغم الراحة والرعاية التي نالها في بيت نور الدين غير أن ذلك الحس العضوي بالدار ظل يعكر خواطره، لقد أقدم على تجربة كان يخشاها لكنه لم يقدّر أنها بهذا القدر من الألم والفداحة.
قال في حزن للست كوثر بأنه يشعر كأنهم يقطعون حتة من جسده، ثم ابتسم وقال: "لكن الحياة لا بد

أن تجدد نفسها". نظرت الست كوثر إليه متعاطفة، وقالت: "سوف تسعد عندما تبني الدار الجديدة ويعمرها الأحفاد وأحفاد الأحفاد". قال مداعبا: "لكنها ستكون خالية من الونس الذي يشيع في دارك يا ست الكل". ثم صمت وقال بحزن: "الجمر مشتعل تحت الرماد". تدرك الست كوثر مراميه، كان يشير إلى الصراع الخفي بين النساء، والتغير الذي يحدث في الحياة وهجرة صالح، وتدابير أخرى. قالت تطمئنه: "سوف تعالج هذه الأمور الصغيرة، هذه لا تساوي شيئاً أمام المشاكل القديمة، أتذكر؟"

***

انفرط أهل الدار في دور الأقارب، كأنما تم سكبهم خارج الوعاء. لم يكن أحد يتخيل أن الأبواب والنوافذ والحيطان وساحات الدار وأركانها لها هذا الثقل العاطفي. الست خديجة بكت كثيرا عندما هدموا غرفة المعاش وتذكرت حماتها وأيام الكارثة عندما كانت تجمع الملوخية من أراضي الناس لتبيعها، وظلت مقيمة في الدار، تكوم كل شيء، لا تتركهم يضيعون أي شيء حتى صاح الفرن.
الجدران والأبواب والنوافذ والسلام والعتب وكوات النور، والفرن وغرفة المعاش وخزانة اللبن وعشة الفراخ، وزريبة البهائم لم تكن مجرد إناء يعيشون فيه بل كيان غامض لم يكتشفوه إلا في تلك الأيام. الكيان غير المرئي لهذا الشيء المسمى "الدار" يكشف عن بعض معناه عندما يرحل عنه المرء، لكنه يعطي كامل معناه في أثناء الهدم، فهذا البيت الذي عاشوا فيه قد رحل عنهم بشكل نهائي. هذا أمر محزن لشخص طيب القلب مثل الست خديجة، ومخيف على نحو ما ومهدد بالنسبة لعبد الله، وبه نوع من الذنب والحس بأنه يخوض مغامرة لا يعرف نتيجتها بالنسبة للشيخ.
فكرة التغيير صعبة التقبل، لبشر يعيشون حياة رتيبة، يسري فيها شعور بالدوام يتراكم يومًا بعد يوم، مثل مرور الزمن على الإنسان دون أن يدركه إلا في نهاية الرحلة الانتقال من حضن أمن إلى المجهول، صعب ومقلق، بالنسبة لبشر عاشوا عمرهم في المكان نفسه الذي نشأ مع نشأة الكون.

***

تجربة هدم البيوت القديمة في تلك البلدة تركت ميراثاً من حكايات الكنوز، ربما كان ذلك كله خيالًا، لكنهم يبرهنون عليه بحكايات لا يعرف أحد مدى صدقها. فالأهل في الأزمان القديمة كانوا يتعاملون بنقود من الذهب، برعوا في إخفائها عن أعين اللصوص وجباه الضرائب، يمكن أن يجدوا إناء من الفخار ممتلئًا بالذهب، فكم من بيت قد هدم ووجدوا تحته سراديب تقود إلى مناطق مظلمة، خافوا أن يصلوا إليها فسدوا السرداب وأقاموا البيت الجديد، بعضهم وجد تماثيل من الحجر، وبعضهم وجد صناديق خشبية مزينة النقوش لم يقدر الزمن ولا الدفن على محو زهوة ألوانها، بعضهم وجد أقفالًا تلمع كأنها من الذهب، وآخرون وجدوا عظامًا وسيوفاً وسكاكين وفي أحيان أخرى وجدوا قططاً محنطة.
هذه الدفائن غير المتوقعة أثارت الترقب كل يوم في أثناء هدم دار سليم، وتم الهدم على مهل وحذر، فالدار قديمة جدا، ويمكن أن يجدوا دارًا أخرى تحتها. في كل صباح بحمل الرجال الفؤوس ويقلقلون الطوب القدم. يشعرون بالهيبة كأنهم سيقابلون الأزمان البائدة. البيوت القديمة مادتها من طين الأرض، وفي خيالهم تحمل الحيوية نفسها الخاصة بالأرض القادرة على إنبات البذور. تترسخ هذه النظرة في أثناء الهدم، فقد كانوا يجدون أحياناً بعض عظام الأطفال، وهو أمر يعرفونه جميعًا، فكثير من الأطفال الذين ماتوا قبل السبوع، لا يتم دفنهم في المقابر بل يدفنون في أبعد الحوائط، يعودون إلى أصلهم الطيني كجزء من كيان الدار، فتصبح بذلك أكثر حميمية بما تحمل من أرواح، ولكن أحياناً تحدث أمور غريبة مثل أن يصادفوا تحت جدار قحف جمل أو جمجمة.

حدث ذلك في دار سليم عندما هدموا الجدار الذي يفصلها عن دار راضي، عمدة البلد القديم. هناك وجدوا جمجمة، تنظر إليهم بعيونها الفارغة. أصاب الرعب عبده شمس ونادى عبد الله الذي وقف حائرًا بجانبه. ظلوا يتداولون الأمر، وأخيراً أخبروا الشيخ الذي قال لهم: "ادفنوها كما هي"، ولم يزد. هذه اللحظة كشفت له أن هواجسه في محلها، وأنه يمضي في تجربة لن يتمكن من التحكم فيها.
بعد يومين تحولت حكاية الجمجمة إلى مزاح، بعد أن خابت الآمال. ظلّوا ينتظرون الكنز فلم يجدوا إلا رأس إنسان. حكي أكبرهم سنّا، أنه سمع من جده أن عائلة راضي كان عندهم "جب" تحت بيتهم الكبير يدفن الناس فيه أحياء. وتداعت حكايات متشابهة حاولوا بها أن يداروا إحباط عدم العثور على الكنز، وعملوا مرة أخرى في هدم الجدران الأخيرة وهم يواصلون الحكايات عن أزمان ظالمة، عن رجال باتوا في محمة الفرن خوفاً، وبعضهم سكن الحائط وجعل امرأته تداريه بحزم من أعواد الذرة وتُلَبّس عليه بالطين حتى ينتهي رجال الباشا من بحثهم عنه.
في الأيام الأخيرة من الهدم، ترك الشيخ أعماله في الجمعية وقضى الوقت يستقبل ضيوفه على مصطبة الجيران بجانب الدار، ويتابع من طرف خفي ما يحدث، وهواجسه لا تتوقف، فقد تسلط عليه بيقين أن هذه الدار التي هدمها كانت سكن أهله منذ نشأة الحياة، وأنه قد ارتكب خطيئة، لا يتمكن من تبين فحواها مهما حاول التدقيق.
ذات ليلة في بيت نور الدين، كان الجو باردًا، والمطر عطل الهدم، جلس في الصالة الواسعة يمد يده باتجاه وهج النار في منقد القوالح، وتحدث مع الست كوثر عن مخاوفه. قال إنه يشعر بأن الجذر يتعرى، ولا يشعر بالاطمئنان. يعرف أن سنّة الحياة التغير، لكنه حزين من قلبه أنه أنهى بيده بيت الجدود، حتى لو كان من أجل أن يحيا نسلهم. العقل والعرف يوافقانه، لكن قلبه يشعر بالخطيئة كأنه يعري جذر داره ويعرضه للشمس والهواء. الجذور مكانها ظلمات الأرض، لا يمكنها أن تنمو وتنبت الشجر إلا في الظلمات، وإن تعرضت للشمس والهواء توقف نموها وذبلت وتحولت إلى تراب.
بدؤوا يحفرون ليضعوا أساس الدار الجديدة. وقف الشيخ بعصاه وعباءته السمراء على كتفه، يشير إلى الحوائط ويخصص عمالًا لفرز الطوب المحترق، والطوب الذي سيتحول إلى عجائن. فقد عثر على فكرة تخفف مخاوفه، وتسد الطريق أمام حسه بالذنب. قرر ألا يفرط في أي شيء يخص الدار القديمة، حتى ترابها سوف يستعمل في "المعجنة" التي سوف يبني بها الدار التحتانية حيث المخازن وغرفة المعاش، ووقف على يد العمال في الأيام التالية وعمل ما قامت به الست خديجة بفطرتها منذ أول يوم، لكنه طور الفكرة.
الأخشاب التي تم استخلاصها من الدار تكفي لصنع النوافذ الجديدة وتفيض، فاقترح أن تصنع منها أسرة ودواليب وكنب، وعندما جاء حسن النجار كلفه بالعناية بخشب الدار، واستخدام مهارته في صنع أثاث كامل للبيت الجديد. كان هذا مرضيًا للست خديجة. لا بد أن تبقى بذرة من الدار القديمة في الدار الجديدة لكي تعطيهم الإحساس بالامتداد وأنهم لم يفارقوا الحياة القديمة بالكامل، فيبقون على صلة بما مر من أزمان.
توارت مخاوف الشيخ وهواجسه أيام البناء، ثم انشغل في متابعة تركيب الشبابيك التي حفظت الدار القديمة من الزوال، وتركيب المصابيح التي سوف تكون جاهزة عندما تصل كهرباء السد العالي ذات يوم، وإعداد دورة المياه بالصنابير وتابع بنفسه بناء الدار "الفلاحي". لم يجب تسميتها على هذا النحو لكنه لن يغير كل شيء. لقد استقر الأمر، ينبههم: اسمها "الدار القديمة"، لكن نزعة البنادر أصبحت قوية فقالوا من ورائه الدار "الفلاحي"، ولم يتمكن من أن يوقف ذلك.
توارت المخاوف قليلاً بعد أن زف نعيم إلى عروسه في إحدى غرف البيت الجديد، وجاء "علي" أول

مولود له في خريف عام 1971، لكن القلق قد عاد يناوش الشيخ كأنه ارتكب خطيئة من نوع ما بهدم دار الجدود، وأنه سوف يعاقب على نحو ما.

***

مع زوجة نعيم البندرية، مدرسة العلوم التي تمشي كل صباح إلى المدرسة القديمة، بجيب قصيرة وشعر ناعم طويل ينزل على ظهرها، وحذاء بكعب، دخل دار سليم الجديدة راديو ترانزستور. جهاز صغير، شكل رمزًا لتلك الفترة. ما من عسكري في الجيش إلا ويحمله. أضفى على حياة الناس نوعاً من البهجة، وساعدهم على تحمل مشقة العمل في الغيطان. يصدح بالأغاني وأخبار العوالم البعيدة، ومن حقول القطن يمكن سماع بنت البندر تقول بمرح: "غمض عينيك وامشي بخفة ودلع"، فيثير ذلك عاصفة من الضحك والمزاح، ومن ظلمات الطرق بالليل، نسمع صوت أم كلثوم: "أمل حياتي يا حب غالي ما ينتهيش"، فتعرف على الفور أن شاباً يتمشى وحده برفقة الترانزستور.
ترك نعيم الراديو لكي يخفف به عن زوجته ملل الحياة في الريف، لكن الشيخ أخذه منها، واحتفظ به لنفسه. دون إبداء أسباب، ولأنها كانت تقدره فصمتت، حتى اشترى لها زوجها جهازًا آخر بعد ميلاد أول أطفالهما، احتفظت به سراً، ومن غرفتها في أثناء غياب الشيخ عن الدار، يطل صوت عفاف راضي تغني باستعطاف: "وحدي قاعدة في البيت، فكرت في حالي وبكيت".
احتفظ الشيخ بالترانزستور، لأن قلقه بشأن الدار القديمة لم يتوقف، ولأنه يريد ألا يُفتح على الهلس من الأمور، فقد عاش تلك الفترة كأنه ينام في العراء، هكذا قال للست كوثر ذات يوم. ربما ساعده هذا الجهاز على الألفة مع الدار الجديدة. صحيح أنه يشعر بالفخر وهو يرد السلام على الناس، جالسا في الشرفة أو ينزل السلالم ويسمع رنين عصاه على الحجر، وعندما يزوره أهل البندر يضيَّفهم في غرفة الضيوف الواسعة التي اشترى لها أثاثا مثل أثاث غرف الجلوس في بيوت المدينة، بعد أن تخلى عن الكنب القديم الذي تحول إلى مقاعد في الدار الفلاحي، لكن القلق لا يتبدد.
يترك الترانزستور طول النهار تحت المخدة في غرفته، وفي المساء يعود من أشغاله، يقضي أغلب وقته في غرفة الضيوف التي أخذت مكان المندرة، بعد أن نقل ملفاته من الخزانة القديمة إلى دولاب صغير، وأمامه منضدة من الخشب صنعها له خصيصاً المعلم حسن النجار، ودهنها بلون بني وقور، فغدت قطعة أصيلة من الموبيليا. لم يعد يتأمل في أوراقه كثيرًا، يقرأ في كتاب تفسير الأحلام أو يسمع قرآن الثامنة ونشرة أخبار الثامنة النصف، ثم يدير الراديو على محطة لندن يتابع الأخبار الحقيقية كما يقول. يسمع أهل الدار الكلمات الفخمة الملفوفة بالوشيش لمذيعي هيئة الإذاعة البريطانية، فتزداد دهشتهم من طباع الشيخ. يأتي ضوء اللمبة مع العشاء، ويصمت الراديو.
في الصباح يخرج إلى الشرفة في مقدمة الدار، يجلس على كنبة مفروشة بكليم من قصاقيص القماش. الصباح شأنه على الدوام. الناس يمرون إلى أشغالهم، يلقون عليه التحية، يرد عليهم بصوت ودود، رغم انهماكه في متابعة الأخبار في الراديو. الجهاز الصغير رفيقه في تلك الجلسة، يوجهه على محطة لندن، بعد أن يسمع قرآن الصباح بصوت الشيخ محمد رفعت. محطة لندن بعيدة مشوشة. يميل بأذنه نحو الجهاز، يريد أن يفهم ما وراء الكلمات التي يطلقها المذيعون بصوت مفخم متمهل غليظ النبرة. أخبار المعارك على شط القناة لا تتوقف، ونعيم ابنه في الجبهة. المهالك تحيطه من كل جانب. يفكر أحياناً في تعبه وفي محن الحياة التي تطارده، منذ أن كان شاباً يتعلم في الجامع الأحمدي. لم يتمكن من الحديث مع أحد عن همومه، حتى الست كوثر، لم يرغب في تحميلها همومه خاصة أن نور الدين جُن في آخر عمره وتزوج فتاة صغيرة وأجّر لها دارًا في غرب البلد. مدعيًا أنه يريد أن ينجب ابنًا قبل أن

يغادر الدنيا.

***

حلم بعلي سليم يقف أمامه ويقول بزهق: "قلت لك بابا بلاش نزرع الأرض بالكتان". ويُخرج من جيب الصديري فأرًا ميتًا. قام من النوم في نصف الليل مرهقًا يتصبب عرقًا، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. قضى اليوم مكدر المزاج، ورغم ذلك قام بتصريف شؤون الجمعية الزراعية في العصر كان يجلس مع نفر من الرجال أمام مخازن السماد، عندما ناداه عامل الجمعية:
"تليفون من مصر يا عم الشيخ"
مشي بخطوات رصينة في يده عصاه المعوجة باتجاه المبنى. صعد الدرجات القليلة ودخل الغرفة، يفكر في أنهم يطمئنون على توزيع السماد. لكنه انتبه أن العصر قد أذن. لا بد أن الموظفين قد غادروا مكاتبهم من بدري. رفع سماعة التليفون وسمع صوت صالح ابنه. وجد صعوبة في تبين الكلمات. الخبر الذي تلقاه، بدا كأنه رآه في حلم الليلة الماضية. نعيم أصيب في الجيش، جاءته شظية في العين، ونقل إلى المستشفى في الإسماعيلية، ثم منها إلى المستشفى العسكري في المعادي.
حاول أن يستوضح الأمر. الصوت بعيد مخنوق داخل الأسلاك الضيقة والوشيش، هل أصيب في العين؟ سأل بإصرار. أعاد صالح ما ذكره من قبل، لكن الشيخ كان شارداً يفكر بحزن في العين أغلى أعضاء الجسم، العين أداة الرؤية والحياة. أدرك الشيخ أنه لن يسمع شيئاً غير طنين الخط ووشيش الحرارة. فارقته الأحاديث الصاخبة التي كان منغمرًا فيها، منذ قليل، عن السماد وبذور القطن الجديدة، وقامت محلها الصور التي التقطها من حديث ابنه عن الدم وضرب النار وسقوط نعيم في الصحراء.
بجانب المكتب القديم الذي يشغله التليفون مقعد خشبي عليه قطعة من الكرتون. جلس الشيخ بعد أن شعر بوهن في ساقيه، وما زالت سماعة التليفون على أذنه. سأل بشكل محدد: الولد عايش؟ أخبره صالح أنه زاره في المستشفى هذا الصباح. لم يفق من بنج العميلة والأطباء طمأنوه على حالته.
هدأ الشيخ. الولد لم يمت. مضى إلى الخارج. الشمس تميل باتجاه غيطان البرسيم بجانب الوحدة البيطرية في الجهة الأخرى من الطريق. نزل السلالم واتجه إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه منذ دقائق، وسط الرجال، يراقب صرف السماد، واستطاع دون قرار، بل بسبب ميل قديم للتأمل أن يحجب الخبر عمن حوله.
في غرفة الضيوف في داره، جلست نبية تحكي له أخبار الدار، وجاءت فاطمة وكان على وشك أن يخبرها عن إصابة أخيها، لكنه فضل الصمت وطلب أن يكف الجميع عن الكلام، لأنه سوف يسافر مصر في الفجر. تركوه وحده، يشعر بأن الدنيا خلت عليه فجأة: نعيم في الجيش لا يعرف إن كان سوف يعود بعاهة أم سيموت، وعلي سليم فارق الحياة، وصالح طار بعيدًا، وعبد الله يغالب شهواته في السهر. خلاء يحيط به من كل جانب.
في الفجر ركب الحمارة البيضاء العجوز وبجواره عبده شمس على الحمار الجديد البكري، يوصله إلى محطة القطار. صوت الحوافر يرن على الأرض المزلطة بعد أمطار الشتاء. مر بجانب المقابر. قرأ الفاتحة لأهله وخطر له حلم الليلة الماضية وعلي سليم يخرج الفأر الميت من جيب الصديري. صمت ذائب في الظلام يسكن أشجار الصفصاف والطرق المهجورة والحقول التي عرفت أزمانًا بلا نهاية.
جلس على المقعد الخشبي في المحطة، يلم العباءة حول جسده حتى جاء القطار. راقب محطة البلد تتراجع، وتعمق إحساسه بأنه وحيد في تلك الحياة المتسعة الغامضة. حاول التخلص من تلك الأفكار وهو يغير القطار في محطة طنطا، ونعس على مقعده حتى استيقظ في شبرا. ضوء النهار مضبب،

وخاف للحظة أن يكون قد انتقل ليعيش مع من يتجولون في أحلامه. وصل إلى محطة بابٍ الحديد، وهبط درجات السلم وأصبح في الميدان الواسع، حيث يقف رمسيس بجسده الضخم، عملاقًا بشكل لا يمكن تصوره، البشر يمرون حوله كالأقزام، رفع عينيه تجاه التمثال، وراح ينبه نفسه بأنه لا يجب أن يهن هكذا أمام المحن. تابع التمثال، لا بد أن الرجل كان مهيبًا، وتشكك في كونه كان إنساناً، فتلك الضخامة ليست سوى خيال. فكر في ضياع الأرض وموت علي سليم والدار القديمة التي تلاشت من الحياة، واستعاد بعض حيويته. حتى لو فقد نعيم بصره فسوف يعيش. المواقف الصعبة تكشف معدن الإنسان وهو قد امتحنته المحن أربعين عامًا.

دخل شقة ابنه في مصر القديمة وسمع صوت البنت الصغيرة تقول: "جدو جه". فابتسم، وأخذ "فادية" في حضنه فقبلت يده. أدرك أن صالح مهما هاجر، فهو جزء منه. بعد قليل كان يشرب فنجان القهوة وينظر إلى وجه فادية الذي تمت استدارته وأخذ مسحة من وجه أبيها، رغم أن صالح جعلها مثل نساء البندر، تلبس مثلهن وبدأ لسانها يعوج مثلهن. لقد أخذ القرار الصائب بهذا الزواج. تريد امرأة من البندر، ها قد صنعت امرأة من البندر.

جاء أوان الحديث. وجد في صوته الحزم نفسه، وفي قلبه الصلابة نفسها. هناك حس بالوهن، لكنه ليونة بعيدة غائرة في جوف الصخر.

سأل بهدوء:

"زرته؟"

"كنت عنده بالليل"

قال الشيخ كأنه يخلع ضرسًا:

"ماذا جرى لعينيهِ؟"

قال صالح مندهشًا:

"عينيه؟"

نظر كل منهما إلى الآخر يريد أن يستجلي مكمن الخطأ.

"لم أنطق كلمة واحدة عن العين؟"

قال الشيخ:

"ألم تقل جاءته شظية في العين؟"

قال صالح:

"أبدا".

أكمل بثقة مدركًا مأزق أبيه:

"قلت لك أخذ طلقة، وربنا ستر".

أمام إصرار ودقة صالح، سكت الشيخ يعاني من خاطر منغص بأن هناك شيئاً غير مفهوم. في سره أيقن أن الخلط جاء من عنده. لا بد أن مخاوفه تداخلت مع ما سمع في التليفون. لم يكن مستعداً لسماع مثل هذا الخبر، الذي أثار أعمق مخاوفه، ونتفًا من أحلامه.

استمع إلى القصة شارداً. لم يلفت نظره أن الإصابة لم تأت من غارة إسرائيلية على الموقع، بل جاءت بسبب ثورة عسكري من الصعيد ظل محبوساً في المعسكر ستة أشهر متواصلة. من سوء حظ نعيم أنه كان يسير مع القائد في تلك اللحظة. أمام مخزن الذخيرة وقف القائد يتحدث مع أحد الرتب، واتجه إلى مكتبه، وفي اللحظة التي هم فيها بارتقاء السلام وجد العسكري في ظهره. القائد أخذ طلقة في جنبه، أما نعيم فقد أصابته طلقة في كتفه، وظل يزحف في الصحراء لساعات طويلة حتى عثروا عليه بعد

غروب الشمس على وشك الموت.
من أين جاء الخلط؟
ضبط الشيخ نفسه على وشك أن يسأل مرة أخرى: "يعني الإصابة لم تكن في العين؟" ويستعيد اللحظة التي استقرت فيها الفكرة في يقينه، والحزن الذي حط في قلبه: الولد نعيم سوف يعيش طول عمره أعمى. من أين جاء اليقين بأن الإصابة في العين؟ يقول لنفسه: لا بد أنها العجلة التي اتجهت بها إلى الغرفة الأمامية للجمعية، وتلك المخاوف التي تظل معنا عندما يرن جرس التليفون فهو لا يحمل غير الأوامر والأخبار السيئة. حاول أن يستعيد صلابته لكنه رغب في الاستسلام للوهن، وراوده إحساس بأن تلك الصلابة كانت سمة في الزمن وليست سمة في شخصه.
حكي لصالح عن أحوال البلد، والناس التي تغيرت والرغبة الغريبة في الظهور والمصلحة الشخصية التي تفشت، وعدم احترام الكبار، ثم حدثه عن نور الدين وكيف أنه تزوج ببنت صغيرة لم تبلغ العشرين والست كوثر تصر على أن يطلقها، وهو لاهِ كالعادة، يمشي وراء محمد ابن الحاج قرشي الذي لم يعِش في البلد ولا يعرفها، ويعتبر في سن أولاده، وقال بحزن: الولد ابن الحاج قرشي لم يعد يجيء إلى داري مثل الأول، ولم ينفذ وصية أبيه الذي قال له: عمك عبد الرحمن هو الذي سيدبر لك كل شيء، أصبح ينزل في السراية بعد أن رممها، وأعادوا للجنينة حياتها ونظفوا الغرف المهجورة، ونجدوا الأثاث كأن أيام زمان سوف تعود.
في العصر زارا نعيم في مستشفى المعادي العسكري. كان قد بدأ يعي ما حوله، وحكي بصوت متهدج ما حدث وقال إن ما أتعبه هو زحفه في الصحراء بلا هدف فاستهلك طاقته وجسده. غادر الشيخ المستشفى مستريحًا أن العمي لن يكون من نصيب ابنه. يمشي مع صالح باتجاه البيت. يقطعان طريق الكورنيش الواسع، وهو في عزلته ينظر بشيء من الغرابة إلى ضوء الشمس الباهت على العمارات، والسيارات تقطع الشارع مسرعة. أعشاب على شاطئ النيل لا بد أنها تميل مع تلك النسمة التي لمست وجهه. يتوكأ على عصاه، مندهشًا من ثقل جسده، ومن تسلط فكرة العمي، كيف حلت مخاوفه الشخصية محل فكره الرائق؟ تساءل إن كان هذا هو التقدم في العمر. الآن يقترب من السبعين، مازال يشعر بأنه شاب، لكن الثغرة قد جاءت لتنبهه أن الوهن يمكن أن يحل فيه ويبدده. يسير صامتا حزينًا، رغم اطمئنانه على نعيم، الذي لن تؤثر عليه الإصابة كما قال الأطباء وسيعود إلى الخدمة العسكرية.
غادر شقة ابنه بعد صلاة الفجر. ركب أتوبيساً خالياً يتحول الضباب على زجاجه خيوطًا من الماء، ولحق أول قطار متجه إلى طنطا. يصحو من غفواته، ينظر من النافذة إلى الأرض الممتدة ويسأل السؤال نفسه: كيف تسلل الوهم بأن الولد أصيب في العين؟ لم يكن للوهم وجود في حياته. قضى عمره يجلي البصر حتى يري الحقيقة، ما الذي حدث حتى تتسلط عليه الظنون. لا بد أن هناك فجوة سمحت للوهم بالتسلل. كيف يمكنه العثور عليها ورتقها؟ هل هي موت علي سليم أم هدم الدار أم الموت الذي ينتظره في نهاية الطريق؟
عاد إلى طنطا في الضحى. استقل حنطورًا إلى شقة شارع المؤيد، نزل أمام البيت القديم، وصعد السلالم الحجرية وطرق الباب. استقبلته الست خديجة وأحفاده. طلب الصمت، ولقمة وفراشا، بعدما طمأن الجميع على نعيم.

***

من لحظة أن وضع قدميه على أرض البلد ومضى يلقي السلام على الناس وهو يشعر بشوق غريب إلى أن يمر على أرضه. طمأن سعاد وأهل الدار، وأخبرهم أن نعيم بخير، وطلب أن يجهزوا له حمارًا،

يريد أن يمر على الأرض، ومنذ ذلك اليوم أصبحت عادة أسبوعية، حتى طابت محاصيل ذلك العام.

كل جمعة في العصر، يطلب أن يجهزوا له الركوبة. يضع عبده شمس البردعة الجديدة على ظهر الحمارة البيضاء، ويظل ممسكا بها حتى يستقر الشيخ على ظهرها. يبدأ رحلته باتجاه الغرب، يزور غيط البركة وباقي الكاشف وديك البر، ويدير ظهره للشمس ويلف حول البلد سائرًا بمحاذاة الترعة الكبيرة التي تفصل زمام أرض البلد عن زمام أراضي البلاد المجاورة. يذهب إلى غيط البحري وسواس وأرض النخل، يعاين الذرة والقطن والأرز ويسجل الملاحظات في ذهنه ويعود مع انطفاء ضوء النهار.
يطارد في تلك الرحلات السؤال حول مصدر الخلط الذي وقع فيه وظن أن إصابة نعيم في العين. من أي شق في الروح تسللت فكرة العمى؟ الصمت يغطي الغيطان. يحاول أن يتواصل مع الأرض. الطريق بجانب الترعة الكبيرة خال، ناس قلائل في الغيطان ينقون الأعشاب من الأرز، أو القطن، والبهائم ساكنة تحت عرائش من الحطب والبوص على رؤوس الأراضي الطريق خال له وحده، وعصاري الصيف بعضها ساكن مهيب. يمضي في طريقه إلى أرض أخرى يفكر بأن الأرض أصبحت بعيدة مهما حاول الاقتراب منها.
قضى الصيف تقريباً في هذه الرحلات حتى بدأ جمع القطن وحصاد الأرز. خرج نعيم من المستشفى، ومكث في الدار عشرة أيام، وعاد إلى المعسكر. تلك فترة صعبة، كان حائراً، مثل البلد كلها، فلم يكن أحد يعرف متى تنتهي هذه الحروب التي بدؤوها، ولا يعرفون كيف ينهونها. لم يكن أحد يمكنه أن يجيب: هل ستنتهي الخدمة العسكرية؟ هل ستحارب البلد وننتهي؟ وهو في تلك الرحلات الأسبوعية يحاول أن يبعد ذهنه عن كل هذه الهموم، لكنه لا يقترب من الأرض. لم تعد تلوح غالية تسكن بجوار القلب مثلما كانت أيام علي سليم. حدث شيء غريب. لم يعد يشعر بأنه يملك الأرض. في الليل يخرج العقود، ويتأمل سيرتها، ويراجع عقودًا أخرى، عليه أن يقوم بالعمل عليها خدمة للناس في المحاكم وفي مصالح حكومية أخرى. لا المرور على الأرض ولا معاينة العقود أعادا إليه الإشباع الذي كان يشعر به وحظوة التملك التي تشيع بهجة في الداخل، وتجعل المرء يشعر بأنه ثقيل على الأرض.
وأخذ يشعر بالوهن وبأن وزنه يخف يومًا بعد يوم، حتى بعد أن رأب الصدع الذي حدث بسبب زواج نور الدين وأعاده إلى بيته، لكن انتخابات الجمعية الزراعية جاءت لكي تؤكد له ما يشعر به. لقد تآمر عليه أعضاء خدمهم جميعاً لكي يعطوا رئاسة الجمعية لابن الحاج قرشي، وما كان مؤلماً أن نور الدين قد اشترك في كل هذا. فهم الأمر ليلة التصويت ولكن أوان التراجع كان قد فات. قالت له الست كوثر: "لا يعرفون قيمتك دعهم يغرقوا". لكنه صمت، بعد أن تحول من رئيس الجمعية إلى عضو مجلس الإدارة. شعر بأن الزمن قد أصبح محلولاً مخففاً، وارتبط أكثر بالأرض، ولكن الأرض أيضاً لم تمنحه تلك الكثافة والثقل الذي تمناه.

***

يربط الحمارة البيضاء في خشب السياج، ويتطلع إلى شجر الجازورين ويدفع الباب الخشبي للجنينة، يتمهل كي يعطي للست كوثر فسحة من الوقت تجهز نفسها. تستقبله بالترحاب مرتدية عباءة منقوشة بزخارف نباتية وتلف وجهها ورقبتها بطرحة سوداء، لا تخفي غرة شعرها الناعم الذي سرت فيه الشعيرات البيضاء.
في ظل حيرته في ذلك الوقت، لم يجد مكاناً غير شرفتها يأوي إليه. ضاقت به الأرض، بعد أن أدرك أنه لن يتمكن من أن يألف الدار الجديدة ولن يعتبرها بيته، وأنها هي أيضاً لن تقبله بعدما بدد الدار القديمة. لا مكان له في أرض الله الواسعة، لا في شقة ابنه في مصر ولا في شقته في طنطا مع زوجته

وسط أحفاده. لا مكان له غير شرفة الست كوثر، التي يشرب فيها قهوته كلما عاد من جولاته في أرضه.
تعد سعدية قهوة الشيخ. في الغالب لا يكون نور الدين موجودًا، فبعد حادثة زواجه وانتخابات الجمعية لم يعد يبقى كثيراً في الدار. ومن باب مراعاة الأصول كان دائمًا ما يسأل عنه قبل أن يصعد سلام الشرفة ويتخذ جلسته، ورغم أنه كان يعرف الرد، فقد كان ذلك واجبًا، فهو في بيت أخيه.
ذات يوم قالت الست كوثر:
"لولا توسطك يا شيخ عبد الرحمن وإحساسي بأن العمر لم يعد فيه الكثير، ما قبلت عودته إلى الدار".
قال الشيخ:
"أعرف يا ست الكل، وأعرفك، لا تحتاجين إلى شيء، ولا إلى أحد".
قالت بحسم:
"لا يا شيخ عبد الرحمن أحتاج وجودك ".
قالتها بغضب كأنه أهانها. تطلع إلى وجهها لحظات يبحث عن إصلاح لهفوته، لكنها قامت غاضبة ودخلت الدار وأحضرت صندوق سجائرها الذهبي وجلست صامتة تدخن.
كثيرًا ما جلست الست كوثر في الشرفة تدخن أمام الشيخ. هي في الغالب تدخن وحدها والناس تعرف. تأتيها السجائر من محل شهير في طنطا، لكنها لا تدخن أمام أحد غير الشيخ. صندوقها الذهبي الذي تتراص فيه السجائر تضعه بجوارها. تمسك السيجارة بأناملها الطويلة وتسند وجهها على كفها، وتدخن شاردة.
لم يعلق الشيخ قط على تدخينها، ولم يسألها عن سبب تعلقها بالدخان، لكنها زمان، حكت له الحكاية وهي تزر عينيها، وتتأمل دخان السيجارة. زوجها الأول كان يعمل مهندس إنشاءات، من عائلة كبيرة وصاحب مزاج ويحب النساء مثل نور الدين. في عائلته كانوا معتادين على الشرب مثل الأجانب، قالت بشرود: أبي قال لي قبل الزواج، أعرف أني ربيتك أنت وأختك تربية محافظة لكنك سوف تعيشين في بيت آخر، نوع آخر من الناس، عيشي عيشة زوجك، إن ضحك فاضحكي، إن حزن فاحزني، وإن شرب فاشربي. تطلعت إلى وجه الشيخ وأكملت: "كان المرحوم يعود بالليل سكران، ويأمرني بأن أحضر له كأساً، وأجيء لأجلس وأتحدث معه. تعلمت منه التدخين لكن الله سلم ولم أحب الشرب. لقد مات بسرعة قبل أن أتمكن من حب طريقة حياتهم، وحدثت المشاكل التي تعرفها".
في تلك الشرفة تروح الحيرة عن الشيخ. يهدأ غبار الأفكار ويستقر شيء في الروح. رائحة القهوة والتبغ والعطر النادر الذي لم يعرف له اسمًا، مناخ يحيط به فيطمس القلق ويدعه يعيش في كنف السلام بعض الوقت.
يعود مرهقًا من جولاته في الأرض. كثيراً ما قال كلاماً ندم عليه، لكنه يعرف مقداره عندها، فيترك لنفسه العنان أحياناً ليتحدث كما يشاء. وهي أيضا لم تعد تخشى شيئاً وقالت له ذات يوم:
"يا شيخ كيف لم أقابلك قبل زواجي بنور الدين؟"
قال ضاحكًا:
"يا ست كوثر كنت دلوعة تحبين الضحك والفرفشة وأنا كنت معتم الروح أبحث في أصول الفقه، الوالد رحمه الله كان يشجعني ويقول ستكون شيئا كبيراً يا ابن سليم".
يومها صمتت، لأنها فعلاً انجذبت إلى نور الدين بسبب الخفة والمرح. صمت أيضاً ورفع وجهه يتأمل ذلك الجمال الذي حرم منه، وقال:
"أبي زوجني بخديجة بنت خالته وأنا في المعهد الأحمدي، لولا ضياع الأرض ورجوعي إلى البلد ما

عرفتك. كنت سأسافر وأصبح من شيوخ الأزهر، مثل الوالد رحمه الله، أعرف نفسي، كان طموحي كبيراً، وأنت كنت متزوجة بوجيه من وجهاء البلد. الدنيا غريبة ولكنك هنا، أتحدث معك".
ثم نظر إليها بمودة وامتنان.
ذات يوم سألته مباشرة وبجدية:
"مالك يا شيخ عبد الرحمن".
قال وهو يرفع عينيه إلى وجهها يتلمس المودة التي يحبها:
"يا ست كوثر الدنيا هلام غامض؛ توهة. المفروض كلما تقدمت في العمر، أفهم وأتعلم، لكن العكس ما يحدث. عندما كنت شابًا، كنت أفهم بوضوح. أما الآن، فكل شيء غامض: الناس والأرض وتبدل الزمن".
أخذ نفسا عميقاً ولام نفسه على هذا البوح، فقال باختصار: "لقد أخطأت بهدم الدار". وأدرك أن هذا ليس موطن الألم. قال: "قضيت حياتي في عمل متواصل، والآن أرغب في الراحة". قال ذلك بصوت خفيض، تبينته هي بالكاد، واندهش من خروج الكلام من فمه، هو الكتوم، الذي لم يتحدث قط عن مشاعره.
في ذلك اليوم قال بوضوح:
"أرغب في قليل من الراحة، ولا أجدها إلا في بيتك".
قالت بنبرة الصدق والإقبال التي يعرفها:
"هذا بيتك وأنت تعرف قدر المحبة".
"الله يحفظك يا ست الكل، أنت بنت أصول".
قال بصوت خفيض كأنه وصل أخيراً إلى جذر الحزن:
"سوف أصل إلى السبعين في الشتاء القادم".
ضحكت عيناها وقالت:
"مازلت عفيًا يا شيخ".
لكنه لم يجارها في مزاحها وصمت صمتًا عميقاً مغلقًا، مستنداً بذقنه على ظهر كفه الممسكة بعصاه.
احترمت صمته، وقامت لتباشر أعمالها المسائية في الدار، ثم عادت وقالت بمرح:
"سوف أقرأ لك الفنجان".
قام من فوره مبتسمًا:
"في مرة أخرى".
ونفض جلبابه كالعادة واستعد للرحيل. نادت سعدية لتعد الركوبة. كان مندهشًا من أنه بعد عدة أشهر سوف يصل إلى السبعين. قال بتعجب:
"العمر يجري؟"
ضحكت وقالت وهي تتطلع إلى وجهه:
"عشت يا شيخ عشت. أنت تعرف وأنا أعرف".
ابتسم لها ونزل درجات السلم، وقف عند الدرجة الأخيرة وقال:
"نور الدين هو من عاش".
"اخترت الأصوب وتعرف الفرق".

***

كان أهل الدار مندهشين من الزيارات المتكررة إلى الأرض، واعتبروها إحدى نزوات الشيخ التي لا تقبل المناقشة ولا التفسير. لا أحد يمكنه أن يتحدث في الأمر معه غير فاطمة، التي اقتربت منه في تلك السنوات التي أقامت فيها أمها في طنطا. عندما يريدون منه شيئاً تمنعهم الخشية من طلبه مباشرة يتوسلون إلى فاطمة أن تحدثه. تأتي من دارها في المساء وتعد له العشاء وتجلس بجانبه، تتسامر معه وتطلب منه ما عجزوا عن طلبه. يعرفون أنها تتحدث معه براحتها، ولا يكسر بخاطرها أبداً. ذات يوم سألته عن السبب في زياراته المتوالية للأرض، فقال لها إنه يجد راحته هناك، الأرض تفهم أكثر من الناس. يومها قالت لعبد الله: "أبوك تعب".

فاطمة هي الوحيدة التي تجعله يبتسم، لكنه كان يزداد صمتاً بمرور الوقت ولم تعد قادرة على الحديث معه مثلما كانت تفعل من قبل. تجلس طويلاً ولا يفتح فمه بكلمة. تحكي عن أحوال الدار ومشاكل النساء، والدنيا التي تتغير، لكنه لم يكن في حاجة إلى أن يسمع شيئًا، فقد كان يشعر بهذه اللفحة من الحياة البائرة التي تمتد حوله. يشعر بالغل والطمع والروح غير الطيبة.

يعرف ما تتحدث عنه فاطمة. يتركها تسرد ما تريد، ويدرك أنها ورثت عن أمها مراقبة نساء الدار: زوجة نعيم البندرية لا تريد أن تعيش حياة الفلاحين، تريد أن تعود إلى البندر. و"نبية" تريد أن تشعل الدنيا كأن موت أخويا "علي" لم يكن حكم ربنا. تريد أن نعيد إليها زوجها، و"صفية" امرأة عبد الله تريد أن تستقل بميراث أهلها وتربي أولادها على مزاجها. ثم قالت بلوم: "أخذت أمي من الدار وتركتها في طنطا ترعى العيال، ولم يعد للدار كبير". نظر إليها بجدية وقال: "وأين أنت؟" قالت: "لا أتحمل مناهدة النسوان، خلقى ضيق". يومها استطابت الحديث، وبدون انتباه حدثته عن الهمس الذي يدور عن زيارته لبيت نور الدين. هنا انتفض الشيخ من فوق الكنبة وشخط فيها:

"اوعي لسانك يلمس هذه السيرة مرة ثانية".

سمع كل من الدار في هذا المساء شخطته القوية:

"فاهمة؟"

خرجت من الغرفة مكفهرة الوجه، كأنها نالت صفعة لم تنلها قط في حياتها. فقد دخلت منطقة محرمة، ورأت قوة أبيها التي ربما نسيتها بسبب الود. تركت الغرفة دون أن تعتذر أو تنطق بكلمة، تعرف أنها إن فتحت فمها فلن يحدث خير.

***

(10)
أعظم الفضائل في التخلي

"في نهاية الرحلة تبدو حياتي مثل السديم. ضباب معتم غير متشكل، ضباب خفيف بلا ملامح نظهر فيه آثار حياة، بقع خافتة من الضوء. الأمر محير. كنت أطرد خارج حياتي، حتى حب الست كوثر بدا في النهاية كأنه مصباح ضعيف لم يعد يضيء الأيام. ثقيل على الروح أن تكون هذه هي نهاية الرحلة. محزن، حينما تتراكم عليك الحيرة، من كل جانب، ماذا تفعل؟ هل عصيت الزمن، ام أنك، الذي كنت رسولًا للرؤية، فقدت الرؤية، ولم تنتبه أن خطوات المصير تشق طريقها، رغمًا عنك. حبست نفسي في الظلمات تسعة ايام بلياليها، حتى يمكنني أن أرى، وكان على أن اعود مرة أخرى إلى اللحظة الأولى. أدركت أن الثقل آت من الرغبة في صيانة شيء ينفرط. طيب، سوف أدعه ينفرط، يريد أن يتبدد فليكن، سأتركه يتبدد. صعب أن تبدد بيدك شقاء العمر، لكنه درس كبير. تعرف أنك زائل، لقد كنت قشة صغيرة تعوم على سطح الماء، مهما فعلت وكونت وبنيت وشقيت فأنت مجرد ظل عابر، هذا درس كبير. انظر فيه وتأمله.

ما نحن إلا اطياف، ذكر نفسك كل يوم. لم يكن أحد يساوي "علي سليم" في جبروته. أصبح الآن حفنة تراب. وانا بعد يوم واحد سوف أصل إليه. منذ الآن وطن نفسك على هذا. لا تتشبث مثل البغل الحرون. اقبل وضعك وحاول العمل عليه. جهدك وعملك هما عزتك وسكينة قلبك، وستكون أغنى عندما تعمل وانت مدرك أنك راحل. سوف تعرف كيف أنك موجود في كل شيء تعمله في كل الكائنات من حولك، ما أنت إلا اسم صغير لحياة أكثر اتساعًا حار في فهم كنهها الألِبّاء. اسم سوف يختفي لكن الحياة التي فيك ستبقى. هي اهم وأبقى، أما هذا الاسم الذي اخذته عندما تجسدَت فيك فلا يهم. لو تمكنت من هذه الفكرة فسوف تأخذ الحياة بخفة وعزم في الوقت نفسه. سوف تشعر بنفسك أكثر اتساعًا. الناس ضيِّقو العقول، ارواحهم مثل الليلة الظلماء. كل البلاوي تأتي من نسيان أننا راحلون. نعيش كأننا سنؤبد، تجد الرجل على فراش الموت ويساوم على قيراط ارض، ونفقة امرأة، ويريد أن ينتقم من جاره. عرفت الكثير في حياتي، كنت اريد ان ادرس الفقه ولم يتمكن لي ذلك فوهبني الله دراسة الناس، عرفت كل الأنواع. ذات يوم عرفت "عثمان احمد عثمان"، كان شاباً يظن نفسه خالداً، هذه بلاهة. البشر بلهاء. لففت البلاد، كنت شاباً عفيًا، في الثلاثين بلا شيء غير جلبابي ولحمي، وعقلي، وها أنا أمضي من هنا، بلا شيء تقريباً. لقد أديت واجبي، ولم يعد لي إلا حزن شفاف على أنني لم أقابل الست كوثر وأعيش معها، لست حزينًا الآن، لقد اخذت نصيبي، من كان يضمن لي ان حياتي كانت ستصبح أغنى لو عشت معها، من يضمن؟

أعظم الفضائل تكمن في قدرتك على التخلي. هذا هو درة القول ولا قول بعده. انظر وتامل. الحيازة يظنون أنها الحياة. هكذا سارت السنن منذ الخليقة، لكن خلاص، تكاثر البشر وكثرت الكوارث، والعفن طال السطح، ليست حيازة الأرض او المال، هذه أهون الأنواع، بل حيازة الجاه والسلطان، والنساء والمجد. الحيازة هي أم الحياة، لذا كان "علي سليم" أكرم الناس وأكثرهم بصيرة، بفطرته عرف لب المسألة، كان يري الحياة أن يعطي قوته للأرض، وسوف تكرمه الأرض. يمنحها جهده واخلاصه ومحبته لا أكثر ولا أقل، ولقد كنت أعمى، أنا الذي خفت طول الوقت من العمي. كنت مفتوح العين أدبر الشؤون وعميت من الجوهر. أدبر الحياة بمنطق الأمن. لا يتحقق الأمن مهما راكمت من الثروة. الأمن يتحقق عندما تتخلص من الثروة الأمن يأتي عندما تعيش مع الأرض وبها، لا أن تفكر في أن تركبها

وتدلي ساقيك. سوف تعاندك وتهزمك. لقد هزمتني وسوف تهزم كل من يحاول أن يركبها. سوف تهزمهم جميعًا في النهاية.
هذا كلام كبير على فهمك، لكنه قد ينفعك ذات يوم، أكثر مما ستنفعك الأرض والدار. قد يصفو ذهنك، وتشرق فيه هذه المعاني لا كما نطقها جدك، بل كأنها من خلقك، عندها ستكون قد اقتربت من الخلاص.
تأمل جدك جيداً. إنني راحل يوم الجمعة، وليس في نفسي شيء، لقد حاولت وتحملت مسؤوليتي، وعرفت أنني مخطئ لكنني لم ار سبيلاً آخر غير ما فعلته".
كان العصر قد أذن من زمان، وتحول الوقت إلى هلام. اختلط الأمر علي وتهت، لم يعِدني من توهتي غير طرق على الباب، وشبح عمي صالح، يقف في صدر الباب، وجدي ينظر إليه بتعجب أنه موجود في الدار. ضوء النهار قد بدأ يتلاشى، وقال عمي صالح بحذر: "ميعاد الدواء".
قال بحسم
"لا اريد دواء".
مال على جنبه ورقد، واضعاً كفه تحت خده، ونظر إلى قائلاً:
"قم امش من هنا".
وقبل أن أغادر الغرفة قال:
"ابعت لي ستك خديجة".
خرج نعيم من الجيش في خريف عام 1974.
كان يوماً رائقاً، حواري البلد مغمورة بضوء شمس العصر اللينة. في الأجران أكوام القش، وعلى الأسطح تخزن البنات الذرة. فاطمة رأته ينزل من أتوبيس النقل العام ومعه حقيبة كبيرة من الجلد، يلبس بنطلوناً أسود وقميصاً رصاصيًا، ونظارة شمس سوداء. تركت ما في يدها وتعلقت به. أمرت إحدى البنات يحمل الحقيبة على رأسها وإيصالها إلى الدار، وتعلقت بذراعه. كانت تضحك، ووجهها مشرق وتنادي أهل الدار قبل أن تصل إلى السلم.
الشيخ في غرفة الجلوس متدثراً بعباءته السوداء، رغم أن الشتاء ما زال بعيداً، ساكناً على الكنبة. قضى الصباح في الشرفة يقلب صفحات كتاب تفسير الأحلام بعد أن قرأ ورده اليومي من القرآن، حائراً في تفسير حلم الليلة، وعندما سمع صوت فاطمة وصخبها عرف أن نعيم أنهى خدمته العسكرية وخايله ارتباط غامض بين حلم الليلة وبين ظهور نعيم في الدار.
كان قد حلم بجلابيب من الكشمير في سوق خالية، معروضة على حبال بجوار حائط الجامع الأحمدي، تهتز مع الريح، وظل وقتاً يفكر في صوف الكشمير، ثم في كشمير البلاد البعيدة التي تقع في آسيا، ثم فكر أنه تمنى أن يزور الهند وباكستان. كان قرأ شيئاً عن المهاتما غاندي، أيام زمان عندما كان يلف البلاد. قرأ عن رحلته إلى بريطانيا، وحفاوة الإنجليز به، وطريقته الحكيمة في الكلام، وقتها كان شاباً في قلبه غصة لأنه ترك التعليم، يلف البلاد يقيس الأرض ويكتب العقود. هناك شيء طيب في سيرة غاندي، أحبه دون أن يتعمق في فهم آرائه. في الحلم كانت هناك رائحة قرنفل، ربما آتية من محلات العطارة في درب الأثر القريب من المقام الأحمدي. الآن وهو ينصت إلى الصخب الذي تثيره فاطمة تلاشي الحزن الذي صحا به من النوم، وأدرك أن الجلابيب التي تهتز مع الريح تنادي من فارقوها، قد لا تعني الموت، بل ربما تعني العودة إلى الحياة، مثل عودة نعيم من العسكرية.
انطلقت زغرودة وفاطمة تنادي البنات في الدور المجاورة ليأتين بالشربات، تجاوبت زغاريد أخرى. كاد أن يهب من مكانه ليوقف هذا العبث، لكنه أمسك نفسه وقال: مالك يابن سليم، تريد أن تحبس أفراح الناس، اترك الغمة ترحل، غمة الحرب رحلت عن البلد وها هي ترحل عن الدار.

سلم نعيم على أبيه بالطريقة المتحفظة لأهل الدار، وجلس بجواره. قال بصوت خافت: حمداً لله على السلامة يا ابني. جاء مذاق "يا ابني" بسيطًا وهينًا، طبيعيًا، لم يكن فيه الهوان ولا الرخاوة التي تخيلها الشيخ ملتصقة بهذه الألفاظ. كان لفظًا دافئًا حنونًا، مثل انطفاء حرارة الشمس في يوم صيفي.
تركهم ينصرفون إلى داخل الدار، وسمع أصوات أولاد نعيم يمرحون، ورأى زوجته تحمل طفلها الرضيع وترفعه إلى أبيه. سمع صوت الزغاريد مرة أخرى، وشعر باضطراب، ربما الخوف من المجهول، الخشية الغامضة من الأيام المقبلة.
في الليل جاءت الست كوثر ونور الدين ومعهم سلة من زجاجات الشربات. وجه الست كوثر مشرق. قالت بمرح وهي تدخل الدار: "اعمل حسابك ستزور الشيخ صالح يوم الجمعة ونزور سيدنا الحسين". كانت مرحة كأن أفراح بيت الشيخ أفراحها. قبل أن تغادر الدار، طلب منها أن تجلس قليلاً، وسألها بتوتر: "خير؟". كان يعرفها، لا تقول كلاماً مجانيًا. مالت عليه قائلة: "الشيخ صالح جاءت له بعثة إلى غرب أفريقيا. اتصل بي يستشيرني. كان مترددًا لكني شجعته وقلت له سوف أكلم الشيخ".
استند بظهره على المقعد وقال: "الخيوط كلها تفلت يا ست الكل". قالت: "يا شيخ عبد الرحمن الحياة أوسع مما تظن، اسمع! لقد رشحوه للبعثة وان سافر فسيكون ذلك في العام القادم. ما زال هناك وقت، لا تقلق، أعرف أنك تريدهم حولك، ولكن للحياة تصاريفها، اتركها تفعل ما تشاء يا شيخ". ونظرت إليه بمودة.
أدرك معنى آخر للحلم، لم يكن قد انتبه له. الجلابيب الخالية تنادي من رحل عنها، تحمل معنيين في الوقت نفسه، عودة نعيم ورحيل صالح. جلابيب خالية تهتز مع الريح. ظلت الصورة تناوشه وهو يقرأ المعوذتين وآية الكرسي قبل النوم.

***

بعد عدة أشهر من استقرار "نعيم" في الدار، وعمله مدرسًا في المدرسة القديمة، طلب الشيخ ذات ليلة من "نبية" أن تسلمه مصاريف الأرض والدار. قامت متصلبة الجسد وجاءت بالصندوق الخشبي، ودفتر الحساب. سيطرت على رعشة أصابعها وهي تشير إلى المصروفات وما تبقى وتعد النقود وتسلمها لنعيم، ومن فورها قامت ودخلت غرفتها وأغلقت الباب على نفسها.
لم يحسب الشيخ أن هذا القرار البسيط الذي يعد له من زمان سيكون له هذا الأثر الفادح على الدار؛ فقد انتظر خروج "نعيم" من الجيش لكي يترك له الحساب ولعبد الله تصريف شؤون الأرض، وينصرف، فيما تبقى له من وقت، إلى التأمل والعبادة وتسيير مصالح الناس إن استطاع. ذلك هو الحل الذي تصوره لما أصابه من وهن، وظن أن ذلك سيوقف قليلاً حيرته وارتباكه أمام ما يحدث؛ فأحيانا يشعر بشيء خشن في مفاصله، ويصيبه العجب والخوف أحياناً من أحلامه التي أخذت تتحرك في اتجاهات لا يمكنه فهمها مهما حاول، وبعد انتهاء الحرب، راحت الحياة تباغته كل يوم بأمر جديد لم يعمل له حسابًا. هناك شيء يفلت من فهمه، كما قال للست كوثر بعد خروج نعيم من العسكرية.
اعتزل تقريباً الحياة العامة وقعدات رجال البلد، وعندما تحول الاتحاد الاشتراكي إلى "منابر"، عرف أن الحياة تتحرك بعيداً، وقرر أن يترك كل شيء، حتى عضوية الجمعية الزراعية تخلى عنها وإن ظل الناس يقصدونه للنصيحة ولتصريف الشؤون، وظل على تماس مع أعمال صرف السماد والتقاوي وتعديل المديونيات، متطوعًا، لكن الأيام لا تخلو من الأمور الصعبة الجدية، عندها يشمر ذراعيه ويحضر تركيزه وتصحو في عينيه نظرة يقظة ظنوا أنها قد انطفأت.

***

بعد ليلة تسليم المصاريف النعيم، انقلبت الدار. جاءت فاطمة وقضت اليوم مع النساء، وبعد يومين جاءت فادية من مصر. الشيخ يدرك أن هناك شيئاً غريبًا، لكن لا أحد يطلعه عليه، وهو لا يطلب. بعد عدة أيام طلب تفسيرا من فاطمة. قالت إن نبية مريضة. صمتت قليلاً ثم قالت بصراحة:
"أبعدت ست الدار عن مكانها، كلنا سندفع الثمن".
تقدر فاطمة طيبة أمها وتعرف أنها لا تصلح لإدارة الدار، ورغم ذلك شعرت بأن ما حدث من انفراط سببه أن النساء لم يعد لهن كبير. لا بد من ذلك حتى ينتظم العمل في دار مسؤولياتها كبيرة، وحاولت أن تقوم بهذا الدور، قدر ما تسمح به شؤون دارها. بقي في مرض "نبية" شيء غامض، لم يحاول الشيخ أن يتبينه. كان يشعر بأن به شيئاً كريهًا، لا يجب أن يطلع عليه.
حديث "فادية" مع أمها كان حاسمًا. قالت لها إنها لا يجب أن تهيل التراب على رأسها وعلى الدار بهذا الشكل، فلا يصح أن يكون ابن الشيخ المتعلم موجودًا وهي تظل محتفظة بالحسابات وتدبير الشؤون. هذا عيب. لكن "نبية" لم تكن قادرة على السيطرة على نفسها. تشعر بنقمة تجاه نصيبها وقدرها، وبظلمٍ فادح. لِمَ هي من بين النساء التي يموت زوجها، وتبقى وحيدة؟ وعاد موت زوجها ليطل برأسه طازجاً.
بعد سفر "فادية" تفاقم مرضها والتزمت غرفتها. لقد خذلتها ابنتها التي طلبتها كي تعضد موقفها. ظلت راقدة في غرفتها، ولعدة أيام لم تتمكن من حلب الجاموسة. جاموستها أقدم بهائم الدار، وقد اعتادت "نبية" ولا يتمكن أحد غيرها من حلبها. هذه المرة زاد عنف البهيمة المتعاطفة مع صاحبتها، ورفضت كل محاولات النساء الاقتراب منها. بدأ التوتر. الجاموسة يمكن أن تتأذى بسبب حصر اللبن في ضرعها.
في ظلمة المساء، في غرفة الضيوف، أدرك الشيخ الأمر. قال بزهق لعبد الله:
"ابعت هات أختك".
جاءت فاطمة وارتدت أقدم جلابيب "نبية". الجلباب الذي تستعمله في العمل، وتفوح منه رائحتها. لفت الطرحة حول وجهها حتى أخفته، لم يعد يظهر منها غير العينين، وتشبهت بحركات نبية، لتتمكن من خداع الجاموسة المعذبة. أخيراً وبعد مناهدة تمكنت من حلبها، وقضت عدة أيام تأتي إلى الدار لكي تساعدهم في العمل، لكن مرض نبية استمر وقتاً أطول من اللازم. اصفر وجهها، ونحل، وأخذ النحول يدب في جسدها الفتي، ولم تعد تتناول من الطعام غير القليل، ثم زاولت أعمالها بنفس مصدودة، وبدأت تسير في البلد وتتحدث لأقاربها عن ظلم الشيخ لها ولأولادها. كانت بارعة في تصوير المظالم التي تتعرض لها، وعندما سمعت فاطمة ما يقال في البلد، أخرست الألسنة وقالت لها في المساء:
"قولي كما تحبين، الناس تعرف أنه لم يظلم أحداً وأعطى للكل بالمكيال نفسه".
واقعة مرض نبية ومشيها في البلد تتحدث عن الظلم، تركت مخاوف غامضة في نفس الشيخ. لم ينفع معها عزاء فاطمة أو الست كوثر يصمت أمام حديثهما متطلعًا إلى كف يده، أو ماسحًا وجهه بها كعادة رافقته حتى نهاية حياته.
يفكر في تلك الوقائع ويدرك أن الأمر مختلف هذه المرة. الحياة تتغير بسرعة لم يعتدها، والتفاصيل التي كانت غير مرئية في السابق غدت متضخمة في ظهورها وزوالها، تثير قلقه، وتتلون في خياله، وتشق طريقها إلى أحلامه. تظهر متخفية في أردية قديمة، يتعرف عليها بصعوبة داخل نتف من تفاصيل شديدة القدم من صباه في أثناء الحرب الكبرى الأولى، عندما كان يتنصت على أحاديث الكبار في مندرة الشيخ راضي عمدة البلد، وقتها كان يحمل المصحف ويذهب إلى كتاب الشيخ مصيلحي. جعلت هذه التفاصيل أحلام تلك الفترة غريبة، وجاءت صور قديمة لا يعرف موضعها في الزمن: أمه

تجلس أمام الكانون وتنادي، وجه أبيه جاد وصارم في يوم صيفي يحمل حزمة كبيرة من القمح على كتفه. رجال يشقون حجارة في الجبل تحملها مراكب في النيل، وشجرة سنط في طريق عزبة النخل، وقطار سريع يتركه في المحطة ويثير غبارًا، حنطور الست كوثر بكسوته الحمراء ينتظره أمام الدار، لكنه لا يجد طريقا إلى الخارج.

اعترف لنفسه بأن تلك الفترة محيرة، ولم يتمكن، كالعادة، من أن يعتبر ما يحدث من طبائع الأمور. أخفي حزنه من رغبة صالح في السفر، واعتبر فرح الست كوثر علامة على الطريق السليم، لكنه فكر طويلاً أن أولاد صالح سوف يعيشون في أجواء مختلفة. لن يعرفهم ولن يعرفوه. سوف يضيع منهم وسوف يضيعون منه. هذا الأمر، الذي ظنه كل من حوله بسيطا، كان مذهلا له، هانت بجانبه تغيرات تأثر بها، لكن على نحو أقل حدة، مثل تحول الاتحاد الاشتراكي إلى منابر، ورغبة نور الدين في أن يحل مكانه في تلك المنظمات. حاول ترويض نفسه على قبول هذه الحوادث غير أنه لم يتمكن من هضم أمور بدت للناس مرحة وفتحت لهم أبواب الأمل، أكثرها غرابة أن يتوقف رش الأرض بالمبيدات عن طريق المواتير والرشاشات المحمولة على الظهر ويبدأ الرش بالطائرات، والأمر الثاني هو ظهور جهاز الكاسيت الذي اشتراه نعيم في صيف عام 1975.

هذه الأمور في بدايتها، قبل أن يعتادها الناس، تصاحبها دهشة مرحة وتعجب من تقلبات الزمن. من كان يظن، قبل سنوات قلائل، أن الطائرات التي تحارب، وتحلق بعيدًا، مثيرة للرعب، سوف تكون بهذا القرب والألفة، لدرجة أن يرى الناس الطيار، جالسًا بفانلة حمالات ونظارات سوداء. يمكن أن يركبوا الحمير ويذهبوا ليتحدثوا معه في المطار الذي أُعد في حقل ذرة في قرية مجاورة. من كان يظن أن أصواتنا السائلة في الفضاء التي تتبدد إلى الأبد، سوف يأتي وقت تصان وتحفظ على شريط يمكن إدارته فيستعيد المرء مرة أخرى ما بدده الزمن؟

هذه الأعاجيب فعلت فعلها في الشيخ، بشكل مضاعف عمن حوله، وهزته بعمق وتخايلت، في لحظات، على أنها من جنس الأحلام والصور، التي تتراءى في أثناء النوم. يقاوم بشدة أن يفلت منه الزمام كي لا يصدق أن الحياة مجرد حلم، لكنه يتساءل في أكثر لحظاته شروداً: من أدرانا أننا لا نعيش في حلم؟ يعاند بقوة، ويشعر بهذه الأمور الغريبة تقترب من حد الصدمة، ولا يفارقه اليقين بأن ذلك يحدث له، لأنه عرى جذوره يوم أن هدم الدار.

***

عندما انتهت الحرب عاد شباب الفلاحين إلى قراهم، وقد غيرهم الجيش. لم يعرفوا قبل تجنيدهم غير فلاحة الأرض، ولم يخرجوا من بلادهم إلا للموالد في القرى المجاورة، أو زيارة سنوية إلى طنطا أيام مولد السيد البدوي، وأكثرهم جرأة تخطى الحدود وسافر لزيارة سيدنا الحسين أو السيدة زينب، ما عدا ذلك كان العالم محدودًا بالنسبة لأغلبهم. في أثناء التجنيد من عام 1967 حتى عام 1974، سافروا إلى بلاد بعيدة ورأوا بشرًا وحارب بعضهم في الصفوف الأمامية، بعضهم عاد جثمانًا وبعضهم عاد مريضًا، أو بعاهة مستديمة، وبعضهم عانى طويلاً الحصار في كبريت، أو في البحيرات المرة، لكن الأغلب تعلم أشياء جديدة: قيادة السيارات، اللحام والحدادة والميكانيكا، والنجارة والبناء. كانوا قد ارتدوا البدلة الميري، ولم يعد الجلباب الفلاحي يليق بهم. لم يتأقلم الكثير منهم مع وضعه القديم وترك البلد ورحل ليعمل في الشركات في المحلة والقاهرة والإسكندرية، بعضهم عمل في شركة المقاولين العرب، وبعضهم عمل سائقا أو باع نصيبه من الأرض واشترى سيارة أجرة. تبدل الحال، وبعد سنوات قليلة سوف يغادر أغلب هؤلاء إلى العراق والخليج وليبيا وبعضهم سوف يعبر البحر إلى الجهة

الأخرى من العالم.
ليس وهمًا هذا التغير الحثيث الذي يشعر به الشيخ، ويحبسه بين طيات قلبه، خائفا أن يصارح به أحدا. يحاول أن يعثر على مرادف لما يشعر به، بلا جدوى، يعجز عن تفسير مشاعره، ولا يتمكن من التوافق مع قلقه. هذه أيام التحفز والمرح، والحس بأن الحدود المغلقة قد انفتحت. تغيرت الدنيا وأصبحت لعبًا، لم يعد لها مرارة أيام الخوف من أرض النخيل التي تمتد من غرب البلد إلى آخر حدود الدنيا، ولا أيام الفرح في الخمسينيات، عندما بنت حكومة الحركة المباركة الوحدة المجمعة ومرشح المياه العذبة الذي ما زال يقف في صدر البلد مثل شيخ بعمامة، ولا سنوات الهزيمة وانتظار الحرب. تحول طعم الحياة إلى لعب، يكفي ظهور الطائرات ترش الأرض، تحوم وتهبط وترك غلالة ملونة على حقول القطن والأرز. بهذه الطريقة لن يكون للناس في المستقبل أي دور في الزراعة فكل شيء سوف يحدث من تلقاء نفسه، ما عليهم إلا أن يضعوا البذرة في الأرض، والآلات سوف تعمل كل شيء. أيام غريبة ظن فيها الناس أنهم سيقضون باقي عمرهم يلعبون "السيجة" على المصاطب ولن تكون الأرض في حاجة إليهم.

***

من شرفة بيته يراقب الشيخ صخب المساء. الحمير تحمل البرسيم عائدة من الغيطان، والناس في الطريق إلى الدور بعد يوم عمل هين. يرد السلام عليهم، ويشعر بالبرد، لا في جسده بل في منطقة غائرة من النفس. في لحظات خاطفة، تدركه المخاوف ويلاحظ القشعريرة التي تتوارى بسرعة، لا تظهر على الجسد بل في الأعماق السحيقة. قال في نفسه إنها أعراض التقدم في العمر: "أصبحت في الثالثة والسبعين يا شيخ عبد الرحمن". كنا في الشتاء لكن هذا الشعور بالبرد استمر في الصيف، عندما جاء صالح يسلم عليه قبل أن يسافر إلى نيجيريا، وفي العزلة المسائية بين صلاة المغرب والعشاء، وقت التأمل القصير، الذي يقضيه في ظلمات غرفة الضيوف، يعيد ترتيب الأمور، يحاول أن يتوصل إلى المناطق التي تشكل قلقه، يحاول بكل طريقة أن يصلب عوده في قلب تلك السنوات المدوخة.
ذات يوم سمع صرخة آتية من جوف الدار. كان يقضي قيلولة قصيرة. فتح عينيه وأنصت. خيل إليه أن الصرخة آتية من أحلامه. اعتدل في فراشه وقام ليصلي العصر مستعيدًا حلمه بغيط قمح واسع تغرب عنه الشمس. لم يكن هناك أحد حتى "سعاد" زوجة نعيم ليست في غرفتها، ولا الأولاد. لا أحد، كأن البشر اختفوا من فوق الأرض.
تكررت الصرخات الخاطفة دون أن يعرف مصدرها، واستجابت لها القشعريرة الداخلية. ظل جالسًا ينصت إلى تنفسه. تأتي الصرخة بعيدة خافتة كأنها من بيت الجيران. لم يسأل، ولم يخبره أحد بما يحدث. في المساء سأل فاطمة عن الصرخات التي يسمعها كل فترة، فماطلت في الإجابة على غير عادتها، ورأى لمعان الدمع في عينيها. فهم أن الأمر يخص بيته، وكعادته لزم الصمت، ومسح بيده على وجهه لأنه سوف يعرف لا محالة.
في مساء آخر، سمع صخبًا في الدار. قالوا إن ثعبانًا تسلل من سقف الزريبة وهاجت البهائم، وجاءت الصرخات من الداخل. لحسن الحظ، كان عبده شمس في الدار، فقضى عليه. خرج الشيخ من عزلته ووقف في الباب الذي يصل الدار الجديدة بالدار القديمة ورأي ما أحزن قلبه لفترة طويلة. زوجته خديجة بدون منديلها، شعرها الذي غطاه الشيب منثور، محلول الضفائر حول كتفها. تصرخ بلا انقطاع تلك الصرخات التي يسمعها تتردد وتتلاشى. نقول مذهولة: "أنا قلت لكم الدار مسكونة، قلت لكم ولم

يصدقني أحد". دخل عزلته مرة أخرى، حزينًا، فقد عرف أن الصرخات التي يستجيب لها باطنه هي صرخات زوجته.

***

في صيف عام 1976 عادت الست خديجة من طنطا عليلة، تنظر باستغراب إلى ما حولها وتسأل عن أشياء فات زمانها مثل المنخل القديم الذي تركته لها حماتها، أو فردة الخلخال الفضة التي باعتها في أثناء عمل الزار لنعيم. لا بد أن السنوات السبع التي قضتها في المدينة بعيدة عن دارها قد أثرت عليها، ورغم أنها عاشت هناك حياة طيبة، فقد قدر الناس طيبتها، وصاحبت أم فريد حماة ابنها نعيم وسميرة والست الكبيرة في بيت عابد. صاحبت الناس في شارع المؤيد وشريف وراغب باشا غير أن أحزانها كانت تظهر ثقيلة عندما تعود في الإجازات، تبدو مثل الغريبة، لا مكان لها في الدار، ولا حتى في خزانة اللبن. وربما طريقة تفكيرها هي التي عصفت بعقلها، أو ربما رأت المخاطر أكثر مما يراها الشيخ الذي يُظهر عناية مفرطة بالبصر.

بدأ أهل الدار ينتبهون إلى أنهم ما إن يتركونها وحدها حتى تبدأ حديثاً مع نفسها، تستعيد فيه حياتهم وحياتها، باستغراق كأنها تراجع ملفاتها الخيالية، وتقوم بما يقوم به الشيخ في ملفاته الورقية. لكن الأمر تطور على نحو مفاجئ. ذات يوم وضعت رأسها على فخذ فاطمة بعد أن حلت منديل الرأس وطلبت منها أن تفَلّي لها شعرها، مساء صيف تمددت فيه على حصيرة في طرف الدار، الضوء يتوارى عن سماء بعيدة داكنة الزرقة والهواء راكد.

قالت فاطمة:

"شعرك فل، لافيه قملة ولا نملة".

"طول النهار أهرش في رأسي".

"تعالي أحميك".

"لا لا لا، بُكرة".

ثم رفعت رأسها من فوق فخذ ابنتها وصرخت صرخة عميقة مرعبة، كأنها رأت شيطانًا، ثم شردت عيناها، وغابت عن نفسها. "أمه مالك يا أمه؟" ظلت فاطمة تكرر السؤال وتهزها كأنما توقظها من حلم استولى عليها فجأة، وأمها تتحرك في يدها طيعة مثل قطعة من اللحم خالية من الروح.

أضمرت فاطمة الأمر في نفسها وظنته حدثاً عابرًا، خاصة أن الأم عادت من الغياب بعد قليل وتطلعت حولها بفضول كأنما رجعت من سفر طويل. لم تتمكن فاطمة من فهم ما حدث، بعد أن مضت عدة أيام ولم تظهر تلك الصرخات. تسأل أمها عما حدث لها، لكنها لا تتذكر شيئا، لا تتذكر أنها قد صرخت من الأصل. ذات يوم كانت تبيت الفراخ في المغرب، وجاءت الصرخات نفسها من أمام الخزانة حتى إن الفراخ تطايرت في الهواء، وعلا نقيقها. ظلت في جلستها أمام الخزانة المفتوحة غير موجودة. توجهت فاطمة إليها بسرعة ووجدت أمها تحدق في الحائط كأنما ترى أشباحًا. احتضنتها وأخذتها لتنام في دارها تلك الليلة.

حاولت أن تفهم منها ما يحدث لها لكن الست خديجة لم تكن تتذكر شيئاً. الغريب أنها في اليوم التالي تعيش بطريقة عادية كأنما لم يحدث شيء. قلب فاطمة ظل منقبضًا، تنصت في كل حين إلى الأصوات السائلة في الفضاء، منتظرة أن تصدر صرخة أمها. حاولت أن تقنعها بأن تعيش في دارها لكنها فضلت بيت أختها "سرية"، فالدار قريبة، والسطح بين الدارين ما زال مفتوحًا، رغم بناء الدار الجديدة. قالت إنها تستريح عند "سرية" وفي الوقت نفسه قريبة من دارها.

لأول مرة يقلق الشيخ عليها، ويسأل عنها الأولاد: "أين ستكم خديجة يا أولاد؟" يردون كأن الأمر أصبح طبيعيّا: "عند ستي سرية". وجدت راحتها عند أختها التي رعتها بمحبة، وقضت أغلب أيام هذا الصيف تجلس على السطوح وتحل شعرها الأبيض وتفرده وتمشطه، وتنادي أي بنت من أحفادها لتُفلّيها، وفي لحظة غير متوقعة تطلق صرخة حادة، ترعب من حولها وتستمر فيما كانت تقوم به قبل الصرخة بطريقة عادية. يقولون إن روحها الطيبة تأثرت بعيشها بعيداً عن دارها، يقولون إنها لم تتحمل أن تعيش غريبة في دارها، لكن الشاهد أنها بدأت تنفصل تدريجيا عما حولها، وتعيد تفسيراتها الخاصة لسيرة الدار.

لا يعرف أحد أين تعلمت هذا الكلام، وهي التي لم تذهب إلى الكتاب ولم نقرأ يوما في كتاب أو جريدة. فسروا الأمر بأنها من نسل طيب، نسل سيدي عبد العال. كارثة نزع الأرض كانت من وجهة نظرها تصفية لروح الدار من شوائب ومظالم وخيانات حدثت بعيدًا عن الأعين، وجاءت لتطهر الروح، ولهذا لا يجب أن يقول المرء إنها كارثة، وظلت تنهر أحفادها عندما يكررون ما قيل لهم ويصفون هذه السنوات بالسنين السوداء. تقول إنها كانت "منخل" صفى روح الدار من الشوائب، وتحكي لأحفادها في ليل الشتاء الطويل في شقة شارع المؤيد في طنطا، أنها ما ناحت مثل حماتها بسبب ما حدث. كان لديها يقين بأن أيامًا طيبة قادمة وعندما قالت ذلك للشيخ لامها لأنها طيبة أكثر من اللازم. كانت حزينة لأنه استخف بها وبطيبتها طول العمر، وعندما ذكرته بما قالته زمان عندما عاد العز إلى الدار في الخمسينيات، قال أيضاً إنها طيبة أكثر من اللازم. وبمثل هذه الطريقة ترى أن موت علي سليم سببه الشياطين التي تسكن جسد زوجته، ورسوب نعيم في الثانوية وغرامه بالغجرية كان نزاعاً بينها وبين "من لا اسم لهم". في مرضها الأخير، كان يظن أن الخطايا تراكمت، ونحن في طريقنا إلى طور ثان من أطوار التطهر، رحلة أخرى، كارثة أخرى، فقد تكاثرت الذنوب، وأصبحنا في نهاية العالم.

لا تكف عن هذه الحكايات عندما تكون وحدها أو عندما يجلس بجوارها أحد أفراد الدار، وبدا واضحا أنها لن تتمكن من السفر هذا العام مع الأحفاد، فسافروا وحدهم لأول مرة منذ سبع سنوات.

***

سمعوا صوت "سعاد" واضحاً خلف الباب المغلق لغرفة نعيم:

"خلاص قرفت".

***

في الصباح رغب "علي" الابن الأكبر لنعيم أن يسرح إلى الغيط مع الجمال التي تحمل الأرز من أرض عمته فاطمة. رفضت "سعاد" وأصرت أن تصحب الولد معها إلى المدرسة. فقد وصل إلى الخامسة من عمره، وأصرت ألا ترسله إلى الكتاب مثل أولاد الفلاحين، وقالت بحسم بأنها ستعلمه بنفسها، لكن الولد غافلها وهرب، وذهب مع أولاد عمته ليركب الجمل.

عادت من المدرسة في الظهيرة. صعدت سلم الدار، شعرها الناعم متناثر على كتفها ووجهها القمحي به مسحة غضب، تصاعد إلى ذروته عندما رأت طفلتها الرضيعة "ثريا" ترقد في حجر الست خديجة على الكنبة في الصالة يلتم الذباب على وجهها. بحثت عن طفلها الثاني عمر في الدار التحتانية، وعرفت أنه شبط في أخيه وذهب هو الآخر إلى الغيط. عادت تصعد السلالم الموصلة بين الدارين صدرها يرتج وغضبها حام. في تلك اللحظة كان نعيم يدخل من باب الدار، ويطلب من أمه أن تقوم لتنيم البنت على السرير. انفجر غضب سعاد عندما رأت زوجها هادئًا لا يشعر بمصيبتها كما قالت،

وارتفع صوتها وهي تخبره بأن الأولاد في الغيط، كأنما وقعت كارثة.
غام وجه نعيم، من الصدمة. كيف ترفع امرأته صوتها عليه وسط أهله. كل من الدار يتحسب من غضبه، فلا يعرف في أثنائها أباه من أمه. اكفهر وجهه وسحب سعاد من معصمها إلى داخل غرفته وهو يكز على أسنانه ويقول: "إن رفعت صوتك مرة ثانية فسأقطع لك لسانك". الجملة حاسمة وفي وجهه تتحرك العفاريت التي يعرفونها. توتر الجو وسمعوا الصياح داخل الغرفة المغلقة وسمعوا الجملة: "خلاص قرفت. خلاص لن أعيش هنا". "ستعيشين هنا ورجلك فوق رقبتك". صوته واضح وهو يخرج الكلمات ويكز على أسنانه في الوقت نفسه. سكت كل شيء لحظة، ثم سمعوا الصفعة، والصرخة التي تلتها.
يعرفون غضب نعيم من زمان، عندما كان يمزق الكتب والمصحف والثياب، وكاد أن يحرق الدار ذات يوم. لم يشذب جموحه غير الجيش، لكن الجنون الكامن في روحه، يظهر ساعة الغضب. الخلافات البسيطة التي شابت علاقته بزوجته، حلتها شخطة تتكوم بعدها "سعاد" بعيدا عنه، فقد حفظت وصايا حماتها التي حذرتها من أنه يخرج عن طبعه ساعة الغضب.

***

بعد سنوات الزواج الأولى، انكشف ما بقي مستورًا. سعاد فاض بها. لن تعيش في البلد. بدأ الأمر برحلات إلى بيتها في طنطا، تغيب هناك يوما أو يومين، ثم سفرها مع العيال لتقضي أسبوعا عند أختها في الإسكندرية، ثم أسبوعًا في القاهرة عند أخيها الذي يعمل في التليفزيون. لم تعد تستطيع، خلاص، أن تعيش هنا. ذات ليلة حذرها نعيم:
"إن طاوعت كلام أختك، فلن تري العيال في حياتك".
منذ أسابيع قالت فاطمة للشيخ: امرأة ابنك شدت حيلها، وأختها في إسكندرية تشجعها، لن نعيش هنا، وأبلغته أن نساء الدار يشكين من أنها لا تشاركهن العمل، تقول إنها تعطي مرتبها بالكامل لزوجها.
أهان الشيخ أن يقال الأمر بهذا الشكل. في تلك الليلة طلب نعيم وسأله:
"هل تأخذ مرتب زوجتك؟"
قال نعيم ببساطة:
"طبعًا".
رد الشيخ بحزم:
"من أعطاك الحق؟"
قال نعيم بسرعة:
"خلاص تقعد من الشغل".
نظر الشيخ إلى وجه ابنه ومالك غضبه:
"من الأول كنا اشترطنا على أهلها أنها لن تعمل، ولهم أن يختاروا، أما ما دمنا وافقنا أن نأخذها وهي تعمل، فلا يحق لك أن تحرمها من راتبها".
ثم قال بحسم:
"أعطها الراتب. تحتاج إلى لبس وسفر وتشتري لأولادها حاجات؟"
قال نعيم:
"ألبي كل طلباتها".
رفع الشيخ كفه منهيّا الحوار:

"أعطها الراتب".
يومها فرحت سعاد، واعتبرت هذا أول إنصاف لها من يوم زواجها.
لا أحد ينكر أنها تحب نعيم، وقد قالت ذات يوم إنها تحب التراب الذي يمشي عليه. لكن الحب شيء وتدبير الحياة شيء آخر. اضطر نعيم لأن يتفاهم مع زوجته بشأن الراتب. يعطيها نصفه ويدخر النصف الآخر في دفتر توفير لاحتياجات الأولاد، لكن ذلك لم يمنع قرفها من الحياة في الريف، وظهر هذا القرف عندما اشتكت نساء الدار من أنها لا تشاركهن العمل. قالت الست خديجة ذات يوم وقد راح عنها شرودها: "مدرسة سوف تخبز، وتكنس تحت البهائم؟" وعالج الشيخ الأمر بطريقته. قال لنعيم: "امرأتك تخبز مع النسوان، وتترك لهن الباقي".
لكن الأيام أوضحت أن "سعاد" لا تتوقف عن تبرمها، وأظهرت سماتها العصبية، فلم تكن مستعدة للتنازل عما تريد. كراهيتها للبلد ارتفعت نبرتها مع الوقت. تحتقر الريف بكل ما فيه: البيوت الطينية والذباب والناموس، وغرفة المعاش وحديث الناس بطريقة غامضة. قالت مرة: "الناس هنا كالأشباح، خيالات، يدورون حول أنفسهم طول النهار كأنه يبحثون عن شيء مفقود، ورغم أنهم لا يعملون كثيراً، لا تجدهم يجلسون لحظة واحدة إلا بعد العشاء، يسندون ظهورهم إلى الحائط ويتثاءبون في انتظار النوم". الأغرب بالنسبة لها أنهم يكبسون عليك ويضعون أنفهم في حياتك. يسخرون من كل ما يخالف عاداتهم، ويتهكمون على طريقتها في المشي والأكل والكلام. طهقت، ولم تعد قادرة على التحمل. في يوم آخر قالت لعمتها فاطمة بوضوح: "هذه ليست حياة".
بالطبع لا يمكن مقارنة حياتها هنا، بحياتها في طنطا، فلا زيارات عائلية ولا سينمات، وفسح ورحلات للشراء من المحلات الشهيرة، وكهرباء وتليفزيون وسهر في الشرفات، لا شيء هنا غير المدرسة في الصباح، ثم أعمال الدار، ثم النوم. حياة جافة تقصف العمر. وصرحت ذات يوم بأنها لا تستريح في هذا البيت إلا للست خديجة. كانت تخشى الشيخ رغم أنه أنصفها عدة مرات، وترى فيه متجبرًا. تقول إنها عانت ست سنوات، حتى وصل ابنها الكبير إلى الحضانة وكان لا بد أن نقرر الرحيل.

***

تعالت صرخات سعاد من خلف باب غرفتها: "ألحقوني هاموت". لم يكن الشيخ في الدار. أمرت "نبية" أحد الصبية أن يذهب جريًا وينادي عمته "فاطمة"، وإلى أن تأتي "فاطمة" راحت تطرق الباب وتنادي "نعيم"، لكن الصرخات لم تتوقف. جاء جنون نعيم القدم، وتجمع الناس في الخارج. أول مرة تخرج تلك الأصوات من دار سليم. جاءت فاطمة جريًا من دارها، وقبل أن تصل إلى الباب، طردت من يقف خارج الدار، وخبطت بكلتا يديها على النافذة التي تطل على السلم وقالت بصوتها المبحوح القوي:
"افتح يا نعيم افتح الباب باقول لك".
رأوا نعيم يخرج من الباب ويلقي بحقيبة جلد كبيرة في الصالة ويتبعها بكل ما يجد من ملابس زوجته، ويقول بصوت واضح:
"غوري من هنا، لا أريد أن أرى وجهك".
دخلت "نبية" الغرفة وحاولت أن تهدئ سعاد. أصابع "نعيم" تركت أثرها على الوجه الغض. يده الغليظة التي تشبه يد الشيخ تركت علامات زرقاء هنا وهناك. حملت البنات الأولاد إلى الخارج، وأرسلوا ليأتوا بسيارة من الموقف تحمل "سعاد" إلى بيتها.
وجاء الشيخ في المساء وحكت له فاطمة ما حدث، لكنه كان يعرف فقد رأى السيارة التي ركبتها سعاد إلى طنطا. في تلك الليلة نام العيال في حضن الست خديجة، الطفلة الرضيعة هي التي تعبت من البكاء،

وبعد يومين سافر الشيخ ومعه نور الدين إلى طنطا وعادت سعاد، وفي وجهها لا تزال بقايا العلامات الزرقاء.

***

كان الشيخ يجلس على مقعد خشبي بجانب باب المخازن في الجمعية الزراعية في صباح يوم شتوي، و"حجازي" أمين المخزن يميل تجاهه ليستشيره في أمور الصرف. عدد من الرجال يجلسون على الأرض في الساحة الواسعة بعد أن ربطوا حميرهم في حديد البوابة أو في شجرة السنط. يومها تطور النقاش بين الشيخ وبين شاب يريد أن يصرف الكيماوي رغم المديونية القديمة، إلى مشادة، انتهت بأن قال الشاب:
"لا بد أن تأكل حقنا. ألم تأكل حق علي سليم".
كان الشيخ قد جاء متطوعًا حسب طلب أعضاء الجمعية، حتى يصرّف الأمور، ولم يكن هناك ما يبرر هذا الهجوم. يعرف الحاضرون أن الشاب متبجح يريد أن يصرف بالعافية رغم المديونيات المتراكمة، لكن السهم أصاب الشيخ في الصميم.
ما زال قادراً على إخفاء توتره والتماسك. مال تجاه "حجازي" وسأل بصوت سمعه الحاضرون:
"من هذا الولد؟"
قال حجازي:
"ابن السباعي".
رجع الشيخ برأسه إلى الخلف، وهو يوحي بأنه يراجع أمراً صغيراً، يتذكره المرء بالكاد، ثم نظر تجاه الشاب وقال بصوت سمعه الرجال:
"آه السباعي الذي كان يمشي في البلد طيزه عريانة؟"
ضحك الرجال، وتبادلوا المزاح مع الشاب الذي انصرف غاضبًا. مازال قادراً على الرد السريع الحاسم، ورغم ذلك لم يهدأ قلبه، بل زاد توتره، لأنه حدسه قد صدق. منذ فترة يشعر بشيء مختلف في الجو، في نظرة الناس إليه وطريقتهم في التسليم عليه أو استشارته في الأمور الخاصة. توتر مكتوم ونظرات ذات مغزى. هناك شحنة قلق في الهواء لا يميزها لكنه يدركها، وظن أنها أوهامه، أو أعراض تقدمه في العمر، لولا هذا الصباح الشتوي الذي كشف له أنها سيرة حقيقية تسري في البلد. لا بد أن ضرب نعيم لزوجته قد سرى السيرة نفسها. ليتها كانت أوهامًا، لكنها سيرة داره على كل لسان. هذه طعنة في الصميم.
ظل جالسًا لا يقوى على الحركة حتى جاءه مرسال من بيت نور الدين يخبره بأن الست كوثر مريضة. عاد إليه انتباهه؛ فلم يكن قد تمكن من الذهاب إلى بيتها في الأيام الماضية، رغم واجب الاطمئنان عليها في غياب نور الدين الذي يحضر اجتماعات اللجان السياسية في القاهرة.
أخذه الصمت وهو يتابع صرف السماد، يحاور غضبه. كُشف المستور وها هي سيرة داره تلوكها الألسن. تفكيره الكدر يبحث عن ذلك الذي يتجول في البلد بسيرة داره. تحول الغضب إلى نقمة على نفسه وعلى البلد: كلها مصالح يا شيخ، مصالح. لا أحد ينتصر للحق، وهذا الولد الذي هاجمني لم يكن يقصد الانتصار لعلي سليم، كان يقصد استعمال السيرة في تصريف مصلحته.
بدأ تفكيره يصفو بمضي الوقت. قام مع بعض الرجال لصلاة الظهر وعاد يجلس على مقعده بجوار باب المخزن. جاء رجل مهيب من عزبة النخل، ومال على يد الشيخ يقبلها. يشكره على أمر لا يتذكره. نزع كفه من يد الرجل وأجلسه بجواره وطلب من حجازي أن يري طلباته. تحولت النقمة إلى حزن شفاف

بأنه غير مفهوم من أحد وأن كل واحد يبحث عن مصلحته حتى من يحاول أن يقبل يده. كل واحد يخدم مصلحته، لا تغتر يا شيخ، قال لنفسه، لا يقبل يدك من أجل سواد عينيك، بل من أجل مصلحته، أنت تعرف هذا.

***

في طريقه إلى دار الست كوثر في المساء، تذكر أنه لم يرها منذ أسبوع كامل. دخل الدار قبل المغرب. كانت سعدية قد جهزت له مقعدًا في مواجهة الفراش، وبينما تستعد لاصطحابه إلى الغرفة حسب اتفاقها مع سيدتها، رأت الست كوثر وقد تركت سريرها وجاءت لنستقبله. استندت على كنبة بلدي في الصالة وجلست متعبة. من فوره مد خطوته ليجلس بجانبها. حاول أن يتماسك ويمازحها بأنها تختبر غلاوتها، ويسأل سعدية عن ورق الجوافة وأعشاب الكحة لكي يهرب من رعشة هزت أعماقه.
الست كوثر ترتدي جلباباً منزليًا به زهور صغيرة صفراء، وتربط رأسها بمنديل أزرق، وقد ذهب عن وجهها كل بهائه. طيف من الرعب هبط إلى أعماقه واستقر هناك. لم يصدق أن يبدلها المرض على هذا النحو في أسبوع واحد. برزت عظام الوجنتين، شحب الوجه، غارت العينان تحت الحاجب الذي برز إلى الأمام، التجاعيد تحت العينين جسمت سنين عمرها، علامة واحدة تبقت، تشير أن ذلك هو وجهها: الضوء العسلي المشع من العينين.
طلب منها أن تعود إلى فراشها فهي مازالت تعبانة. أصرت أن تجلس برفقته قليلاً. لكن ذلك لم يستغرق غير دقائق، فقد بدأ السعال. لاحظت خوفه، فطمأنته وقالت إن سعدية غلت لها ورق الجوافة. كلها يوم أو اثنان وسوف تعود إلى طبيعتها. تشبثت المخاوف به أكثر. ليس من منظرها الغريب بل من استهانتها بمرضها. الموت يتخفي بأكثر الطرق بعدًا عن الأذهان، وفي الوقت الذي تظن أنه لا يمكن أن يكون هنا، يكون حاضراً. أعطته هذه المخاوف الشجاعة لكي يقول لأول مرة في حياته:
"الدخان يا ست الكل هو السبب، الدخان"
قالت بزهق:
"يا شيخ تسريتي الوحيدة، لا شيء لي، لا أولاد ولا شيء".
وصمتت حتى تستعيد أنفاسها، وتغير الموضوع:
"تعبت من حساب الفلاحين، يريدون أن يغالطوني في الملاليم".
صوت تنفسها مسموع بين الكلمات:
"زمان كنت أستمتع بمراوغاتهم وخبثهم، والآن أقول للرجل: قم روح دارك، وأما يتبقى معك فلوس تعال وهات باقي الحساب".
بعد قليل من التقاط الأنفاس قالت كأنما تقرر حالها:
"تعبت يا شيخ عبد الرحمن".
نظرت إليه وقالت:
"هذا الدور هدني".
نظر في عينيها وصدقت مخاوفه، فقد خيل إليه أنه رأى الخوف مثل الجمرة في عمق عينيها، وخيل إليه أنها تنظر إلى الحافة.
لم يتمكن من البقاء وقتاً طويلاً. تعبها واضطرابه فضا اللقاء وعاد إلى بيته يمشي ببطء في الظلام، وقد تبدد من ذهنه ما حدث في الجمعية في الصباح. قبل أن يصل إلى القنطرة حيث "المرشح" الذي تملأ منه البنات الماء العذب، بدا له أنه شاهد الهيكل العظمي للست كوثر، وظهر عمرها الحقيقي، أين كان

يختفي عمرها؟ خلف المحبة، أجاب بسرعة، وحضرت فكرة الموت. ماذا لو ماتت؟ وجد نفسه يقول بصوت واضح في الظلام: "تبقى مصيبة".
لم يتمكن من تخيل الأمر. قال لنفسه: لو ماتت فلن تكون في حياة، ستكون جافة مثل أرض بور. الإنسان أناني حتى النخاع، حتى وهي مريضة أفكر في مصلحتي المترتبة على وجودها. هذه هي الحياة يا شيخ ولن تغير الكون، رد على نفسه، وفكر بأن عذوبة أيامه تأتي من وجودها، وحزن حزناً غامضاً وهو يمشي بجوار المصرف باتجاه القنطرة، ومع كل خطوة يتأكد أنه لن يتحمل حياة خالية منها. ظهر حبه الذي أخفى وجودها عمقه، والآن كشف تهديد الموت، تغلغل الحب حتى النخاع. وتعجب كيف استندت حياته بكل ما فيها من زرع وقلع وميلاد وموت وصراعات على وجود تلك المرأة، كما يستند الآن على عصاه. حيرته الفكرة وأجبرته أن يقف لحظات قبل أن يعبر القنطرة. كيف تاه عنه هذا المعنى، وهو الذي يظن أنه عرف البلاد من شرقها إلى غربها والناس من العالي إلى الواطي، كيف له، هو الذي يدعي المعرفة، ألا يعرف أن حياته بكاملها قد قامت على محبة كوثر بنت الشيخ محفوظ، وربما جاءت صلابته أيضًا، من اطمئنانه أنها تقف في ظهره؟
عاد إلى داره حزينًا.
كيف يعمى البصر؟ كيف لم يدرك أنه يحبها كل هذا الحب إلا عندما حوّم الموت حولها؟ هل يعيش المرء جاهلاً بأعمق مشاعره؟ لم يتمكن من النوم. قام في الفجر، وأمسك كتاب الله يستنجد به وصلي الفجر، وكان عجيبًا بالنسبة له أن يرى قلبه هشاً على هذا النحو: "اللهم نجها من عثرتها". ثم أتبعه بدعوته التي لا تفارق لسانه منذ بداية وعيه على الدنيا: "اللهم إني لا أسألك رد القضاء بل أسألك اللطف فيه". وظل جالسًا في الشرفة حتى تفتح ضوء النهار في السماء.
انتظر بصبر حتى دبت حركة الناس على الطرقات، ثم ارتدى جلبابه وأمسك عصاه ووضع عباءته على كتفه وتوجه إلى السراية. رأي محمد القرشي، واقفاً يدخن أمام البوابة الخشبية للجنينة. لم ينتظر حتى أن يمهد للأمر، قال من فوره: "يا محمد ابعت السواق يأتي بالدكتور عبد البر. الست كوثر مريضة". انتبه محمد وتفرس في وجه الشيخ ثم قال: "نأخذها ونذهب بها إليه". قال الشيخ بحسم: "لن توافق أن تتحرك من مكانها، وأظن أن نور الدين لن يرجع اليوم". قضى على تلكؤ ابن القرشي بقوله بمنتهى الجدية: "الدكتور عبد البر في مستشفى المنشاوي الآن، كلّمه وخوّفه، قل له بنت خالك مريضة وحالتها خطيرة، ولولا ذلك ما اتصلنا بك".
دخل محمد القرشي إلى السراية وخلفه الشيخ، وجلس إلى المكتب القديم، يبحث في الدليل عن رقم مستشفى المنشاوي، وعندما سمع الرنين قدم السماعة للشيخ كأنه لن يتمكن من إقناع الطبيب العجوز. أمسك الشيخ السماعة. وأخبر الدكتور عبد البر بالموضوع، وقال له إن السيارة سوف تنتظره وتعيده إلى مكانه مرة أخرى: "ما هي إلا ساعة زمن يا دكتور، الست كوثر بنت خالك". وظل يكرر عبارة: "حالتها خطيرة يا عبد البر، رأيتها بنفسي ليلة أمس"، كأنه يحاول التخلص من المخاوف التي علقت به منذ أن رآها. طوح رأسه، ووضع السماعة وجلس على الكرسي مرهقًا وعصاه إلى جانبه، كأنه بهذه المكالمة قد حجب الموت عنها لبعض الوقت.
في الظهيرة فوجئت الست كوثر بجلبة في شرفة بيتها، وسمعت صوت محمد القرشي، وضحكت عندما رأت الدكتور عبد البر ابن عمتها، بجسده الضخم وكرشه وشعره الشايب الذي لا يمشطه. لم يتمكن أحد غير الدكتور عبد البر من أن يدخل عليها. عرفت أن الشيخ هو الذي أرسل ليطلبه من أجلها وقالت له سعدية قبل أن يغادر البيت: "الست تقول لك لن تنسى جميلك، ستقوم لتشكرك بنفسها". أدرك بأنها سوف تتعافي من أجله.

***

أصبح تجوال الست خديجة في الدار حدثًا معتادًا، لا يسألها أحد عما تفعل، ولا لماذا هي هنا، تدخل وتخرج حسب قانونها. أحياناً تغيب عن الدار، وأحيانًا تشاركهم العمل وتعود لعينيها اليقظة، ورغم تلك المظاهر، لم يكن يبدو أنها مجنونة، فهي لا تخلط الحوادث، ولا تغلط في اسم أحد وتعرف اليوم والسنة، كل ما في الأمر أنها تزهق، وتخلع منديل رأسها وتهرش في شعرها، كما لو أنه مليء بالقمل، حتى تجرح فروة الرأس. تأتي فاطمة من دارها ونضع لها المراهم وتنيمها على رجلها. تضحك الست خديجة من كونها قد عادت طفلة مرة أخرى، تنام على فخذ ابنتها، وأحياناً يجدونها جالسة مع عبد الله في العصر على الحصيرة تشرب الشاي صامتة. في كل هذا ليس هناك ما يمس سيرة بالدار، لكنها أحياناً تجلس على سلم الشرفة وتنادي أي شخص يمر في الطريق، لو رجل يعتذر ويمضي، بعد أن تزهقه بأسئلتها، لو امرأة تبدأ حديثاً بلا نهاية عن الدار، وهنا لا بد أن يتدخل أحد، فدون أن تدري تفشي الأسرار وتحكي عن مخاوفها وآلامها وسنوات نفيها في شقة شارع المؤيد مع الأولاد الصغار.
في المساء تعبر السطوح وتنام في دار أختها سرية، وهناك أيضًا، تواصل حكاية سيرة الدار، والتعليق على ما حدث لها في عمرها، عن أيامها في طنطا، عن الناس الطيبين هناك، والحياة الواسعة، ومشوارها الصباحي إلى سوق شوقي. أحياناً تتحدث كأنها تشتاق إلى تلك الحياة، وعندما تسألها حفيدتها أنها يمكن أن تعود إلى طنطا، تقول بغضب: "غارت، هي التي أتعبت قلبي". تناكفها البنت: "يا ستي حد يطول النظافة والبلاط والدنيا الواسعة ويجيء هنا للطين والتراب والناموس". تصمت الست خديجة ولا تجيب، ثم تزهق، وترفع عن رأسها المنديل وتحل ضفائرها، وتقول: "سيبوني لحالي".
لم يعد من الغريب رؤيتها تجلس في الشمس وقد حلت ضفائرها، وعندما تسألها فاطمة: "مالك يا أمه؟" تقول: "أنشر شعري في الشمس، القمل يملؤوه". لم يكن هذا مجال تندر، رأسها خال من القمل لأن فاطمة ترعاها، فروة رأسها تأكلها باستمرار، رغم المراهم والبودرة، وتطلب بعناد الأطفال أن تفلي البنات لها شعرها، ثم تضفره وتحبك المنديل عليه، وتنظر ساهية عما حولها، كأنها لم تعد تعرف شيئاً.
يسأل عنها الشيخ: أين ستك خديجة يا بت؟ تقول البنت بسرعة: "عند ستي سرية". أصبح وضعها يحزنه، وبدأ ينتبه إلى غيابها الدائم وعندما يراها تجلس بجانب عبد الله في العصر تشرب الشاي يطيب قلبه.
بعدما رحل الشتاء، وأخذت المحاصيل تستوي في الغيطان، فقدت الست خديجة تركيزها، وبدأت أعراض جديدة تظهر عليها. تسير مقربة أذنها من الحوائط. تمشي على مهل وأحيانًا تقف غائبة عن نفسها كأنما تتابع في جوف الحوائط أمراً يأخذ بكامل انتباهها. لاحظت البنات الصغار الأمر في البداية، وقلدها وادعت إحداهنَ أنها تسمع همسًا هناك، وكذبتها الأخرى، تبادلتا الإنصات لكي تتأكدا من الأصوات السائلة في جوف الحيطان.
لم يسألها أحد عما تسمعه هناك، وتركوها لحالها، خاصة أن تلك العادة خففت قليلاً من الهرش ومن الصرخات المباغتة. تدخل غرفة المعاش، وتغيب هناك وقتا طويلاً، تضع أذنها على الحائط القديم الذي يفصل الدار عن دار راضي، تظل مقرفصة وقتاً طويلاً، يثير ذلك تعجبهم وحيرتهم وخوفهم، فما الذي تفعله كل هذا الوقت وحدها واضعة أذنها على الحائط، حتى خرجت من غرفة المعاش ذات يوم، وتوجهت إلى دار فاطمة، ونادتها. جاءت فاطمة مغبرة الملابس بالدقيق، فقد كانت مشغولة منذ الصباح في نخل الدقيق، أجلستها بالقوة وقالت:
"سمعتهم"

سألت فاطمة بحزن:
"من يا أمه؟"
"من لا اسم لهم"
صمتت فاطمة لا تريد أن تزيد في الكلام حتى تتجنب ما تثيره حالة أمها في نفسها من حزن، لكن الست خديجة واصلت حديثها:
"سأقول لك سرا".
ونظرت تجاه ابنتها مذهولة:
"الدار مسكونة".
نفضت فاطمة جلبابها زهقًا وقامت قائلة:
"عندي خبيز يا أمه".
منذ ذلك اليوم لم تكف الست خديجة عن الحديث عمن يسكنون الجدران وتسمع همسهم وأحاديثهم، وتؤكد أن هناك من يعيش معنا وسوف يطردون أهل الدار ويسكنون مكانهم، سوف تصبح هذه الدار بلا أهل وستكون لهم في نهاية المطاف، وكلما رأت فاطمة حذرتها: "أنا قلت لك وذنبك على جنبك، سوف يطردونكم ويستولون على الدار، الحقي نفسك". وفي المساء عندما سأل الشيخ فاطمة عن أحوال أمها حكت له ما تقول منتظرة رده الطبيعي، بأن هذا كلام فارغ، ولكنه نظر في كفه وقال بصوت خفيض:
"يمكن عندها حق".

***

يوم الجمعة في دار سليم، على مدار السنين، هو يوم النكد. يوم الخبيز الذي تدب فيه الخلافات بين النساء، والذي ظل أثره باقيًا في نفوس أجيال العائلة، وترك في كيانهم شعوراً بالوجل تجاه أيام الجمع، يمسكون قلوبهم حتى تنتهي، حتى لو كان بعضهم يعمل في الصحراء أو في البلاد البعيدة.
في صيف عام 1978، جاء يوم الجمعة الذي أصبحت الدار بعده مختلفة عما كانت على مدى تاريخها.
تجلس النساء دائرة حول الطبلية أمام الفرن ويبدأن في إخراج الضغائن. كانت "سعاد" لا تكف على التبرم والقول بأنها لن تبقى هنا. سوف تسافر حتى لو طلقت، ثم تفيق إلى نفسها وتبكي بختها المنيّل، و"صفية" زوجة عبد الله أصرت أن يتعلم الأولاد جميعًا، لن تترك واحداً من أبنائها فلاحًا، يكفي انغراس أبيهم في الطين. و"نبية" طارت تشكو ظلمها لطوب الأرض، وتبحث عن مكان لسرد حكاية موت زوجها.
في ذلك اليوم جلست الست "خديجة" في الظل. فرشوا لها جوالاً بجوار الحائط، وعلى فخذها ثريا بنت نعيم. كان واضحًا أن اليوم لن ينتهي على خير. في البداية احتجبت سعاد في غرفتها رافضة أن تخبز معهم، وبعد محايلة جاءت متبرمة. الحر شديد، حتى إن وجوه النساء يمكن أن تضيء. "صفية" زوجة عبد الله تجلس أمام محمة الفرن ووجهها يبخ صهدًا وقد انزاح منديل رأسها عن شعرها الناعم.
بدأت المناكفة بكلام سمعوه كثيرا من "سعاد" عن حياة الفلاحين البائسة، لكن الأمر تطور لأن "صفية" اشتبكت معها وقالت بغضب إنها تتأمر بلا لزوم، ماذا يعني أنها تعمل مدرسة؟ ليست طبيبة مثلاً، ولا مهندسة، ولا عندها العزب والأطيان، ولم تحمل معها ميراثاً إلى الدار، مثلما فعلت هي. إهانة سعاد وضربها أمامهم كان جرحا لم يندمل، فتطاولت في الكلام وقالت إنها لا تعتبر هذه حياة، إنها حياة تشبه حياة البهائم، وأن كل هذا لا يساوي فردة من حذائها. حتى هذه اللحظة كان الأمر عاديًا ويمكن لليوم أن ينتهي على خير، إلا أن الست خديجة كانت في إحدى نوبات صحوها، وأغضبها التهجم على

حياة الفلاحين فتدخلت وعايرت سعاد بأن أمها كانت تستلف من الناس لكي تؤكلهم، صحيح أن الست خديجة كان لسانها يفلت كثيراً ولا تتورع عن حكي الأسرار، لكن الأمر كان فوق الطاقة، ويبدو أنها عادت من غيابها لكي تضع المسمار الأخير في تماسك العائلة. بعث الغضب الحمرة في وجهها، وظلت تحكي عن أسرار أم سعاد، مما اضطر سعاد لأن تقول بصوت عال وبغضب: "اسكتي يا ست يا مجنونة". عندها لم تتحمل صفية الأمر، وقالت لها: إنت قليلة الأدب لم تتربي وقذفت بالرغيف الساخن الخارج من الفرن في وجهها. قامت سعاد غاضبة وقلبت الطبلية وعليها أقراص العجين على الأرض. استبد بها الغضب فراحت تدوس العجين بقدميها، وفي اللحظة التي حاولت "نبية" أن تدفعها بعيداً عن العجين تشبثت الأخرى بها ومزقت لها جلبابها، وهنا صدرت صرخات متوالية لا تتوقف من الست خديجة التي تركت البنت الصغيرة تتدحرج من حجرها غير واعية بنفسها.
في تلك اللحظة دخل الشيخ ورأى كل شيء. رأى العجين على الأرض ومناديل الرأس المحلولة والهدوم الممزقة. رأى ما لم يخطر له على بال قط.
رفع عصاه فتوقف كل شيء.
قال بصوت لم يتمكن من تحريره من رعشة الغضب:
"كل واحدة تلم هدومها وتروّح على دار أهلها".
غرف البيت في الصمت. لا يمكن لأحد أن يخاطر بالحديث مع الشيخ في تلك اللحظة حتى فاطمة التي جاءت مسرعة وأكملت الخبيز مع بنات الجيران. أطلت عليه في غرفة الجلوس ورأت وجهه الشاحب ونظرته المعلقة في الفضاء وقالت لعبد الله:
"عمري ما شفته على هذا الحال".

***

أيام سبعة مرت. صمت كامل حط على كل شيء في الدار حتى المناجل المعلقة في الحوائط. رغم كل شيء، فالنساء هن روح الحياة. البيوت الخالية منهن ناشفة، جهمة، كئيبة. كل ما حدث جاء على رأس فاطمة، التي تعبت من متابعة الدارين. أجرّت بناتًا لكي يحلبن البهائم ويقمن بقية الأعمال، لكنها ظلّت خائفة من خلاء الدار من النساء، ومن روحها الناشفة، وأخذ كلام أمها عن أنهم سوف يُطردون من هنا ثقل النبوءات. لم تعد تتحمل. ذهبت إلى الست كوثر تسألها أن تطلب من الشيخ أن يعيد النساء، لأنها لا تستطيع أن تطلب منه ذلك، ولا تتحمل الأعمال.
في مساء اليوم التالي، جاءت الست كوثر وجلست بجواره على الكنبة في غرفة الضيوف. لم يقابلها بالترحاب المعتاد. وضع كفه على ركبته وظل صامتاً، لكنها قدرت ظروفه، وشعرت بحيرته، فقد بدا لها، لأول مرة منذ أن عرفته، حائراً لا يعرف ماذا يفعل. الحقيقة أنها لم تتمكن من تخمين ما يعمل في ضميره، ولم تعرف أنه يعد عدته للرحيل، فبدا كلامه في هذا المساء غريبًا.
أخبرها أن الدار الجديدة وتعليم الأولاد في المدن وزواج نعيم كل ذلك لم يجلب الطمأنينة، بل خلق وضعًا جديدًا، لا يقدر على التعامل معه.
قالت الست كوثر:
"أنت بالغت وتشددت، كل البيوت يحدث فيها هذا وأكثر".
ولما لم يرد عليها أكملت:
"أَعِد النساء إلى الدار ويكفي ما حدث لكي يعرفن قدرهن".
وأخبرته أن فاطمة متعبة لا تتمكن من تحمل عبء هذه الدار الكبيرة.

قال بنبرة المتأمل:
"الكبير لا بد أن يصغر".
نظرت إليه مستطلعة.
قال الشيخ:
"كلما كبر الشيء لا بد ينقسم إلى أجزاء لكي يواصل الحياة".
قالت بغضب مصطنع تحاول أن تحث همته:
"ماذا تقول يا شيخ؟ ما هذا الكلام".
تعلقت بسمة صفراء على وجهه، تعرفها وتخاف منها:
"خلاص يا ست كوثر رجّعوا النسوان".
وتمالك نفسه:
"لكني لا أريد أن أرى خلقة واحدة منهن. لا اريد رؤية أحد".
"ولا أنا يا شيخ عبد الرحمن".
"أنت على العين والرأس يا ست الكل".
ولمحت المزاج الجهم، فاقتربت منه قائلة:
"لا تقسُ على نفسك، أنت تعبت، وأن لك أن تستريح".
رفع وجهه ونظر في عينيها:
"تمام يا ست الكل. وصلت إلى صلب المسألة. أن لي أن أستريح".

***

رجعت النساء إلى الدار. في المغرب طلب فاطمة. دخلت غرفة نومه في طرف الدار. كان جالسًا على الفراش، مربع الساقين، يضع يديه في حجره، غائم النظرات. خرجت وفي عينيها بلل الدموع. أشعلت اللمبة الصغيرة ووضعتها بجانب باب غرفته وتركت له طبقاً من اللبن ورغيفا من الخبز على الكنبة. لم تبح فاطمة بما حدث بينهما. قالت: "يريد أن يستريح من خلقتكم". ونبهت عليهم ألا يطرق أحد باب الغرفة أو "يهوّب" ناحيتها، إن فعلوا، فلن يحدث لهم طيب.
مر اليوم التالي ولم يخرج الشيخ من الغرفة. انتصف النهار. الناس تنادي من خارج الشرفة: يابا الشيخ. يرد العيال بالكلمات التي حفّظتها لهم فاطمة:
"جدي سافر، ولا نعرف متى سيعود".
كان من الصعب عليهم تصديق أنه يريد أن يحبس نفسه. الظلام هو الرعب بالنسبة إليهم. فاطمة الوحيدة المسموح لها أن تدخل غرفته. تجده جالسًا جلسة الأولاد في الكتّاب مربع الساقين، ومغمض العينين، لا شيء غير تنفس هادي. لا تنطق كلمة. تستبدل طبق الجبن وتضع لقمة الخبز وتغير ماء القلة. في الفجر يشعرون به يخرج إلى الحمام، يتوضأ ويعود إلى غرفته وتنغلق كأنما لا يسكنها أحد.
مضى يومان ولا أحد يعرف متى تنتهي عزلته، ولا فاطمة نفسها، التي نفذت ما أمرها به بالحرف. توترت الحياة في الدار، حتى النساء اللائي كنّ في حالة حرب لم يطفئها العراك ولا طردهنّ من الدار، بدا عليهنّ الخوف مما يفعله الشيخ في نفسه. لِمَ يحبس نفسه في الظلام؟ سؤال يتجول في النفوس والضمائر دون فهم أو إجابة. غريب طول عمره، تقول الست خديجة، التي تعبر من سطوح دار أختها إلى بيتها وتواصل الإنصات إلى الهمس في الحيطان.
بدؤوا يخافون الكلام، فبمرور الوقت أصبحت عزلته حية في أذهانهم، فما إن يتخطون عتبة الباب حتى

يخفضوا أصواتهم وينهروا الأولاد ويطلبوا منهم أن يلعبوا في الخارج. عبد الله انتابه الهلع، فرغم كل شيء، حياته وملذاته قائمة على وجود الشيخ. اطمئنانه ينبع من وجود أبيه، وما يحدث فوق تصوره.
يسأل فاطمة كأنها تعرف: ما الذي يفعله أبوك وحده في غرفته طول النهار والليل؟ تصف له ما تراه. يجلس الجلسة نفسها لا تتبدل. مغمض العينين، وعندما تدخل لا يتبدل شيء، كأنه لا يشعر بوجودها.
في اليوم الخامس جاء نور الدين وأراد أن يدخل. وقفت فاطمة وقالت بحسم: "على عيني يابا نور، أنت تعرف صاحبك لو كسرت أوامره، فلن يحدث لي طيب". قال نور الدين مستسلمًا: "خلاص يا بنتي وهو كذلك". وانصرف غاضباً، وأخبر الست كوثر بحالته الغريبة، قالت:
"اعذره يا نور، يشعر بالخيبة بعد تعب العمر. اعذره".
ذات يوم جاءت الست خديجة من فوق السطوح، وطرقت باب الغرفة قائلة: "يا شيخ عبد الرحمن أنا خديجة مراتك". لحسن الحظ أن ذلك كان وقت المغرب، وفاطمة في الدار. أمسكت أمها وقادتها إلى الدار التحتانية.
حضر الفهم إلى نظر الست خديجة، وجاءت من غيابها وسألت بجدية:
"أبوك ماله يا بت يا فاطمة؟".
لم تتمالك فاطمة نفسها وبكت. أخذتها أمها في حضنها، وبكت معها. منذ تلك اللحظة بدأت تفيق، وتنظر إلى ما حولها بتربص صحيح أنها ظلت تنصت إلى الحيطان لكنها في المساء جاءت بجوال وفرشته بجانب باب الغرفة، ونامت عليه ورفضت أن تتحرك من مكانها. أصرت أن تبقى بجانب غرفة زوجها عله يحتاج إلى شيء، فاضطروا لأن يعدوا لها فرشة في الصالة. في الليل عندما خرج للوضوء، قامت من النوم، وساعدته في حمل ملابسه كما كانت تفعل في طنطا، وأغلقت عليه الباب ورقدت مكانها مرة أخرى.
اعتاد الناس غيابه، وعاد كل من سأل عنه خائبًا، وظن أهل الدار أن الشيخ سوف يقضي باقي عمره في الظلام. جاء نور الدين مرة أخرى، وجلس مع نعيم وعبد الله في الشرفة لكنه لم يتمكن من تخطي عتبة الباب وكسر عزلة الشيخ، وبدا لهم أنه يمعن في طريقه وحده.
ذات يوم جاءت أرملة من الحارة الضيقة التي يسمونها حارة الحكر، وظلت تصرخ وتقول: من يعيد لي حقي غير الشيخ عبد الرحمن، وجلست على درجات السلم تولول وتقول: هو الذي سيعيد إلى حقي، أخو جوزي استولى على قيراط الخضار وأنا أجوع أنا وأولادي. من يعيد إلى حقي غير الشيخ؟ خرجت إليها نبية وأفهمتها أن الشيخ مسافر ولا يعرف أحد متى يعود، وأنه بمجرد عودته سيعيد إليها حقها.
"أسبوع كامل بابا في الظلمة". قالت فاطمة وهي تقف عند باب الزريبة تطمئن على حلب البهائم. في هذا اليوم، بعد أن تركت له صينية الطعام، تجرأت وقالت بصوت خفيض: "ارحم نفسك يابا". لكنه لم يبدل جلسته ولم يوجه نظره إليها، ولم يحدث ما يدل على أنه سمعها. وقفت تائهة في وسط الغرفة، وراودها شعور خاطف بأنه قد رحل. أنصتت حتى سمعت تنفسه المنتظم، فخرجت وأغلقت الباب.

***

أخيرا سمعوه يتنحنح ويفتح الباب الكبير. كان يوم الجمعة، ورأوه يجلس على الكنبة في الشرفة ينظر إلى الفضاء الذي حرم نفسه منه تسعة أيام، ووجهه صاف كامل الاستدارة وعيونه عميقة السواد. جاءت فاطمة تحمل طرحتها وجلست بجواره، غير مصدقة أنه عاد كما هو، أبوها لم تبدله الظلمات، لم تمسخه وتحوله إلى كائن آخر، لكن ذلك لم يستمر غير عدة أيام.
مضى يوم الجمعة كأي يوم جمعة عادي قضاه في حياته. صلى الجماعة وعاد إلى داره، وتناول العشاء

مع أهله. يوم السبت طلب نور الدين. أغلقت غرفة الضيوف عليهما. سمع أهل الدار صوت نور الدين الرخيم:
"هذا كلام غير معقول يا شيخ، حرام ما تفعله. الشرع يحرمه".
انتقل الخبر إلى فاطمة التي جاءت في المساء وقالت بغضب:
"صحيح يابا هتوزع الأرض وأنت عايش، صحيح يابا؟"
لم تكن قادرة على تخيل ما سمعته. خانها الغضب وقالت بصوت عال:
"اسمع يابا أنت عارفني أنا أشيل جزمتك فوق رأسي لكن أنت بتموت نفسك".
"هذه المرة سوف أقف لك. ولن يحدث ذلك".
هب الشيخ من جلسته وقال بصوت غليظ لم يسمعه أحد يزعق بهذا الشكل:
"قومي انجري روّحي واوعي تعتبي الدار مرة ثانية".
فاطمة خافت وخرجت جريًا وهي تحمل طرحتها في طريقها إلى الخارج، وذهبت إلى دار الست كوثر مباشرة، لم تجرب هذا الجبروت الذي طالما حذرتها أمها منه. الآن عاينته بنفسها.
طمأنتها الست كوثر وقالت إنها سوف تبحث الموضوع مع نور الدين.
أبلغها نور الدين بأنه لا داعي أن تحرج نفسها، فهي لا تعرف ابن سليم، إنه غشيم وسوف يحرج أي شخص. ما دام قد قرر فلن يتراجع. وصف لها المنضدة الصغيرة في غرفة الضيوف، وعليها العقود، وأخبرها بأنه يوم الجمعة سوف يأتي صالح من القاهرة قبل أن يسافر، وجمال ابن علي سليم سيأتي من الإسكندرية حيث يدرس، ونعيم وعبد الله وفاطمة والست خديجة وسوف يكتب العقود، وقال منهيًا الموضوع:
"أطلعني على شروط القسمة".
وبعد صمت قصير متعجب، قال:
"بصراحة يا حاجة لا أصدق أن أحدا يفعل هذا. لا أصدق. لا بني آدم عاقلاً يوزع أرضه وهو حي، ولا يترك لنفسه قيراطاً. سألته: يا شيخ أين الأرض التي ستأكل منها؟ اترك فدانًا لك والست خديجة يتوارثون فيه بعد طول عمرك. قال: لقمتي رغيف عيش وقطعة جبن، إن تعذرت عليّ من داري فسوف يرسلها إلى نور الدين."
في الصباح التالي دخلت الست كوثر الدار، وجلست بقربه بعباءة سوداء، عيونها منداة بالدمع، وشربت القهوة صامتة. قالت أخيرا:
"ما الذي فعلت بنفسك يا شيخ؟"
ابتسم في وجهها وقال:
"كل خير يا ست الكل".
"أنت خلصت على نفسك يا عبد الرحمن".
قال وهو يرفع نظره إلى السقف ويبتسم بسمة باهتة:
"قصدك خلصت نفسي يا ست الكل".

***

يوم الجمعة التالي جلسوا جميعًا في الغرفة بحضور نور الدين ومحمد القرشي وأعطى شروط القسمة المكتوبة بخطه المنمق إلى المساح، وقال له: أعددت لك مسودة مررها عليهم ليقرؤوها ومن عنده اعتراض يطرحه في حضور كبار رجال البلد. مرت الورقة بين أيديهم. كانوا يعرفون محتواها فقد

شرح الشيخ صالح الأمر لإخوته. جلس المساح على المنضدة وكتب شروط القسمة واختمها بالفقرة التالية:

"نقر نحن الموقعين أن هذا التقسيم قد تم فيما بيننا في حضور الأطراف جميعًا، وحضور والدهم الشيخ عبد الرحمن أحمد محمد سليم. وأن هذا التقسيم قد روعي فيه التراضي وعدم النظر إلى الأنصبة الشرعية، فهم لا يفرقون فيما بينهم ويعتبرون أنفسهم فردًا واحدًا، وليس لأي منهم أن يطالب بغير هذا الحق، بعد ذلك. وقد أقرت جميع الأطراف بأنه لا توجد أي عقود بيع وشراء في مساحات الأرضٍ التي اقتسموها، كما هو مبين بشروط القسمة الحالية، وإذا وجدت أو ظهرت مثل تلك العقود مستقبلاً تكون مزورة، وهذا إقرار بما جاء في هذه القسمة التي تمت دون إكراه من أحد. وهذه الشروط تقوم مقام الميراث الشرعي".

***

الثلاثاء 13 مايو 2008

مات جدي يوم الجمعة 22 ديسمبر 1978. خرجت الجنازة بعد صلاة الجمعة من مسجد سيدي عبد العال، ومرت بالطرقات الموحلة. من يحملون النعش كانوا يحزمون جلابيبهم كأنهم يعملون في حقول الأرز. النعش ثقيل، يتبادله الرجال كل عدة خطوات. البلد كلها تقريباً كانت في الجنازة، حتى الأطفال تابعوا السير فوق المدقات والمصاطب حتى المقابر. كان زمناً قد ولى، والناس تودع في هذا اليوم عهدًا كاملاً، فلم يعبؤوا بخوضهم في الوحل أو أن مداساتهم انغرست في الطين وانخلعت عن الأقدام.
لم تعش جدتي خديجة بعده غير عدة أشهر، فالبرسيم الذي بذر وقت جنازة الشيخ، ما كاد يترعرع حتى غادرت هي الأخرى الحياة، وظل ارتباطها به يثير دهشة خفية في دارنا. هذه الأمور تظل مكتومة، نعبرها، نفهم معناها ويتفحصه كل منا على مهله في سره.
بعد موته رأيناها تقلد طريقته في الرقاد والمشي، كأنها حاولت أن تمحو رحيله بخلقه في حركاتها، حتى قالت لي ذات يوم: "أين ستك خديجة يا ولد؟" انتبهت إلى صوتها وهيئتها، وعادت لتبتسم كأنها لم تقل شيئا وطلبت مني كوبًا من الماء. حدث هذا الأمر مع أمنة أختي عدة مرات، حتى تحول إلى مزاج. ردت عليها آمنة: "أنت ستي خديجة. أنت هنا، في فرشتك".
ضحكت على نفسها، لكنها لم تعرف كيف استبدلته بنفسها. الحمد الله أن ذلك لم يستمر طويلاً، وتوفيت في يوم ربيعي، الشمس فيه زاهية والطرقات مزلطة، والناس يتحدثون عن طيبتها، وجاءت النساء من كل الأنحاء يردن خدمتها برمش العين كما قالت إحداهن وهي تقف أمام غرفة غُسلها تبكي لأنهم لم يسمحوا لها أن تدخل لتلقي عليها نظرة أخيرة.
عمتي فاطمة تعرف أعراض الموت أكثر من أي إنسان آخر، وتخاف منه خوفًا لم أتمكن من فهمه. دائماً ما يغيم وجهها عندما تأتي سيرته. أضحك من رهبتها المفرطة وأمازحها قائلا:
"يا عمتي الموت هو الحقيقة الوحيدة".
تقول بغضب:
"تغور الحقيقة، لا أريد أن أعرفه".
أدركت قبلهم جميعاً أن أمها تودع الحياة. عمي نعيم مشغول، يعد نفسه لينتقل بأسرته إلى الإسكندرية وأبي في الغيط طول الوقت. انتهزت فرصة أنه موجود في العصر، يعد لنفسه شاي المساء المضبوط وجلست تحدثه عن مغامرتها:
"مادام نعيم المتعلم لا يريد أن يرسل تليغرافًا، ذهبت بنفسي وأرسلته".
"تليغراف؟ لمن؟"
" لأخيك صالح، لا يصح أن تكون أمه مريضة ولا يأتي لرؤيتها".
"لكنه بعيد، لقد عاد إلى نيجيريا".
نظرت إليه بحدة وقالت:
"فيه أغلى من الأم؟ لازم يترك كل ما في يده ويأتي ليري أمه".
"يكفي يا فاطمة أنه ترك عمله وكلف نفسه وجاء وقت مرض أبيك، ثم إن أمك سوف تعيش".
"لا، أمك تعبانة، ولن تكمل أسبوعًا".
بعد عدة أيام ماتت جدتي وانتظرت عمتي فاطمة أن يجيء عمي صالح، لكنه لم يجئ، ولم يرد على التليغراف، فغمر قلبها الحنق عليه، وقالت لي ذات يوم:
"والله يا ابن أخويا حرق قلبي".
ظل محيراً لها عدم حضوره جنازة أمه، وشعرت بشيء من الإهانة، وكما قالت، لم نصدق أن قلبه بهذه القسوة. ظلّت تحتفظ بالأمر سرًا في أعماقها حتى حضر، بعد سنوات، موت الست كوثر، وصلى عليها

وخطب خطبة طويلة في جامع سيدي عبد العال، ويومها لم تتمالك نفسها، وقالت بطريقتها المباشرة:
"صحيح هذه أمك، لكن الغلبانة خديجة بنت عبد العال، لم تحملك في بطنها؟".
"يا فاطمة أنا هنا بالصدفة، وأيامها ظروفي لم تسمح".
"عارفة يا أخويا ظروفك. ربنا يكرمك ويعلي مراتبك".
لم تصدقه قط، نبهتني دائمًا: لو كنت في سابع أرض، ولو وصلت إلى سابع سماء، عندما تعرف أن أمك تودع الحياة لا بد أن تجيء، لا عذر في الأمر. قلت مازحاً:
"طول عمرك تصلين إلى كبد الحقيقة".
قالت ضاحكة:
"طول عمري أصل إلى مصران الحقيقة يا ولد".
وضحكنا.
عمتي فاطمة تعرف "مُصْرَان" الحقيقة، وتخاف من الموت، من سيرته، يتحجر شيء في كيانها، ويظهر في ملامحها ذلك الجمود الذي ظهر أيام استكمال طهارتها قبل زواجها. تنظر حولها بهلع، كلما نعق غراب، أو عوى كلب في الليل وأصدر ذلك الصوت الحزين الذي يقولون إنه يطلقه لأنه يرى ملك الموت. تقوم من عز نومها وتطرد الكلب وتظل في حالة من القلق حتى يطوي اهتمامها بحياتها هذه الهواجس ويبعدها عن قلبها.
بعد موت أمها، أخذت فكرتها عن خراب الدار تتحور وتصبح هاجسًا. ترى بوضوح أن الدار تذبل ويفارقها أهلها. الأجيال الجديدة رحلت: أولاد علي سليم باعوا نصيبهم في الأرض، وأخذوا أمهم وسافروا إلى السويس وأقاموا هناك، بعد أن عمل "جمال" الابن الأكبر مهندسًا في ميناء السويس، ونعيم استقر في الإسكندرية، وحتى نحن أولاد أخيها الكبير الفلاح الذي تعشمت أن الدار ستظل عامرة بنسله، لم نسكن في الدار، بعد إصرار أمي أن تتعلم البنات قبل الصبيان "يكفي ما شافه أبي من غلب" على حد تعبيرها.
حرص عمتي فاطمة على أبي كان غريباً في الفترة الأخيرة، كأنه آخر ما تبقى لها في الحياة، لا ينقضي يوم دون أن تراه، وكل صباح عندما تخرج البهائم من دارها، توصي "ناصر" ابنها الذي أصرت أن تخرجه من المدرسة لكي يفلح الأرض لتتجنب خطيئة دار سليم، أن يأخذ باله من خاله، وأن يترك ما في يده ويساعده، لو كان يسقي أو يحصد أو يحش البرسيم، وعندما يعود في المساء، تنهي أعمالها بسرعة، وتجلس بجواره لكي تشرب معه الشاي.
تحملت فوق ما يحتمل بشر لكي تحافظ على دار أهلها عامرة. لكن الزمن تحرك، ونفّذ ما يريد رغمًا عنها. جاءت النقطة الفاصلة في منتصف التسعينيات، عندما مرض أبي. يومها كان راجعًا من الغيط، يركب الحمارة العجوز، وعندما وصل إلى الدار، لم يجد في قدمه اليسرى فردة الحذاء. كانت تنتظره على عتبة دارها، ورأت قدمه الحافية وسألته بدهشة:
"أين مداسك يا عبد الله؟"
انتبه، لكنه لم يكن يعرف الإجابة. انسل الحذاء من قدمه دون أن يشعر. بدأ ينام فترات طويلة، كلما جلس في مكان غفا، وعلا شخيره، وبعد عدة أيام بدأت أطراف الجانب الأيسر يفارقها الإحساس.
تُهنا عدة أسابيع في عيادات الأطباء حتى عرفنا أنه ورم في المخ ضغط على مراكز الإحساس.
توقفت أمامي وقد فتحت عينيها على اتساعهما، وقالت: "لا تنطق اسم هذا المرض، مرة أخرى".
وظلّت غير مصدقة: "يمكن الدكاترة غلطانين يا ابني؟" ويومها قالت: "ستك خديجة كانت على حق، سوف يطردوننا من الدار، ويأخذونها رغمًا عنا". وظلّت معتقدة حتى آخر لحظة في حياتها، أن أمها

من رأت الحق وليس أباها. عرفت ما سيحدث وحذرت منه لكنهم اعتبروها "طيبة أكثر من اللازم" كما كان يقول جدي.
رافقتنا في المراحل الطويلة التي يستغرقها اكتشاف سرطان المخ. لم تتركنا يوماً واحداً. في صالات الأشعة ومعامل التحاليل، تميل على أحيانًا، آتية من غيابها، وتذكرني بأن كلام ستي خديجة كان صحيحًا. وفي نهاية الأمر، بعد جولة طويلة عند الأطباء في طنطا والقاهرة، كان علينا أن نجري جراحة في المخ باهظة التكاليف. شجعتني عمتي على أن أبيع نصف فدان، رغم أنها مثل أبيها، تعتبر الدار والأرض أغلى ما في الحياة.
تلك فترة صعبة، من الحيرة والتفكير الممزوج بالمرارة. كنت حزينًا خائفًا على أبي الذي باغتنا مرضه، وفي الوقت نفسه لم يفارقني الهلع الذي انتاب أهلي دائما من ضياع الأرض. مست تفكيري نقمة من أوضاع البلاد، وكيف أن حياتنا غريبة خالية من المعني. كنت وقتها أفكر في السفر إلى الخارج بعدما حصلت على ماجيستير في العلوم الزراعية، وقلت لنفسي، أسافر لأعمل في بلاد الخليج خمس سنوات وأعود بخمسين ألف جنيه مثلا، أنفقهم في عملية سرطان مخ، مثلما حدث مع أبي. نغصت عليّ تلك الأفكار حياتي. غدت في ضوئها وصايا جدي ساذجة، غنائية بطريقة استفزتني ورحت أسخر من حرصه الغريب على أن يملي عليّ كلماته العشر.
كل يوم أدرك، لا معنى لهذا الجهد الكبير من أجل صيانة الأرض، وعمل وجود عمتي فاطمة برفقتي على الدوام، على ترسيخ تلك الأفكار؛ فقد عرفتني ذات يوم على العبث القائم في حياتنا.
كنا في القاهرة، ننتظر في عيادة طبيب المخ الذي يتأخر في الكشف حتى الواحدة صباحًا. الناس جاؤوا من كل مكان في مصر من بحري والصعيد والنوبة، يقفون على السلم في انتظار دورهم في الكشف. عمتي بجانبي تلف رأسها بالطرحة وتنظر من حين إلى آخر إلى أبي الذي أرقدناه على كنبة في صالة العيادة. يومها دخلت فتاة تفوح منها رائحة عطر نفاذ، تخطت كل الناس ودخلت غرفة الكشف مباشرة. سمعت التمرجي يرد على المعترضين إنها بنت الدكتور. يبدو أن عمتي لم تتابع الأمر فسألتني: "من البنت الأمورة يا ابن أخويا؟" قلت لها: "بنت الدكتور". قالت بتعجب: "حلوة ولبسها جميل". قلت مسايراً إياها في الحديث: "تعرفين كم تساوي البلوزة التي ترتديها يا عمتي؟ قالت: يعني تساوي كم؟ مائة جنيه مثلا؟" ضحكت من سذاجتها وقلت: "ثلاثة قناطير قطن". قالت غير مصدقة: "يا خبر؟ ثلاثة قناطير ثمن البلوزة؟" سألتها ممعنًا في مزاح مرير: "تعرفين من أين اشترت هذه البلوزة يا عمتي؟". قالت: "من أين؟" قلت: "من لندن". "والعطر من أين يا عمتي؟" صمتت وقد أخذتها أفكارها من متابعتي: "من باريس".
يبدو أنها لم تعد تسمعني لأنها شردت ثم قالت بعد ذلك:
"يعني أرض أبويا تتحول إلى قمصان وعطور؟ يخيبك يا عبد الرحمن يا ابن سليم. فضلت تجمع في الأرض، وفي الآخر يشترون بها قمصاناً تذوب في الغسيل، وعطورًا تتبدد في الهواء. يا عجبي، لو كان موجودًا، كان دبر لنا تدابير لا تخطر على بال أحد، وخلّصنا من هذه الورطة".
استمرت في تداعيات دفعتها الدهشة في اتجاهات لم أتوقعها.
بعد أن تأملت مصير أرض أبيها، قالت بشفقة:
"لو مرضت فسأعمل مثل أبي، لن أذهب إلى طبيب، لن أتعالج، سوف أموت مثله".
نظرت إلى الناس في العيادة وقالت:
"كم واحد باع نصف فدان، ومصاغ امرأته، وعمل جمعيات من أجل الشفاء".
توجهت ببصرها إليّ مندهشة وقالت:

"الحياة غالية على قلب بني آدم، لكن مخه خفيف".
صمتت وغرقت في أفكارها. لا أعرف بأي أرض طافت عندما قالت:
"الواحد يموت أحسن، من أن يرى شقاء عمره يتحول إلى عطور وقمصان".
كان لا بد من إجراء جراحة في المخ في مستشفى المبرة في القاهرة. أصرت عمتي فاطمة أن تكون حاضرة: "لن يخدم عبد الله أخويا غيري". قالت بحدة لأمي، وأصرت أن تبقى في المستشفى طول الوقت. قبل موته بيوم واحد اضطرت لأن ترجع إلى البلد لتعالج بعض الأمور في دارها، وظلت ندمانة ما تبقى لها من عمر لأنها تركته وقت طلوع الروح. أثر فيها الأمر بشدة: "يخيبك يا فاطمة يا بنت سليم، تسيبي عبد الله يسافر من غير وداع، حتى تدبري تبن البهائم؟ يخيبك". ربما فقدت عقلها يوم موته، وظل الندم يعصرها عصراً ووجهت غضبها كله إليّ.
ذهبت من الفجر إلى المقابر منتظرة أن تعود السيارة بالجثمان، وعندما نزلنا، هبت من جلستها واتجهت نحوي. لم أرَ منها قط مثل هذا الشر وهي تهجم على قائلة:
"هذا هو العلم الذي تعلمته؟ تأخذ أباك وتعود من غيره؟"
لقد نسيَت أنها كانت معي طول الوقت، وأنني لم أتحرك خطوة واحدة بدونها. يبدو أن الحزن قد محا بعض الأحداث، وحسها بالهجوم الكاسح لمن لا اسم لهم قد أرعبها، فألقت باللوم كله على كتفي كانت نبرة صوتها ولومها تعني أنني أضعته منها. لم أتحمل تلك النبرة المعادية وهذه الجدية الصارمة، وهذا الاتهام، ولا المسؤولية الثقيلة التي تلقيها على كتفي. كانت غائبة تقريباً عما حولها. أمسكتني من طوق سترتي، تحاول أن تسترد مني ما ضاع منها، كان منظرها مرعباً. لم تكن تعرفني. كانت تعارك شخصاً غريبًا، ولم تعبأ بالأيادي التي امتدت لكي تمنع شرها. لم يوقفها غير أني أجهشت بالبكاء، كطفل، فانتبهت وعادت إلى نفسها.
صمت وأصوات خافتة ومحاولات لكي يأخذوها بعيداً، لكنها أفلتت منهم وأخذتني في حضنها. شممت رائحة ثيابها التي أعرفها: رائحة الخبز والبرسيم. راحت تربت على ظهري، كأنها اكتشفت أن من رحل موجود في هذا الجسد الذي تحتضنه، وسمعتها تقول بهمس أقرب إلى التفهم والاكتشاف:
"أنت موجود يا بني. أنت موجود".
ونظرت إلى بطريقة ذات مغزى:
"لكن كلكم سافرتم".

***

لم يفارقني جدي طول تلك السنين. أنساه كثيراً، ويخيل إلى أنه لم يكن له وجود، خاصة أنني منعت نفسي أن أحتفظ بصورته الفوتوغرافية. أخذ سمة طيفية وراح يتسلل إلى خواطري، يظهر في مواقيت خاصة به. كثيرًا ما تذكرته وهو يقول إن التاريخ عبارة عن ناس تولد وتنجب وتتعب ثم تموت، سألته يومها: "قرأت هذا عند الجبرتي؟" قال بمودة: "الولد الساقط لا يسأل. خذ الكلام مني ولا تراجعني. لكني كثيراً ما شعرت بارتباط غامض بين تلك العبارة وبين العقائد الخرافية لجدتي بأن "من لا اسم لهم" سوف يشتتوننا في البلاد، ونتحول إلى سديم مثلما تحولت حياة جدي في النهاية. ما من مرة تذكرت هذه العبارة إلا وجاء تجوال جدتي في الدار تنصت إلى الحيطان إلى ذهني.
كثير ما سمعت نبرة صوته، توقظني من أعز نومة. النبرة التي تحدث بها قبل موته ظلّت تعيش في منطقة نائية من وجداني. قد يكون حضوره هو ما ساعدني على العمل، والإتيان بحياتي من السقوط كما قال. لكنني الآن، أقترب من الخمسين، وغير واثق تماماً من الأمر. في بعض الأحيان أحنّ إلى

التوهان الذي عشته فترة في شبابي، وأرى أنه قد كان الحياة المثلى التي فقدتها، ربما قيدتني نبرته وفقدت بسببها الحياة التي تمنيتها؛ أن أعيش طليقاً في الصحراء، أتنقل من واحة إلى واحة، من مدينة إلى مدينة، بلا عائلة، بلا ميراث، بلا شيء، شخص وحيد شريد، يحط مطرح ما بيحط. على كل الأحوال لن يعيش المرء كل الحيوات، هي حياة واحدة، ولقد عشتها، ومازال صوته يطن في أذني، قادمًا من ذلك اليوم البعيد.
أنهيت دراستي في كلية الزراعة، وعينت مدرسًا في مدرسة طنطا الزراعية. في أوائل التسعينيات أصبحت المدينة ضيقة وخانقة. بعد وفاة أبي، نقلت عملي وعمل زوجتي إلى العريش. كثيرون من بلدتي فعلوا مثلما فعلت، وعشنا في مدينة العريش، فترة طويلة، هربًا من الضيق والزحام وضغط الحياة، على أمل أن أعمل في أي جامعة برسالة الدكتوراه التي حصلت عليها في علم أمراض النبات.
بحثي في أمراض نبات القطن، جلب على سخرية المشرف وظل مندهشًا من تمسكي بالموضوع، وقال لي ذات يوم: انتهت زراعة القطن أو في طريقها إلى الانتهاء. قلت مخفيّا مصادر تمسكي بالموضوع: ربما يستفيدون من بحثي في بلاد أخرى. مضت الحياة، وكبرت بناتي الثلاث، ورغم خجلي من خلفة البنات، غير أنني كنت في أعماقي سعيداً بهن، ووضعت خطتي أن أعلمهنّ وأتفانى في تربيتهنّ، هل كان صوته هنا حاضرًا؛ خلاصة صوته؟
مرت الحياة عادية بيني وبين زوجتي. لا يمكنني أن أقول غير أنها كانت حياة عادية، عدا لحظات من الجنون التي ورثتها من عمي نعيم. في نوبات الجنون، الذي يضرب بجذوره بعيدًا، أندفع إلى السفر، غير راغب في مقابلة أحد. أترك بيتي في العريش وأعود إلى الدار في البلد. أقضي عدة أيام. أنام وحدي ترعاني عمتي فاطمة. أعود إلى طنطا أزور زملاء الدراسة، ثم أسافر إلى الإسكندرية أقضي عدة أيام، حتى أسترد نفسي.
في تلك النوبات، أشعر بأن حياتي في جذرها ناقصة نقصانًا عميقاً لا يمكن لشيء أن يكمله، جوع إلى شيء مجهول، لا أعرفه، ولا أجده في أي مكان. أترك البيت في تلك الفترات لأنني أكون على وشك أن أبدد كل شيء، أطلق زوجتي وأنثر البيت في الريح. عشت في أسر تلك النوبات من الجنوح والركود كأنها سمة من سماتي الشخصية. أحياناً ألوم جدي لأنه حرمني من حياة البراح، وتبدو الحياة التي فقدتها بارقة مثل كل الآمال المفقودة، وعندما تنحسر الموجة أعود شخصاً عاديًا أعيش حياتي، في المدرسة والبيت مثل بقية خلق الله.
ما يكدر صفوي حتى الآن هو صوت جدي الذي أسمعه في بعض الأحيان واضحاً ويتركني حائرًا كما تركني في ذلك اليوم البعيد قبل موته بيوم واحد. هناك قلق خبيث في ذلك اليوم من ديسمبر، عندما أملي علىّ وصاياه، لا أعرف مصدره. قلق مثل "السنفرة" يفرك في روحي بعيداً عن الفهم أو السيطرة، كلما تذكرته على فراشه في جلسة التأمل في ذلك اليوم وقد أخذ السمة غير البشرية، يزيد رعبي.
لقد ترك ظله عليّ، وبقي معي يراقبني كطيف طول رحلتي، في أثناء ميلاد بناتي، في أثناء مغازلة زوجتي، في أثناء خصامنا وتصالحنا. هذا الحس الغريب بأن روحي قد فسدت في ذلك اليوم البعيد.
حدث شرخ لم أبرأ منه عندما عاينت الهوة التي يذهب إليها الناس، وكلما جاء منظره يجلس على فراشه لم يتبق له غير يوم واحد على الرحيل، تأخذ الأيام طعمًا ماسخًا، وينسحب السحر منها، لكن من حسن الحظ أن ذلك لا يستمر طويلاً، لحظات وأفيق كأنني كنت في حلم.
في الفترة الأخيرة حدثت أعنف أزمة بيني وبين زوجتي. حصلت ابنتنا الكبيرة على مجموع معقول في الثانوية العامة واختلفنا حول مصيرها. تريد زوجتي أن تبقى معنا وتدخل كلية في العريش، لكني

وافقت البنت على أن ترحل إلى القاهرة لأنها تريد أن تدرس اللغات في كلية الألسن. يومها انفجر غضب لا أعرف أين كان يرقد، ووجدتني خالياً من الرغبة في الحياة. كان الأمر عاديًا، عبرنا مثله عشرات المرات. وجدت الغضب يصعد كأن زوجتي هي السبب في كل هذا الفساد، كأنها هي التي جلبت معها الطعم الماسخ لحياة بلا جذور، بلا غاية غير الغايات البسيطة لصغار الحشرات.
ألقيت عليها يمين الطلاق. أصاب الرعب البنات الثلاث، وانكمشن على كنبة الصالة. فجأة أصبح كل ما عشناه بلا معنى. هل كان كل ما عشناه خدعة؟ من فعل ذلك؟ من خرب الحياة على هذا النحو؟
تركت شقتي في العريش وعدت إلى البلد، كأنما لا يأتي ذكر دار سليم إلا في تلك الأوقات العصيبة. خافت عمتي فاطمة من منظري وحملت عني حقيبتي وقادتني دون كلمة إلى الداخل. أرسلت البنات لكي يكنسن الدار ويغسلن البلاط ويفرشن الأسرة بالملاءات، وقبل النوم جاءت لتسألني إن كنت في حاجة إلى شيء. لم تحدثني عما جاء بي في كل تلك المسافة، وقالت إنها في الغد سوف تعد لي الفطير الذي أحبه، وتركتني لوحدتي.
لم أتمكن من النوم. طفت في الدار مثل شخص فقد هدفه. القلق يفتت عظمي، ولا أملك قدرة على البقاء في مكان واحد. توقفت طويلاً أمام صورة جدي في غرفة الضيوف التي عاد إليها كنب المندرة القديمة مفروشًا بأغطية بلون النبيذ. فتحت النافذة المطلة على الطريق ورقدت على كنبة. بالتدريج عاد إلى ذهني منظر بناتي، مثل القطط متكومات على الكنبة في حضن أختهنّ الكبيرة، استغربت نفسي وشعرت بأن نوبة الجنون هذه المرة عميقة الأذى.
في اليوم التالي كان صمتي محكم الإغلاق مثل اليوم السابق. قالت عمتي: "أعرف أن كل شيء يمر: الحلو والمر". فكرت ساخرًا: هذه العائلة تهوى النصائح والحكم، لكن عمتي كانت جادة، تبرق عيناها باليقين وهي تقول: "انظر إلى جدك". وأشارت إلى الصورة في صدر غرفة الضيوف: "تذكره وسوف يساعدك. تأمل ما فعل وسوف تمر من أزمتك. تبددت سخريتي وفكرت أنها قد تمتلك بصيرة أمها لكنها أكثر عصبية وحدة في الطباع؛ مخلوقة لتشير إلى الحقيقة بطريقة مباشرة. عرَفَت ما أمر به دون أن أتكلم، وحاولت أن تساعد. قالت وجهامة الجدية تغادر ملامحها: "ياما دقت على الرؤوس طبول. لا تقلق كل شيء سينتهي". وضحكت ضحكتها الطيبة وغادرت الدار، بعد أن تركت صينية الغداء على منضدة الصالة.

قضيت اليوم التالي أقلب في كتب جدي، وفي المرور في غرف الدار. كل شيء يصحو من جديد، حياتي التي تبددت تعود سراً إلى جسدي، شيء ما في روحي يلتئم، ويعود إلى فكري بعض الصفاء، في العصر مرت عليٍ وقالت:
"خد بعضك وتمشّ إلى أرض النخل يمكن ربنا يفك كربك".
فكرة طيبة، قد تسمح لما تبدد من حياتي أن يتسلل إلى الجسد الذي أصبح ناشفًا من الوحدة. مشيت على طرق ضيقة. كل الأماكن الخالية: الأجران، أماكن تخزين التبن والسباخ، سقائف البهائم خارج الدور، تحولت إلى مبان من الأسمنت. المصرف الذي كان يفصل دارنا عن البر الثاني لم يعد موجودًا، والقنطرة التي طالما عبرها جدي في طريقه إلى دار الست كوثر، والترعة التي كنا نصطاد فيها، وشجر السنط الذي كنا نجمع منه الصمغ، كل شيء تبدد، حياة بالكامل لم تعد موجودة، حتى دار الست كوثر، بيعت وقامت مكانها عمارة من ثلاثة طوابق.
وصلت إلى أرض النخل. الأرض خالية من الأرز والذرة، وحقول القطن القليلة تائهة وسط غيطان الأرز، رائحة دخان كثيفة في الجو، فما إن يدخل المساء حتى يشتعل القش في الغيطان، فلم يعودوا في حاجة إليه، يتركون رماده يسمد الأرض. لم تأت الرحلة بثمرتها. قَلَبَت المواجع. مررت بدار عمتي،

كلمتها عن النخل ولم توقفوا عن تقطيع الجريد والسباط. قالت إن عبده شمس ترك البلد ويعيش في السويس. شغله "جمال" ابن عمك "علي" عتالًا في الميناء، ولم يعد هنا أحد ليهتم.
تذكرت موسم تقطيع النخل في هذه الشهور نفسها، بعد أن نجمع القطن وتخلو أرض النخل من الزرع. نتجهز منذ الصباح. كان عيدًا بالنسبة لنا. النخلات الثلاث بلحها أصفر أمهات. نجلس في دائرة بعيداً عن الخطر، ونترقب التجهيزات. عبده شمس يخلع الجلباب ويبقى بالقميص والسروال، يحيط الحزام حول وسطه، معلقا به البلطة والحبل. يتجلى إعجابنا بالقدرات الخارقة لعمي علي وعبده شمس، وهما يشرفان على هذا العمل الخطر. نلوذ بالصمت عندما نرى عبده يخطو الخطوات الأولى في الطلوع، ولأن النخل كل عام يزيد طولا فقد أصبح سامقًا، لم يعد الطوب الذي نقذفه به يأتي بالبلح، أو يصل إليه. يدب الترقب فينا ونحن نفكر كيف سيصل عبده شمس إلى هذا العلو الشاهق. يصعد ببطء بقدميه الحافيتين كأنما يتسلق جبلًا. يضع القدم الأولى على بقايا الجريد القديم كأنه سلم وينقل الأخرى أعلى وهكذا حتى يصبح بعيداً لا يصلنا به غير الحبل الذي سوف يربط به السباطة. هناك في قمة النخلة يصبح صغيراً معلقًا في الهواء مثل الطائر. تصلنا خبطات البلطة على الجريد الذي يحيط بالسباط، ويترك أول جريدة تسقط من تلقاء نفسها، مجنحة في الهواء، ريشة عملاقة تتموج متجهة إلى الأرض. نتسابق لحمل الجريد ونضعه في مكان بعيد حتى يصبح كومًا ثم نحمله على الجمل إلى دار عم شعبان، ليصنع منها ما تحتاجه جدتي من أقفاص الدجاج، وكراسٍ من الجريد، ومقاطف من الخوص، وحتى الليف يصنع منه المقشات. ثم يأتي أوان السباط، يربط عبده شمس السباطة بالحبل ويضرب بمعلمة عدة ضربات حتى تبدأ في التهاوي، ينزلها ببطء، حتى لا تنفرط، نستقبل السباطة ذات البلح الأصفر الطايب، ونضعها في القفف، وعندما يكتمل تقليم النخلة لا يتبقى هناك غير عدد قليل من الجريد الغض مرفوع الرأس باتجاه السماء فتبدو النخلة مثل طفل حلق شعره استعدادًا للعيد.
عادت إليّ بهجة تلك الأيام وشغفها، كأنني مثل الجائع، الذي لا يشبعه طعام. تلك البهجة قريبة جداً وبعيدة جداً، بل مستحيلة في الوقت نفسه. مضى كل شيء. قضيت تلك الليلة في أسي شفاف، راقدًا على الكنبة أقلب في جرنال قديم، متذكرًا تلك الفترات البعيدة التي لم يعد لها وجود. في الليلة نفسها جاء جدي في المنام، وسألني: "لم لا تعود إلى الدار، تفتحها وتعمرها وتتزوج بنتاً طيبة من البلد وتعيش هنا مثلما عاش جدودك؟" منتهى الجنون. نفرت من السؤال، ومن الإجابة. استيقظت في منتصف الليل. فتحت الباب وجلست في الشرفة مندهشاً من الطلب وبقيت ساهرًا حتى الصباح. وما إن دبت الحركة في الطرق، حتى دخلت وحاولت النوم مرة أخرى، وجاء جدي إلى أحلامي ثانية كأنه ينتظر أن أغفو. يطل علي ويبتسم. محا الزمن ظله، لكنه لم يمح صوته. يبتسم بسمة العارف بما حدث لي، وفي أثناء الحلم شعرت بأنه يراقبني من هناك كما قال لي ذات يوم. فتحت عيني وقد عادت إلى اللحظة الصعبة العصية على التمثل من ديسمبر عام 1978، وعاد حسي بالخوف، كأنني رأيت الموت مجسدًا. رأيت الضفة الأخرى من العالم، وعرفت شيئا مهماً لا أتمكن أبدا من تبينه، أو فهمه. شيء من الصعب الوصول إلى تحديد له، خوف أجرد، مثل قشعريرة لا تتوقف. أتذكر تحول وجهه إلى صورة ثابتة، وصوته كأنه، من خارج الزمن، يحدثني. غفوت مرة أخرى وعادت إلى الكلمات بنصها: "لا تستند على شيء. كل ما في الحياة مخوخ، توجه إلى أعماق روحك بكل ما استطعت من انتباه. أجل الصدأ الذي يتسلل من حياة بلا معنى، يتراكم تحت المغاوي والأوقات الماسخة، والأحاديث المكرورة، أجله عن روحك، هناك سوف نعاين طزاجة الخلق الأول. المشكلة تكمن في انغماسنا في أناتنا، وفي أحقادنا وفي همومنا الصغيرة، إن استطعت أن توقف الصدأ فسوف توقف التوهان في الصحراء. الحل يتلألأ هناك، ابحث عنه، وابتعد عن البهجة الزائفة. هناك البهجة التي تريد، حيث تتخلص من قشرتك

وتنسجم روحك مع البساطة الأولى".
بقيت يوما كاملا أستعيد هذه الأقوال وأتأملها. كلام مثالي لا يصلح إلا لتطييب الخاطر. لن ينفع في شيء. كيف يمكن تخليص الحياة من تعقيدها والوصول إلى حالة البساطة الأولى التي يدعيها؟ هذا أبعد ما يكون عن التحقق. لكن الحق معه في موضوع الانشغال بالرغبات العابرة.
انشغلت بمناقشة أفكاره، في الأيام التالية. أقطع كل يوم مشوارًا إلى أرض النخل يحييني الناس ويتذكرون أبي وجدي وجدتي، وأعود إلى بيت عمتي التي ما زالت فيه الحياة قائمة، لكنها أيضا حياة أخرى. لا مجال إلى عودة البساطة الأولى يا جدي. القطار تحرك. ما علينا إلا أن نطيع إغواء "من لا اسم لهم لأننا في يوم من الأيام سنصبح أيضا لا اسم لنا، بل ربما منذ الآن نحن مثل السديم لا اسم لنا.
حتى في بيت عمتي الزمن يقوم بعمله. ناصر الفلاح يحاول السيطرة على الأرض. أخوه الكبير الذي يعمل مدرسًا في المعهد الأزهري يشكو إلى أمه ضعف الرواتب وكثرة مصاريف الأولاد. تحاول عمتي أن تتقي الضغينة بين الإخوة، وتترك للكبير نصف الفدان الباقي من ميراثها ليزرعه، والأوسط يعمل سائقاً على سيارة نقل، ولا يعود إلى بيته إلا في الفجر. الحياة تعقدت يا جدي أكثر مما نتخيل، ولم يعد يصلح معها وصاياك التي غدت بمرور الوقت ساذجة، لا يحتاج المرء إليها إلا كما يحتاج إلى حلم يقظة يهدهد به نفسه ليتمكن من النوم.
عاود جدي، بعناد، الظهور في أحلامي. وحدثني أحاديث غامضة، وانشغلت أحياناً باستعادة نبرة صوته وهو ينطق وصاياه. أحاول أن أميز بين طريقته في الحديث الآن وبين الطريقة القديمة، ويختل الميزان، لا يمكنني أن أعرف إن كان كلامًا منسيًا تتم استعادته، أم هي أقوال حديثة يساعدني بها من وراء حجابه. هل كان حقاً مرشدًا لي، يطل على من بعيد ويقودني؟ لكنه في الحقيقة لم يساهم بكلمة واحدة في طمأنة قلبي. لم يساهم في الأمر الأهم وهو أن أعيش بقلب مطمئن.
في النهاية لم أتمكن من أي من وصاياه، لم أصل حتى إلى فهم بعضها. محاولات استمرت طويلاً دون جدوى، حتى وصية "تحمل الألم" التي كانت الأقرب لتحجيم نزوات شخص هوائي ومتقلب المزاج مثلي، لم أتمكن منها. وفي هذه الفترة الفاصلة من حياتي وأنا أقيم في دار أهلي وأراجع ما حدث، تأكدت أن تلك الوصايا لم تكن لها أية فائدة غير أنها كانت حدًا للحياة، وكان أصعبها هو فكرة التخلي. لم أتمكن من أن أتخلى عن بيتي وعما فعلته طول تلك السنوات.
أغلقت دار أهلي وسلمت على عمتي واستعددت للرجوع، وأنا أفكر في جدي: كيف فعلها؟ كيف استطاع أن يترك كل شيء، في الوقت الذي تسيل فيه الدماء، وتنفجر الصراعات من أجل المال. هذه الفكرة عن التخلي هي التي تعطي كلامه معنى رغم سخريتي منه. ما قام به في نهاية حياته هو الحد الذي يوقف السخرية وينبهني أن هذا ليس هراء ولا خيالات رجل يموت، إنه حقيقة. لقد فعلها، ولأنه فعلها فله حق أن يقول ما يشاء.
هذه الفكرة الأخيرة تعاندني كلما حاولت الإفلات من وصايا جدي، وتقف في وجهي، وتعيد الاحترام لحياته، وعزز الأمر أن فكرة التخلي لم يكن لها أي ظلال أخلاقية أو دينية. لم يكن يتخلى من أجل أن الدنيا بلا معنى والكفن بلا جيوب، وهذا الكلام الذي كان يمكن أن يصمه بالهلس. لقد فعلها من أجل أن تستمر الحياة. من وجهة نظره، كان تخليه عن أرضه هو الفكرة الوحيدة القادرة على صيانة الحياة في داره، تقوده في تنفيذها غريزة أبعد من الأخلاق والدين، غريزة قديمة قدم هذه الأرض: صيانة الحياة، الحفاظ على الشمعة مشتعلة إلى حين، فقد تزدهر الحياة ذات يوم. متى يحين هذا الحين؟ لا أحد يعرف إن كان قد حان يوماً أو يمكن أن يحين في يوم من الأيام.
عدت إلى بيتي في العريش، اعتذرت لبناتي وزوجتي، وبعد العيد الكبير سافرنا جميعا إلى القاهرة لنعد

مسكنا في القاهرة لابنتنا.

***

أُغلقت دار سليم على نفسها تقريباً في بداية الألفية الثانية، بعد موت أمي. هجرها أهلها وسكنها في النهاية "من لا اسم لهم" حسب نبوءة جدتي. جاء وقت الشتات. لم تعد الدار تُفتح إلا في الأعياد والمناسبات العائلية، نقضي بعض الوقت في المكان الذي ولدنا فيه وكان ذات يوم سكن أهلنا. نقضي ذلك الوقت القصير على مضض، كأن هناك من يستعجلنا أن نغادر. لم يكن هناك غير أختي آمنة وعمتي فاطمة هما من تطمئنان إلى تلك الجدران وتدعيان أنها حنون. لكن أغلبنا يشعر شعوراً داخليًا بأن الدار تطردنا. لا ترحب بنا. وأننا سنظل في شتات ما دمنا فقدنا هذا البيت. لن يكون لنا بيت بعد ذلك. الشقق التي نسكنها ونألفها قليلاً ونطمئن للحياة فيها، لا نعدها في قرارة نفوسنا بيوتًا. لقد طرد أفراد عائلة سليم من بينهم، وحلقوا في الشتات يبحثون عن بيت يسكنون فيه، متوهمين أن البيوت التي بنوها في السويس والإسكندرية والشيخ زايد، أو الشقق التي أجروها في طنطا والعريش والقاهرة ستكون بديلا عنه.

في الأعياد ينطلق الأولاد في أرجاء الدار. ينصبون شبكة الكرة الطائرة أو يعلقون "باسكت" في أحد الحوائط، وأحيانا يشترون علب الصواريخ ويثيرون تلك الفرحة المثيرة لأيام العيد. يعودون من داخل الدار وجوهم حمراء من الجري والعرق يلمع عليها، لكن في سكون الظهيرة يظن بعضهم أنه يسمع أصواتًا في الزرائب المهجورة أو في غرفة التبن التي سدت مدخلها شبكات كثيفة من شباك العنكبوت.

مفتاح الدار بقي مع عمتي فاطمة، لكي تفتحها وتهويها، وتشعر الناس بأن أهلها ما زالوا أحياء. أحياناً تصحب البنات وتغسلها وتمسح البلاط وتفتح الشبابيك وتقول لي إنها دار جميلة، أول ما تفتح الشبابيك وتغسل البلاط وتنفض الكنب تعود منيرة كأن أهلها لم يفارقوها. أتركها تعيش في محبتها لأهلها وأصمت أمام إصرارها أنها أحسن دار في الناحية مهما علا إلى جانبها أبنية من ثلاثة طوابق ودور كانت ضيقة ومظلمة طلعت عاليًا.

تقول: "وماله؟ لكن أحدًا لن يطول عز هذه الدار". آخر المناسبات الكبيرة التي فتحت فيها الدار، كان يوم وفاة عمي صالح في 13 مايو عام 2008. كانت صحته قد تدهورت في العام الأخير، رغم أن استقامة حياته وصفاء روحه، أوحيا لنا بأنه سوف يعمر أكثر من أبيه. اتصل بي "جمال" ابن عمي "علي" من السويس، واتفقنا أن نلتقي في بيت عمي "صالح" في الشيخ زايد. قضينا اليوم نتحدث معه عن رحلاته في بلاد الله، وعن الناس في الجهة الأخرى من العالم. كان مرهقاً، لكن السيرة شيقة فانتبه وحدثنا عن العادات الغريبة لبعض الناس في أفريقيا وأمريكا الجنوبية. في نهاية اليوم أغمض عينيه مبتسمًا وأدركنا أن حالته منتهية.

قررت أن أعود إلى العريش أدبر أموري لأن عمي لن يعيش طويلاً. يومها اتصلت بي عمتي فاطمة، وقالت غاضبة إنني لا بد أن أرجع إلى البلد حالًا. من يعرف متى نلتقي ثانية؟ وأخبرتني أن أصحب معي "جمال". تعلل "جمال" بالمشاغل واضطررت إلى العودة وحدي، وعندما فتحت عمتي الدار، كان الخبر قد وصل بأن روح أخيها قد فارقت الحياة.

استقبلتني بوجه شاحب، وعيون بارقة. عرفت أنها مريضة، واستغل "ناصر" ابنها انشغالها في تدبير طعام لي وقال ساخطًا: "عمتك مناكفة مثل عائلة سليم، تعبانة ولا تريد أن تستريح"، وأسر إلى بأن مرضها جدي هذه المرة، وأنها تقيأت دمًا منذ يومين. عندما عادت من داخل الدار، كان وجهها ما زال شاحبا لكن الحماس الذي يدب فيها لا يمكن أن ينطفئ.

كانت قد نسيت كل شيء، وركزت كيانها كله في سؤال واحد:
"صحيح صالح أخويا اشترى مقبرة في مصر؟"
عرفت لماذا طلبتني. لن يهدأ لها بال. خمنت خوفها القديم من انفصال الفرع عن الأصل. يا ربي يا عمتي، لا تريحين نفسك أبدًا، كأنما تحملين رسالة لن تهدئي حتى تتميها. فعلاً كان عمي صالح قد اشترى مقبرة منذ عام على الأقل. لم يهتم أحد بالأمر، لكنها لم تعرف ذلك إلا عندما بدأت استعدادها لدفن أخيها في مقبرة العائلة في البلد. قال لها ابنها الكبير:
"لا تتعبي نفسك، خالي عنده تربة في طريق الفيوم".
جلست بجواري على الكنبة في شرفة الدار الكبيرة محمومة وهي تقول:
"لن يصح هذا. ولا يمكن أن يوافق عليه عاقل".
واستدارت إلي بوجه غاضب وقالت:
"ألا يكفي ما حدث لنا في الحياة؟ تريدون أن تصبحوا أغراباً حتى في الموت؟ ما الذي حدث لكم يا أولاد سليم؟"
بدأت أفهم اعتراضها، وحنقها. ظلت غير مصدقة لترتيبات موت أخيها، وأجبرتني في الليل أن أتصل بمصطفى ابن عمي صالح، لكي تتأكد بنفسها. قال لها بثبات:
"عذرا يا عمتي أبي سوف يدفن هنا".
ولم يسمح لها أن تطيل في الكلام، واختصر الأمر:
"وصيته يا عمتي ولن أقدر على تغيير وصيته وقد أصبح بين يدي الله".
قالت غاضبة بعد أن ألقت التليفون في حجري:
"كيف فعلها؟ كيف وافق على فصل عظمه عن عظام أهله. طول عمره قاسي القلب، كما كانت تقول أمي".
لم أنم لحظة واحدة، كنا وقت دخول الصيف، حيث يطلع هاموش الأرض والبراغيث والحشرات، بقيت أتقلب في الفراش، قلقاً على عمتي. كان وجهها غريباً، أبرز الشحوب والمرض ملامحها وأظهر الأنف الطويل الذي يشبه منقار الطائر، لكن عينيها ظلتا تشعان بالبريق رغم تعكر لونهما.
في الصباح توقفت سيارة ميكروباص أمام باب الدار لتحملنا إلى القاهرة. الجميع يشعرون بالتأثر، فلم يكف الشيخ عن إرسال الصدقات إلى أهل بلده، ولم ينس قط، رغم بعده، أن يرسل في رمضان وفي الأعياد ما يستر به بعض الناس، وعندما كان يعود إلى البلد لا بد أن يخطب خطبة طويلة في جامع سيدي عبد العال، تفخر بها الست كوثر، أمه الثانية على حد تعبير عمتي فاطمة.
جلست عمتي صامتة بجواري في الشرفة، في انتظار تجمع الأقارب. تلف وجهها بطرحتها السوداء. أدركْت أنها تشعر بالإهانة، فتلك آخر الضربات التي وجهها لها شقيقها الذي انتظرت منه الكثير، هو العالم الذي كان يجب أن يلم الشمل ويعمّر الدار، هو الذي يملك الحكمة والفهم، كيف يتخلى عنهم بهذه الطريقة؟
كان سكونها مهيبًا، في هذا الصباح المضبب من شهر مايو، الذي أحاطت فيه الشبورة بشجرة الكافور الكبيرة، والتمت كثيفة حول قمم النخيل.
جاء الميكروباص. نزَلَت السلام الحجرية ببطء، وأعادت لف الطرحة حول وجهها بإحكام، ورفضت أن تجلس بجوار السائق، وشدتني من يدي وجلسنا في منتصف السيارة. لم تتكلم وظلت طول الطريق لا ترفع عينها عن النافذة تتابع البلاد تتوارى لتحل محلها بلاد أخرى.
كنت خائفًا، فصمتها الحجري ينبيء بالخطر، ولا يمكن لأحد أن يخمن ماذا ستفعل. لم تصدق لآخر

لحظة أن أخاها يمكن يدفن في مكان آخر غير مقبرة أهله. ذلك أمر بعيد عن إدراكها، يكاد في نظرها أن يكون "لا موت". لن يموت جيدا إلا إذا دفن في مقابر أهله، اتصل بجدوده منذ نشأة الأرض.
غادرنا السيارة أمام بيت عمي، ومجرد نزولها اندفعت عندما رأت جمال ابن عمي علي يقف أمام الباب يدخن:
"صحيح أخويا صالح لن يدفن في تربة أهله؟"
باغته السؤال فقال محرجا:
"ابنه يقول هذا".
"أين ابنه؟"
ودخلت البيت مسرعة وبحثت في الصالة عن مصطفى، وعندما وقعت عيناها عليه:
"كبر ابن الشيخ وأصبح له كلمة، وهو مولود على يدينا".
ونظرت إلى جمال مرة ثانية وقالت:
"كان لا بد أن تعيد إليهم عقلهم، أنت خالهم الكبير".
قال مرتبكًا:
"هم أحرار".
قالت بشخطة:
"أحرار؟ أحرار في أي حاجة إلا في الموت".
وقالت:
"تغيرت يا ابن أخويا، لو علي سليم عايش عمره ما كان يسمح بفصل بدنه عن أهله".
جاءت فادية وحاولت أن تهدئها:
"تعالي يا عمة".
صرخت فيها:
"اسكتي يا بنت "علي"، لن ينفع هذا، لن ينفع. لا بد أن أدفن أخويا صالح مع أهله".
شحب وجهها، وجرى ابنها ليسندها، ويجلسها على الكنبة. صمت كل من في البيت. لكن بعد قليل، هبت وأثارت الجو بصخبها ووقفت على باب غرفة الغسل وأصرت أن تحمل جثمانه إلى البلد. لأن موته لن يكون كاملاً، إلا إذا دفن مع أهله.
قال مصطفى:
"وصية أبي يا عمة، وصيته أحلف لك على المصحف؟"
"الله يرحمه غلطان، لم يقل لي، لو قال لي لأوقفته عند حده".
تلاحقت أنفاسها وتحول وجهها إلى لون أصفر مثل الليمون وحاولنا أن نجلسها مرة أخرى على الكنبة. لكن قوة عمتي تكفي لصد عدة رجال رغم المرض.
قالت معاندة:
"أخويا لم يكن في وعيه عندما فعل ذلك، غصبتم عليه، لا أصدق أن يطرد نفسه من لحمه".
قالت "فادية" وهي تزر المنديل الأسود على رأسها وعيناها ملتهبتان:
"اتركينا لمصيبتنا يا عمة".
قالت بحدة:
"المصيبة مصيبتي. أخويا يريد أن يفارق لحمه، وتراب أهله، المصيبه مصيبتي".
وصرخت صرخة قوية وهبت كي تفتح باب غرفة الغسل وتحمله على كتفها وتعود به إلى البلد، كما

قالت. كانت قوية وقاومت الرجال جميعا حتى أغشي عليها.
أصبحنا في ورطة، نجهز الميت أم نرعى أخته المريضة؟
في حر الظهيرة بعد صلاة الظهر، سار سرب من السيارات في طريق الفيوم الصحراوي. على جانب الطريق تلوح، في أعين من جاء من البلد، مدن جميلة، مبان حديثة، ملاعب، حمامات سباحة، وشرفات مزينة الزخارف. مدن الحكايات القديمة، الشاطر حسن والأميرات، وإعلانات التليفزيون. عالم خيالي غريب عنهم، لا يصدقون أن هناك من يعيش في تلك الساحات الخضراء، وبدا لبعضهم كأن حكاية من حكايات ألف ليلة تجسدت على الأرض.
كانت المقابر تشبه في تعقيدها وحداثتها مدينة جديدة. قرأت على مدخل المقبرة الذي يشبه مدخل بيت: الدكتور صالح عبد الرحمن محمد. لم يكتب اللقب "سليم". هل كان فعلا يتبرأ من أهله؟ كان هذا أعجب أمر. لم أخبر عمتي فاطمة التي ترقد في شقة أخيها تحت الرعاية الطبية. تعاطفت معها ومع عقائدها القديمة، وفهمت أنها حاولت أن تتفادى خطأ جدي، بأن أصرت أن تُبقي فلاحًا من أولادها، لكي يرعى الأرض، ولا يترك الدار خراباً مثل دار سليم أو تعلمه فيمحو اسم عائلته من فوق قبره.
عدنا إلى شقة عمي. كانت عمتي فاطمة قد استعادت وعيها. فقد ركب لها الطبيب محاليل أعادت إليها بعض حيويتها. لكن المرض ظل يطل من لون وجهها وعينيها. قررت أن أعود معها إلى البلد رغم أن أولادها الصبيان كانوا معها. شعرت بأنها آخر نفس لذلك الإحساس القدم بالحياة الذي نفارقه جميعًا.
أصرت قبل أن تترك بيت أخيها أن تحمل معها الجلباب الذي ارتداه قبل موته. أعطوه لها مضطرين. طول الطريق، تغفو، تبدو على وجهها علامات تحمل الألم القديمة. وصلنا إلى البلد. تركتنا واقفين حول السيارة ودخلت دارها، وأغلقت غرفتها عليها.
في اليوم التالي ذهبت لأودعها. عرفت أنها في المقابر منذ الفجر. ماذا تفعل هناك؟ ربما تذكرت أباها وأخاها الفلاح الذي فقدت برحيله ونس الأيام كما قالت ذات يوم. جلست أنتظر عودتها. لا يمكن أن أسافر دون أن أراها.
عادت ترتدي الجلباب الأسود وتشد الطرحة على جبهتها، مثلما تفعل النساء من قديم الأزل في حالة الموت. طلعت سلالم الشرفة تتحامل على نفسها ووجهها يفيض بالصفاء. خفت عليها. كانت عيناها لامعتين أكثر من المعتاد، وعرفت أنها لن تعمر طويلاً. لن تتحمل كل هذا. من رأى ما فعلت أمس يدرك أنها أيضاً في طريقها إلى الرحيل. أسرت إلى أنها أعطت كيلة أرز لحارس المقبرة وطلبت منه أن يفتحها لكي تدفن جلباب أخيها صالح.
ولم يخطر على بالي الأمر. لقد قلت إنها حملت الجلباب معها كنوع من الذكرى. لم يخطر في بالي أنها سوف تقوم بطقوس دفن بديلة. في تلك اللحظة بدت في شحوبها وحزنها كأنها تحمل أكثر مما يرى المرء، وخيل إلى أنني لم أعرفها قط، كانت تحمل نوعا آخر من الوجدان.
ظلت صامتة وقالت مستريحة:
"الحمد لله، دفنته مع أهله".
قالت كأنها تعتذر عن جنونها:
"لم أكن سأتحمل حياتي يوما واحدا".
ثم نظرت إلى بحزن:
"أصبحت عجوزًا خرفانة".
وتركتني متجهة إلى بيتها:
"لا تنس عمتك"

لم تمر عدة أشهر حتى ماتت هي الأخرى. خلص عليها مرض الكبد بسرعة شديدة، وفي الحقيقة لم أشعر بأن عائلة سليم لم يعد لها أثر إلا في جنازة عمتي فاطمة. برحيلها سقط العمود الأساسي، وفاق حزني عليها كل أحزاني. عمتي هي العرق النفيس في عائلتي. لا أتوقف أبداً عن التعجب من حياتها وذكائها وصلابة روحها، وكلما تأملت فيما فعلت لكي ندفن أخاها مع أهله أتعجب، من أي مكان جاءت بالفكرة، وكيف أدركت أن الطقس قد يحل محل الفعل؟

ستظل حية تلك السيدة التي حولت هزائمها إلى مناطق لقوتها.

رحم الله عمتي فاطمة.

Contents